الدوحة

ملتقى الإبداع العربي والثقافة الإنسانية

العدد 147 - يناير 2020

كتاب الدوحة

فَنُّ الكِتابَة

روبرت لويس ستيفنسون

ترجمة: مجدي عبد المجيد خاطر

خوان غويتيسولو

حوارات بدون حدود

صـبري حـافظ

ذكريات شخصيّة عن طه حسين

رامبو في عدن

من الشعر إلى الأسلحة!

الأدب الجنوبسوداني

ذهبوا كأجساد!



نظريّةُ المُؤامَرة..

الكأسُ المسمومة!

Doha Magazine aldoha_magazine @aldoha_magazine

حُلة جديدة

منذ مطلع مارس/آذار 2016، شرعنا في مجلّة «الدوحة» بالتحضير لمرحلة تطويريّة جديدة تُبقي على المُكتسبات السابقة وتُصحِّح ما كان في حاجة إلى تصحيح. وقد اتّضحت معالم هذه المرحلة، شكلاً ومضموناً، مع صدور العدد (103) مايو/أيار 2016، حيث انطلقت المجلّةُ بتبويب جديد قائم على مفهوم واسع للصحافة الثقافيّة باعتبارها مجالاً عاماً لا يخصُّ النخبة فقط، وذلك اعتماداً على محتوى ثقافيّ يُسهم في تنوير القارئ، ويساعده على الفهم والتفاعل مع ما يجري من أحداث، ويرعى التنوُّع والجاذبيّة ويناسب اهتمامات القارئ العامّ. وكان هذا المحتوى الجديد، سواء عبر الملفات والقضايا التي تقوم المجلّةُ بإعدادها، أو من خلال المقالات والحوارات والترجمات، كان في عمومه وفي خطوطه العامّة محتوى يرتبط من جهة: بالأسئلة التي تشغل جمهور الشباب باعتبار مرحلتهم العمريّة هي مرحلة الطموحات وبناء الذات وإنضاج الوجدان والتحصيل العلميّ. ومن جهة أخرى محتوى ينطلق من قضايا حاسمة، كالتعليم، والمجتمع، والتراث، واللُّغة العربيّة، والعلوم والإعلام الجديد. وكلّ ذلك بإعداد يواكب جديدَ المشهد الأدبيّ والإبداعيّ عربيّاً وعالميّاً، ويتّخذ من آخر البحوث العلميّة والإصدارات مرجعاً للتحليل والتثقيف.

وأمّا، فيما يخصُّ (كِتاب الدوحة) المُرفَق مع المجلّة مجاناً، وتجدر الإشارة هنا إلى صعوبة انتقاء كتاب، وتحريره، وإخراجه في مدّة لا تتعدّى نصف شهر، فإننا سنواصل هذا التحدّي، انطلاقاً من حرصنا المُستمر في مجلّة «الدوحة» على المساهمة في تعميم القراءة، وجعل الكِتاب في متناول أي قارئ عربيّ يسعى إلى الرفع من ذائقته الثقافيّة والأدبيّة. ومن هذا المنطلق فقد ارتكز (كِتاب الدوحة) في مرحلته الجديدة، على إعادة نشر الأعمال السرديّة المُؤسِّسة للرواية العربيّة، مع الانفتاح على الثقافات الأجنبيّة من خلال ترجمة كُتب لأوّل مرّة. ويمكن للقُرَّاء الكرام الذين فاتهم الحصول على النسخ الورقيّة، سواء للكِتاب أو المجلّة تنزيل النسخ الإلكترونية من خلال صفحات المجلّة على مواقع التواصل الاجتماعيّ المُختلفة. كما يمكن للقُرَّاء الحصول من خلالها على الأعداد الأرشيفيّة الخاصّة «Bestof»، والتي تحتوي على أهمّ المواضيع والحوارات التي نشرتها المجلّة خلال السنة الواحدة منذ 2016 إلى الآن.

مع توالي الأعداد اكتملت مرحلة بداية التطوير الشامل للمجلّة، بحيث تميَّز الخَطُّ التحريريّ بوضوح التوجُّهات القائمة على الانتصار للهويّة العربيّة بقيمها السمحة، مع الانفتاح على روافد الثقافة العالميّة في تعدُّدها وتقاطعاتها مع هذه التوجُّهات. وعلى هذا المنوال، انطلقنا وعليه سنستمر في مواكبة التحوُّلات الثقافيّة التي يعرفها العالم، وتأثيرها على الفرد والمجتمع، وعلى قيم التعايش والحوار والسلم، وكذلك تأثيرها على الهويّة والثقافة العربيّة في علاقتها بالثقافات العالميّة الأخرى...

وبداية من هذا العام، سيلاحظ القارئ الكريم، على غير العادة، حُلةً جديدةً يطل بها شكل مجلّة الدوحة. حُلةً أملتها ضرورات فنِّيّة وتحريريّة لم يكنْ بوسعنا تفاديها، وعزمنا سيبقى الاستمرارية وإيصال المعلومة الثقافيّة عبر مجلّة «الدوحة» إلى قُرَّائها الأوفياء من المحيط إلى الخليج، وفي المهاجر العالميّة المُختلفة، وذلك تماشياً مع شعار تأسيسها «ملتقى الإبداع العربيّ والثقافة الإنسانيّة». ونقول حفاظاً على التراكم والاستمرارية، لأننا نؤكّد على الأهمِّية الاستراتيجيّة لاستمرار حضور مجلّة «الدوحة» في طبعتها الورقيّة داخل المشهد الثقافيّ في الوقت الراهن، والتي تعمل، بالإضافة إلى دورها في التثقيف والتنوير، على تغذية الأرشيف الوطنيّ والعربيّ الذي يشكّل مرجعيّة أساسيّة للأجيال اللاحقة. في الوقت الذي نزفّ للقُرَّاء الأعزاء تمكينهم من البوابة الإلكترونية قريباً، والتي ستكون جسراً ممتداً للوصول إلى أكبر شريحة من القُرَّاء.

حُلة جديدة إذن، سيتمُّ التركيز فيها على المضمون الأكثر فعاليّة وتشابكاً مع الراهن الثقافيّ العربيّ في قضاياه الفكريّة والثقافيّة السائرة، ومع الراهن الثقافيّ العالميّ في حدود استفادتنا منه، وتقاطعنا معه، وتأثُّرنا به. وعليه ستكون الحُلةُ الجديدة لمجلّة «الدوحة» في 116 صفحة بدلاً من 160، كما سيكون للقارئ موعدٌ مع (كِتاب الدوحة) مرّة كلّ شهرين.

رئيس التحرير

رئيس التحرير
فالـح بن حسـين الهاجـري

مدير التحرير
خـالد العـودة الفضـلي

التحرير
محسـن العتيقي

التنفيذ والإخراج
رشا أبوشوشة
هـنـد البنسعيد
فلوه الهاجري

جميع المشاركات ترسل باسم رئيس التحرير عبر البريد الالكتروني للمجلة أو على قرص مدمج في حدود 1000 كلمة على العنوان الآتي:
ص.ب.: 22404 - الدوحة - قطر

البريد الإلكتروني:
editor-mag@mcs.gov.qa
aldoha_magazine@yahoo.com
تليفون : 44022295 (974+)
فاكس : 44022690 (974+)

الدوحة

ثقافية شهرية

العدد 147

السنة الثالثة عشرة - العدد مئة وسبعة وأربعون
جمادى الأولى 1441 - يناير 2020

تصدر عن:
إدارة الإصدارات والترجمة
وزارة الثقافة والرياضة
الدوحة - قطر

صدر العدد الأول في نوفمبر 1969، وفي يناير 1976 أخذت توجهها العربي واستمرت في الصدور حتى يناير عام 1986 لتستأنف الصدور مجدداً في نوفمبر 2007.

الاشتراكات السنوية

داخل دولة قطر

الأفراد	120 ريالاً
الدوائر الرسمية	240 ريالاً

خارج دولة قطر

دول الخليج العربي	300 ريال
باقي الدول العربية	300 ريال
دول الاتحاد الأوروبي	75 يورو
أمريكا	100 دولار
كندا وأستراليا	150 دولاراً

التوزيع والاشتراكات

تليفون : 44022295 (974+)
فاكس : 44022690 (974+)

البريد الإلكتروني:
distribution-mag@mcs.gov.qa
doha.distribution@yahoo.com

الشؤون المالية والإدارية

finance-mag@mcs.gov.qa

ترسل قيمة الاشتراك بموجب حوالة مصرفية أو شيك بالريال القطري باسم وزارة الثقافة والرياضة على عنوان المجلة.

مواقع التواصل

@aldoha_magazine
Doha Magazine
aldoha_magazine

الموزعون

وكيل التوزيع في دولة قطر:

دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع - الدوحة - ت: 44557810 فاكس: 44557819

وكلاء التوزيع في الخارج:

سلطنة عُمان - مؤسسة عُمان للصحافة والأنباء والنشر والإعلان - مسقط - ت: 009682493356 - فاكس: 0096824649379/ الجمهورية اللبنانية - مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع - بيروت - ت: 009611666668 - فاكس: 009611653260/ جمهورية مصر العربية - مؤسسة الأهرام - القاهرة - ت: 002027704365 - فاكس 002027703196/ المملكة المغربية - الشركة العربية الإفريقية للتوزيع والنشر والصحافة، سبريس - الدار البيضاء - ت: 00212522249200 - فاكس:00212522249214

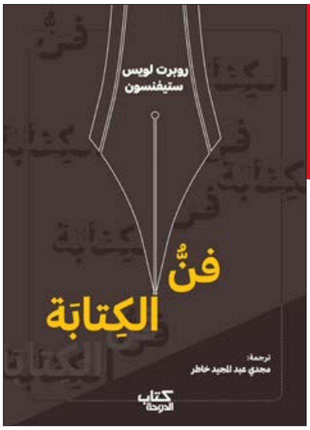
الأسعار

دولة قطر	10 ريالات	المملكة المغربية	15 درهماً
سلطنة عمان	800 بيسة	الجمهورية اللبنانية	3000 ليرة
جمهورية مصر العربية	10 جنيهات		

الغلاف:

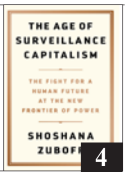


مجاناً مع العدد:

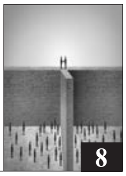


www.dohamagazine.qa

في هذا العدد



4
أيّ مُستقبلٍ على الحدود الجديدة للسُّلطة؟
رأسماليّة المُراقَبة
(محمد الإدريسي)


8
في هذا النظام لحقوق الإنسان
الحدودُ المفتوحة
(مايكل س. داوبر - تـ: مروى بن مسعود)


12
منسوجات وراپيني
خيوط الأمل والحياة
(كوناتي موسى)


16
كيف سقطت فريسة للتكنولوجيا؟
الموسيقا والآلة
(أمبرتو إيكو - تـ: عبدالرحيم نورالدين)


22
جوليا كريستيفا:
أن تعيشَ معناه أن تجدَ شكلاً
(حوار: مارتن لوغروس - تـ : طارق غرماوي)


26
خوان غويتيسولو
حوارات بدون حدود
(تـ : إبراهيم الخطيب)



34-60

نظريّةُ المُؤامَرة..
الكأسُ المسمومة!

أوهام المُؤامَرة بين العامّ والخاصّ
(خالد بلقاسم)
التأويل من داخل العلبة
(عبد الرحيم العطري)
لماذا نؤمن بنظريّات المُؤامَرة؟
(يوسف وقاص)
نظريّات المُؤامرة، محيطة بنا دائماً
(جان وليام فان برواجين - تـ: رضا الأبيض)
المُؤامَرة والديموقراطيّة
(يوسف تيبس)
أسطورة حديثة في مواجهة اللايقين
(محمد الإدريسي)
المسكوت عنه في سردية التآمر
(كمال عبد اللطيف)

تقارير | أدب | فنون | مقالات | علوم |

كلماتٌ في الرواية التاريخيّة (آدم فتحي)	32
رامبو في عدن.. من الشعر إلى الأسلحة! (محمَّد الغزّي)	84
لا يعيش الناس جميعاً، على الأرض، بالطريقة نفسها (جان بول دوبْوَا - تـ: أسماء مصطفى كمال)	96
منعطفاتٌ بارزة في مسار الرواية العربيّة (محمد برادة)	104
حتى لا يظلّ المرء فريسة لنفسه!..كيف نتعامل مع الأغبياء؟ (فيصل أبو الطُّفَيْل)	106
فلسفة الهندسة المعماريّة (عبد الرحمان إكيدر)	108
خليل بيدس.. رائد منسي (نادية هناوي)	112
بابُ الصديق (من رسائل البلغاء لـمحمد كرد علي)	114
مفهومُ الشِّعرِ أَمِ الشِّعرُ المفهومُ؟ (محمَّد حِلمي الرِّيشة)	120



68-83

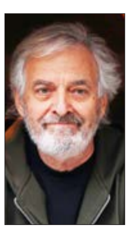
الأدب الجنوب سوداني المكتوب باللّغة العربيّة
ذهبوا كأجساد!

الخروج من منطقة الظلّ
(اتيم سايمون)
مسرح كواتو.. بين العربيّة والعامّيّة
(عاطف الحاج سعيد)
في فناء الوزارة
(قصة: ملوال دينق)
انتحار
(قصة: بوي جون)
مختارات شعرية:
(سايمون أبراهام- اتيم سايمون- ألدو ديمو)

حوارات | نصوص |



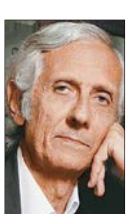
62
ذكريات شخصيّة
عن طه حسين
(صبري حافظ)



92
جان بول دوبْوَا:
أبطالي خارجون عن المألوف
(حوار: كلير شزال- تـ: أسماء مصطفى كمال)



96
أومبرتو إيكو
آخر الكلمات
(توليو بيريكولي - تـ: أحمد شافعي)



100
جيوفاني كيسيب
عربيّ من رحلة الشتات
(خالد الريسوني)

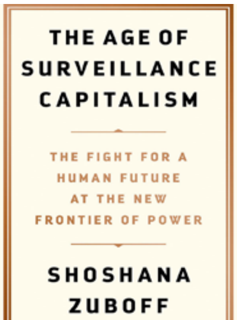
أيّ مُستقبلٍ بشريّ على الحدود الجديدة للسُّلطة؟

رأسماليّة المُراقَبة

منذ سنة 2015، انتبهت عالمة النفس والأديبة الأميركيّة «شوشانا زوبوف Shoshana Zuboff» إلى أن المنظومة الرأسماليّة خلال العصر الرَّقمي قد عملت على استغلال الثورة التقنية من أجل توفير خدمات مجانية يستخدمها ملايير الأفراد بشكلٍ طوعي وحرّ، وتتيح لمقدِّمي هذه الخدمات فرصة مراقَبة سلوك هؤلاء المُستخدمين والتفاصيل الدقيقة لحياتهم الشخصيّة -غالباً دون موافقتهم الصريحة- الأمر الذي دفعها إلى توصيف هذه السيرورة بـ(عصر/مرحلة) «رأسماليّة المُراقَبة -(1) surveillance capitalism». فما المقصود بـ«رأسماليّة المُراقَبة»؟ وإلى أي حدٍّ يمكن الحديث عن تكيُّف واستغلال المنظومة الرأسماليّة للثورة الرَّقميّة في اتِّجاه الهيمنة الاقتصاديّة الجديدة التي تتجاوز المقولات الفلسفيّة لمجتمع ودولة المُراقَبة؟ وأي انعكاسات لهذا المُعطى الجديد بالنسبة للمنطقة العربيّة؟



شوشانا زوبوف▲



«تقوم رأسماليّة المُراقَبة على النظر إلى التجربة الإنسانيّة بوصفها مادةً مجانية خام قابلة للترجمة إلى بيانات سلوكية. على الرغم من أن جزءاً كبيراً من هذه البيانات يتم تحويله لتطوير الخدمات المُقدَّمة، إلّا أن الباقي يعلن كفائض سلوكيّ مملوك (للشركات) ويدرج في عمليّات التّصنيع المُتقدِّمة المعروفة باسم «ذكاء الآلة - machine intelligence-) للاستفادة منه في تصنيع منتجات تنبؤية تتوقَّع ما سنفعله الآن، قريباً ولاحقاً». تلخص هذه العبارة الأطروحة المركزية لكتاب «رأسماليّة المُراقَبة، الكفاح من أجل مُستقبل بشريّ على الحدود الجديدة للسُّلطة - The Age of Surveillance Capitalism: The Fight for a Human Future at the New Frontier of Power» للأديبة وعالمة النفس الأميركية شوشانا زوبوف. تحاجج الباحثة على كون المنصَّات الرَّقميّة ومواقع التواصل الاجتماعيّ ليست مجرَّد خوارزميات ذكيّة لتجميع البيانات الشخصيّة للمُستخدمين، وإنما هي كذلك نسقٌ من العمليّات الاقتصاديّة الهادفة إلى التنبؤ بالسلوكيّات البشريّة وتكييفها مع قوانين السوق (أسواق السلوكيّات المُستقبليّة) ضمن مرحلة جديدة من تطوُّر الرأسماليّة قائمة على مراقَبة الأفراد والمُستخدمين (رأسماليّة المُراقَبة) والانتقال من الإنتاج والتسويق نحو الاستثمار في السلوكيّات البشريّة المُستقبليّة.

تعيب شوشانا زوبوف على البحوث الاجتماعيّة و النفسيّة حول عالم الأنفوسفير إغفالها لفكرة أن الثورة الرَّقميّة والتقنية الحديثة ما هي إلّا مرحلة جديدة من تطوُّر الرأسماليّة التي وجدت في التكنولوجيّات الحديثة فرصة للرهان على التنبؤ بالسلوكيّات المُستقبليّة للأفراد سبيلاً نحو تحقيق الربح ومنافسة -أو تجاوز- الوظيفة الرقابيّة للدولة وتحويل السلوك البشريّ إلى فائض قيمة قابل للاستثمار. صحيح أن الرغبة في التحكُّم في السلوكيّات الفرديّة واللعب بعواطف الأفراد واستمالتهم إلى ما يشبه العبودية الرَّقميّة الطوعية القائمة على تقديم البيانات أساس اشتغال العالم الرَّقمي اليوم، إلّا أن سؤال المُستقبل والرغبة في التحكُّم في سلوكيّات الأفراد المُستقبليّة وتوجيهها وفقاً لقوانين السوق يجسّد الهدف الخفي لهذه الثورة الجديدة التي تبيِّن إلى أي حدٍّ يمكن للرأسماليّة أن تتكيَّف مع التحوُّلات التقنية والاجتماعيّة والسياسيّة و الاقتصاديّة بوصفها «مقاولاً للعالم» بلغة جيل دولوز.



يمكن أن نفهم الآن العبارة الشهيرة التي ظلّ ستيف جوبز، مؤسّس شركة آبل، يردِّدها باستمرار «نحن مَنْ نبتكر ونقنع المُستخدم بما نراه ونستخدمه» على أنها تجسيد حرفي للمقولات الاقتصاديّة لرأسماليّة المُراقَبة. إن المتاجرة في بيانات المُستخدمين لا تعني بالضرورة فتح الباب أمام المُعلنين من أجل عرض منتجاتهم وإقناع المستهلك بها فقط، وإنما تحوَّل الأمر اليوم إلى رغبة في مراقَبة سلوكيّات الأفراد ضمن عالمِ الأنفوسفير من أجل التحكُّم بها مُستقبلاً وخلق سوق استهلاكيّ لا يعترف بحاجات ومتطلَّبات الأفراد بقدر ما يفرض عليهم التوجُّهات الاقتصاديّة والتقنية التي تراها رأسماليّة المُراقَبة صالحةً. نتيجة لذلك، تكون الرأسماليّة قد نجحت في جعل الاقتصاد المُتحكِّم الأساس في حياة الشعوب ونسق تنظيم شؤونهم السياسيّة، واستحوذت على الوظيفة الرقابية للدولة؛ ما دامت هذه الأخيرة تلجأ إلى غوغل أو فيسبوك طلباً لبيانات مواطنيها.

ستتحوَّل الرأسماليّة والثورة الرَّقميّة إلى خطر كبير على الديموقراطية نفسها، كما يؤكِّد الأكاديمي الإيرلندي «جون نوغتن - John Naughton». لم يعد المُراقِب هو الفاعل السياسيّ والمُراقَب هو المواطن البسيط والمقهور، كما صوَّره جورج أورويل في روايته الشهيرة 1984، وإنما أصبحنا أمام مواطن يقدِّم طوعياً بياناته لعالم الأنفوسفير لكي تستخدم ضده (تُباع للفاعل الاقتصاديّ والسياسّي) من جهةٍ، وتُستثمر في توجيه سلوكه المُستقبليّ من جهةٍ أخرى. أضحى المُراقَب مسيراً ومشاهداً في الآن نفسه، في حين أن الفاعل الاقتصاديّ خفي وغير قابل للمساءلة مادام المواطن يلج العالم الرَّقميّ بطوعية. نكون إذن أمام سيرورة رسملة للحياة الإنسانيّة تستفيد من الاقتصاد الإلكتروني من أجل مراقَبة الإنسان والتنبؤ بسلوكيّاته ولن تنتهي إلّا برسملة و«أتمتة الإنسان نفسه»، كما تقول شوشانا زوبوف.

قد نذهب حدَّ التجسيد الواقعي للصورة الرمزية للأخ الأكبر التي ترادفت في أذهاننا مع مفاهيم السُلطة والمُراقَبة والهيمنة. تعتبر زوبوف أن «مارك زوكربيرج - Mark Zuckerberg» (مؤسِّس فيسبوك) (بالإضافة إلى كلّ من «لاري بايج - Larry Page» و«سيرجي برين - Sergey Brin» مؤسّسا غوغل) هو التجسيد الحقيقي لرأسماليّة المُراقَبة من ناحيةٍ، وأنموذج للأخ الأكبر المراقب من ناحيةٍ أخرى. يتعلّق الأمر بأشخاص راكموا ثروات ضخمة من خلال المتاجرةً بخصوصيات الأفراد، تحت شعارات الترابط الاجتماعيّ وتأسيس مجتمع منشبك كوني، عبر التحكُّم في لغة، أمن وعواطف المُستخدمين و«بناء العالم الذي نطمح إليه أجمعين»؛ لكن هذه المرّة «مجتمع المُراقَبة الرَّقميّة».

في حقيقة الأمر، لا يجب أن نفهم من هذا التحليل أن الثورة الرَّقميّة والتقنية الراهنة هي بالضرورة تحوُّل تاريخيّ قائم على المُراقَبة وتجميع البيانات انطلاقاً من إمكانات إنترنت الأشياء وخدمة لرهانات تطوُّر الذَّكاء الاصطناعي في سيناريوهاته المختلفة. إن الأنفوسفير ما هو إلّا فضاء



رقميّ تمت سلعنته من قِبل الرأسماليّة، كما تم تسليع العمل والمال والأرض قبله، من أجل الوصول إلى رهان التنبؤ بالسلوكيّات الإنسانيّة التي تمثّل سلعنة حقيقيّة للإنسان بما هو إنسان. استفادت رأسماليّة المُراقَبة من التحوُّل الذي تحدَّث عنه جيل دولوز من «المجتمعات التأديبية - disciplinary societies» (الأسرة، المدرسة...) نحو «مجتمعات المُراقَبة - societies of control» المباشرة، بحيث أضحت قادرة على تعديل السلوك البشريّ عالمياً ليناسب الأهداف التجارية المختلفة، من خلال الرهان على بيع الخدمات وشراء «المُراقَبة»، كما يؤكّد الباحث الإنجليزي «إلكسندر ليسكانيتش - Alexandre Les-kanich».

تستند شوشانا زوبوف إلى تحليلات عالم الاجتماع المجري «كارل بولاني - karl polanyi» (المُهمَّش إلى حَدٍّ كبير بين الجماعات العلميّة)، الذي رصد ثلاث موجات أساس لتطوُّر الرأسماليّة ولبرلة العالم خلال القرنين الماضيين (تحويل العمل، المال والأرض إلى سلع)، لتتحدَّث عن موجة رابعة للرأسماليّة نعايشها اليوم. عملت رأسماليّة المُراقَبة على انتهاك عذرية التجربة الإنسانيّة في الفضاءات الرَّقميّة وتحويلها إلى سلعة وهمية انطلاقاً من صناعة وتوجيه السلوكيّات البشريّة والمتاجرة بها على نطاقٍ واسع. إن الأفراد يغادرون عالمهم الواقعيّ نحو العالم الافتراضي، في حين أن شركات المُراقَبة تتحكَّم في البيانات السلوكية الافتراضية من أجل توجيه حياتهم الواقعية في مناحٍ وأبعادٍ لم نكن يوماً نتخيَّلها.

طيلة عشر سنوات، ظلّت الشركات الكبرى ومواقع التواصُل الاجتماعيّ تراهن على إقبال المُستخدمين على هذه المنتجات المجانية من أجل تجميع المعطيات والتنبؤ بسلوكيّاتهم المُستقبليّة انطلاقاً من طبيعة البيانات الشخصيّة التي يقدِّمونها. اليوم، تغيَّرت هذه المعادلة مع اختراق رأسماليّة المُراقَبة لبيوتنا. لم يتجاوز رقم معاملات الشركات المُتخصِّصة في الأدوات المنزلية الذَّكية 15 مليار دولار سنة 2017، ومن المُتوقَّع أن يصل الرقم إلى 101 مليار دولار سنة 2021! لا أعتقد أن تقنيات مثل فرشاة الأسنان الذَّكية، المصباح الذَّكي، الكوب الذَّكي، كاميرا التعرُّف على الوجه، المساعد الصوتي المنزلي... تتوقَّف حياة الإنسان اليومية على وجودها من عدمه، لكنها أساساً أجهزة لتجميع أكبر قدرٍ من البيانات الخاصّة بالمُستخدمين واستغلال الفائض السلوكي نحو مزيدٍ من التحكُّم بسلوكيّات وحياة الإنسان المُستقبليّة. في الواقع، ظهرت خلال السنة الحالية تقارير تفيد بأن العديد من الشركات تراقب بيانات وسلوكيّات المُستخدمين بالاعتماد على المساعد الصوتي المنزلي («سيرى - Siri» لأبل على وجه الخصوص)، ليس بهدف المتاجرة بها، وإنما بهدف استثمار خوارزميات الذَّكاء الاصطناعيّ في التعرُّف على سلوكيّات وحياة الأفراد الخاصّة والتحكُّم بها. لذلك، يعد قادم الأيّام بمزيدٍ من التحكُّم والمُراقَبة، التي تتخفَّى في ثوب مجانية الإنترنت والتطبيقات المختلفة، إذا لم نستطع الوعي بأن مصدر الخطر الأساس على خصوصياتنا وحرّيّتنا هم الشركات الاقتصاديّة الكبرى أكثر من الفاعل السياسيّ نفسه.

يتجاوز عدد مُستخدِمي الإنترنت بالعالم العربيّ 200 مليون مُستخدم، وأزيد من 300 مليون مُستعمِل للهواتف الذَّكية، وعشرات الملايين من مُستخدِمي التقنيات المنزلية الذَّكية... ما يبيِّن بوضوح انخراط مجتمعاتنا السريع في النمط الجديد لرأسماليّة المُراقَبة. تحت ثقل المجانية واستمالة الشباب والمراهقين والخوف من كونية المُراقَبة والتحكُّم الرَّقميّ في الحياةِ الاجتماعيّةِ والسلوكيّات اليوميّة للإنسان، يبقى الحلُّ هو الاعتراف بأننا نعيش في عصر المُراقَبة الرَّقميّة والرهان على حماية الخصوصيات بوصفها الحلَّ الوحيد للحَدِّ من امتداد رأسماليّة المُراقَبة قبل فوات الأوان؛ فمع تطوُّر برامج تعميم ومجانية الإنترنت سننخرط -لا محالة- في عصر رسملة و مراقَبة الحياة الإنسانيّة بوصفها سلعةَ المُستقبل!

■ **محمد الإدريسي**

الهامش:

- Shoshana Zuboff, The Age of Surveillance Capitalism: The Fight for a Human Future at the New Frontier of Power, PublicAffairs, 2018.

دولة قطر
وزارة الثقافة والرياضة























Doha Magazine   aldoha_magazine   @aldoha_magazine



في هذا النظام لحقوق الإنسان، علينا الالتزام

الحدودُ المفتوحة

هناك العديد من الدول الغنيَّة التي تتمتَّع بمُقوِّمات حقوق الإنسان، ولا شَّك في أنها تمتلك وسائل لتأمين هذه الحقوق لبضعة آلاف أخرى على الأقلّ. على الرغم من أنَّ براين أوريند لا يتطرَّق بشكلٍ مُحدَّد لموضوع الهجرة في أعمالِه، لكن من الممكن أن نجادلَ بأنَّ فتحَ الحدودِ أمام بعضٍ من أولئك الذين يُحرَمون منها بموجب سياسات الهجرة الحالية التزامٌ أخلاقيٌّ من منظور حقوق الإنسانِ. ولأنَّ الالتزامَ بحقوق الإنسان مبدأٌ عالميٌّ، فإنَّ ذلك يظهرُ بشكلٍ خاص في سياقِ الهجرات الجماعيّة الناجمة عن الاضطهادِ أو الإبادةِ الجماعيّة أو الحرب أو الكوارث الطبيعيّة واسعة النِّطاق. فكرة العالميّة -كوننا كائنات بشريّة متساوية في القيمة الجوهريّة، بصرف النظر عن أصلنا- تُحفِّزنا على التصرُّف بشكلٍ جيّد تجاه الآخرين كلّما كان ذلك ممكناً. إذا أخذنا على محمل الجدِّ التزاماتنا بمساعدة المُحتاجين، فهل يجب أن نفتح حدودَنا على أوسع نطاقٍ ممكن؟ هل هذه هي الطريقة التي يجب أنْ نستجيبَ بها لتدفُّق اللاجئين؟

الحقُّ في الحياةِ ينطوي على الحقِّ في الضرورات الأساسيّة التي تدعم الحياة، مثل الطعامِ والشرابِ. ومن دون الحقِّ في الغذاءِ والماءِ في حالاتِ الطوارئ، يمكن أن تفقدَ جميعُ الحقوقِ الأخرى معناها. في كتابِه «حقوقُ الإنسانِ: المفهومُ والسياقُ» (2002)، يجادل برايان أوريند، الفيلسوف في مجال حقوق الإنسان، بأن الذين يمتلكون مقوِّمات حقوق الإنسان من غذاء وماء وعلاج مطالبون بمساعدة مَنْ يفتقرون إليها. وفي توليفة من أفكاره الخاصّة مع أفكار توماس بوغ، يجادل أوريند بأن الأفراد

والمؤسَّسات على حدٍّ سواء مطالبون بتمكين الناس من الوصول إلى احتياجاتهم الحيويّة.

وجهات نظر كونية

جاك دريدا وإيمانويل ليفيناس أبرز مَنْ طرح بعض النقاط المثيرة للاهتمام حول الهجرة واللاجئين. يستلهم دريدا من التاريخ. في كتابه «حول العالمية والتسامح» (2001)، يروِّج لفكرة «مدن الملجأ» - الأماكن التي يمكن للمرء أن يصبح فيها آمناً أو يتلقَّى المساعدات. كانت هذه المدن موجودةً بأشكالٍ مختلفة على مرِّ التاريخ، سواء الأماكن التي يمكن للمرء أن يفرَّ إليها من مخطَّطات الانتقام بدافع الشرف، أو المدن التي يمكن أن نلجأ إليها هرباً من الحربِ والدمار على غِرار إيطاليا في القرون الوسطى. ويمكن اعتبار الولايات المتَّحدة عموماً كمثال عن «المدينة الملجأ» - مجتمع قائم على هجرة الفقراء والمُضطهدين، حيث يمثِّل الاضطهاد السياسيّ أو العرقيّ أو الجنسيّ أو الدينيّ أمراً غير قانونيّ. يمثِّل تركيز دريدا على المدن أيضاً بديلاً عن السياسات الوطنيّة الشاملة: هل يمكننا أن نجعل سياسات الهجرة شأناً خاصّاً بالمدن الفرديّة؟

قد لا يزال من الضروري إجراء تدقيق أمنيّ أو بحث في الخلفية الفكريّة للحفاظ على الأمن القوميّ؛ لكن إنشاء مدن ملجأ تستقبل المهاجرين من شأنه أن يكون عاملاً مساعداً، بدلاً من إجبارهم على المضي نحو أرضٍ غير مألوفة وغير مضيافة. يمكن أن يخفِّفَ ذلك بعض المشكلات التي يواجهها أولئك الذين يضطرون لمغادرة بلدهم الأصليّ، ويسمح بتخطيط أكثر مرونة من قِبَل المجتمعات المضيفة لهم.

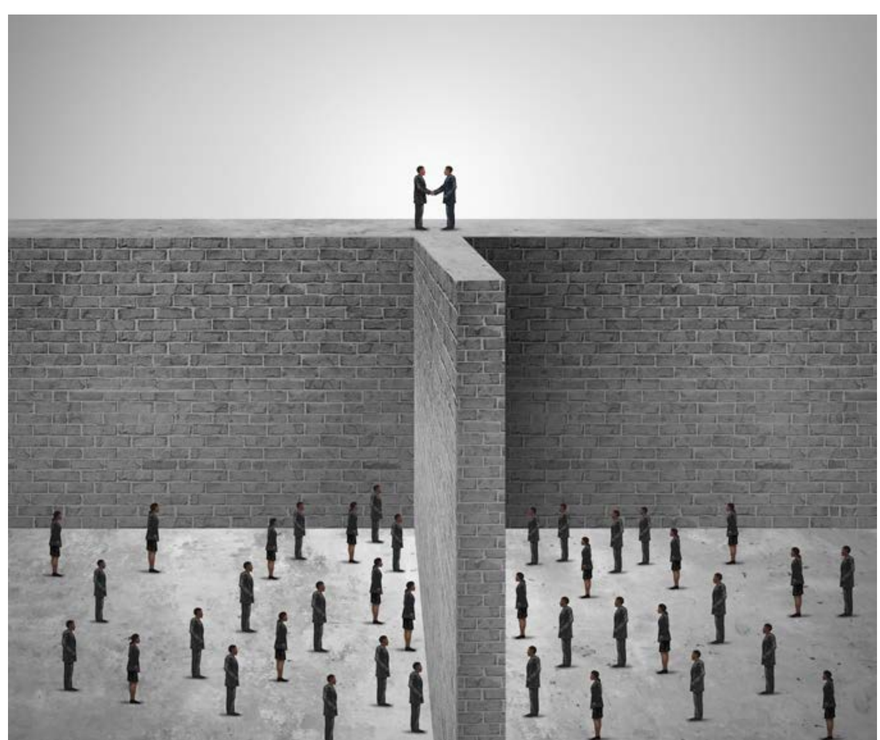
جادل إيمانويل ليفيناس، ردّاً على أهوال الهولوكوست والجانب المظلم من الوجودية الهايديغرية، بأن الآخر من منظور ظاهري هو كائن «غير معروف». بمعنى آخر، لا يمكننا ببساطة أن نعرف بدقة ما الذي يختبره الآخرون وما الذي يفكِّرون فيه. بما أننا لا نستطيع أن نفترض أن الآخرين الأجانب معادون لنا، علينا واجب محاولة فهمهم عبر الحوار الذي يمكِّننا من «سماعهم»، ولا يشجعنا على إلحاق الأذى بهم. مثل هذه اللقاءات تجعل من المستحيل تجاهل نداءات العاجزين.

قبل ذلك بفترةٍ طويلة، جادل إيمانويل كانط، الذي قام بتطوير المثالية العالميّة في «فكرة عن تاريخٍ عالميّ من منظورٍ عالميّ» (1784) أنه باعتبار أن الحدود ليست تمييزاً طبيعياً، ولكن من صُنع الإنسان، يصبح لدينا جميعاً الحقّ الطبيعيّ في اجتيازها. واقترح أن يكون ذلك مقيَّداً، حيث يجب على المرء أن يسعى إلى الحصول على تصريح بالبقاء في بلدٍ أجنبيٍّ بشكلٍ دائم.

لكن من بين الشواغل الرئيسية للمواطنين بشأن زيادة الهجرة هو فقدان الهويّة الثقافيّة. ومع ذلك، فإن مناقشة كانط حول التأثير الإيجابيّ للتفاعل والتعاون مع الأجانب توفِّر سبباً مقنعاً لزيادة أعداد المهاجرين. من خلال زيادة التنوُّع والسماح بطرق تفكيرٍ جديدة، نقوم في الواقع بتطوير ثقافتنا، ممّا يحسِّن من قدرتها التنافسيّة من خلال التعاون.

هذه الفكرة تمَّ شرحها بشكلٍ مدقَّق من قِبَل جوليا كريستيفا في «نحن غرباء إلى أنفسنا» (1991). تجادل الأخيرة بأن كلّ ما نعتبره غريباً في الآخرين هو ببساطة جزء من أنفسنا وقمعناه؛ لذلك من خلال مواجهة الآخرين وفهمهم، نحن نتعرَّف على أنفسنا، وليس لدينا سببٌ وجيه للبقاءِ معزولين. علاوة على ذلك، تتلاشى جنون العظمة الثقافيّة والخوف من الآخرين عندما ندرك حقّاً أن الآخرين لا يختلفون عنّا. وبمجرَّد أن ندرك أنه بصرف النظر عن ثقافاتنا المختلفة، نحن قادرون على القيام بأعمالٍ وإنجازاتٍ متشابهة، وبأننا نتشارك في بعض القيم الأساسيّة، لن يعد لدينا أيُّ سببٍ مقنع للتخلّي عن الآخرين. من المنظور النفسيّ والمعنويّ، تقع علينا مسؤولية التعلُّم من بعضنا البعض، لأن هذه العملية تساعد جميع المعنيين على التطوُّر ككائناتٍ أخلاقيّة وثقافيّة.

ويمكن ملاحظة هذا التطوُّر الجماعي من منظورٍ ماديٍّ أيضاً. وفقاً لأندريس ج. بوماريغا وإوجينيو روث، على عكس الفكرة الشائعة المُتمثِّلة في أنَّ المزيد من الهجرات ستكون لأسبابٍ اقتصاديّة، أظهرت الدراسات أن الدول والولايات التي لديها سياسات هجرة أكثر انفتاحاً قد استفادت فعليّاً من حيث عائدات الضرائب. تشير البيانات إلى أن إحدى الحجج الشائعة ضد إصلاح الهجرة -وهي أن السياسات الموسَّعة ستؤدي إلى استنزاف مالي- غير صحيحة. ومع ذلك، فإن هذا النهج الفكريّ أكثر تعقيداً مما يبدو.





معارضة الحدود المفتوحة

على ضوء حقوق الإنسان، تكون هذه الحُجج أضعف بكثير من الاعتقاد السائد. أحدها ذكرته سابقاً يتعلّق بالنفع المادي. على الرغم من أن الدراسات تشير إلى أن الهجرة تعود بالنفع على الاقتصاد، إلّا أن هناك متغيّرات كامنة. أوّلاً، في القرن الحادي والعشرين، يوجد عددٌ أقلّ من المساحات الجغرافيّة المفتوحة أمام المهاجرين عمّا كانت عليه في موجات الهجرة السابقة، وهذا يحدُّ من إمكانية هذا النوع من النمو الاقتصاديّ الذي كان، في الغالب، نتيجة لتلك التحرُّكات السابقة. بالإضافة إلى ذلك، يمكن القول إن الولايات/الدول تستفيد من الهجرة الخاضعة للرقابة، والتي تمرُّ عادةً عبر قبول الأشخاص ذوي المهارات الخاصّة والمؤهلات الوظيفيّة. بشكلٍ عام، قد يكون لدى الكثير ممَّنْ يهاجرون بشكلٍ غير قانوني إمكانات مالية فورية ضئيلة أو معدومة، وقد يحتاجون إلى رعايةٍ أو مساعدةٍ طبيَّة. في هذا الصدد، جادل الكثيرون بأن توسيع سياسات الهجرة دون مؤهل سيؤدّي في الواقع إلى استنزافٍ مالي.

وهناك العديد من المخاوف الاقتصاديّة الأخرى. جادل البعض بأن فرض المزيد من الضرائب على السكّان لتغطية زيادة تكاليف الرعاية الاجتماعيّة والبيروقراطية من شأنه أن يقلِّل من مستوى المعيشة لعددٍ كبيرٍ من السكّان. قد يبدو هذا غير عادلٍ لأولئك الذين يشعرون أنهم لم يفعلوا شيئاً يستحقون عليه تخفيض مستوى المعيشة. حجّة أخرى فيما يتعلّق بسوق العمل. إذا كان سوق العمل ضعيفاً ومعدّل البطالة مرتفعاً، فإن إضافة المزيد من الأفراد الباحثين عن عمل ستؤدّي إلى تفاقم المشكلة. ورغم أن هذه الحجّة تمثّل مصدر قلق كبير، إلّا أن أحد الردود هو أن زيادة عدد السكّان ستزيد عدد المحتاجين إلى الخدمات، وتولِّد وظائف جديدة.

يسلِّط كلّ من دريدا وريتشارد كيرني الضوء على قضيةٍ أخرى: الأمن. في عصرنا، يمكن القول إن الخوف الأكبر للأمن القومي في العالم المُتقدّم هو الإرهاب. إن فتح الحدود بشكلٍ عشوائي قد يفتح الباب أمام الإرهابيين والجواسيس وغيرهم من الأفراد البغيضين الذين يشكِّلون تهديداً للرفاهية المشتركة. يتطرَّق دريدا إلى هذا ببساطة من خلال الإشارة إلى حالة الغموض عند مقابلة شخصٍ آخر. لا يعرف أحدٌ ما إذا كان الآخَر صديقاً أم عدواً. يتناول كيرني في كتابه «الغرباء، الآلهة والوحوش» هذا الغموض بشكلٍ مباشر. بينما يجب أن نكون منفتحين على الآخرين، فإنه يحذّر من الانفتاح الكلّي، بحيث نصبح عرضةً للضرر بشكلٍ غير معقول. «يمكنك قتل الأجنبي كعدوٍ ومصدر تهديد أو التغلُّب على الخوف الأوّلي والردّ بإيماءة الترحيب» - لكن يجب أن نكون دائماً على دراية بأن الآخر قادر بالقدر نفسه على حُسن الضيافة أو العداء. ومع ذلك، يلاحظ كيرني أيضاً أنه لا يجب علينا التضحية بمجموعاتٍ كاملة من الناس بسبب مشكلاتنا، كما فعلت العديد من المجتمعات السابقة. وقد يرتكب بعض الأفراد من الجماعات الأخرى فظائع ضدنا، لذلك يجب أن نكون منتبهين ولا نلقي اللوم على ثقافاتٍ بأكملها ونحمِّلها مشاكل العالم. بدلاً من ذلك، يجب علينا «أن ننظر إلى أنفسنا ونفحص ضمائرنا في مرآة آلهتنا ووحوشنا».

أخيراً، جادل البعض بأن قوى الهجرة المُهمَّة تفرض تحوُّلاً على الهويّة الثقافيّة، وبالتالي ينبغي تقييد الهجرة بشدّة. لقد سبق أن وصفت إجابة كانط لهذا القلق الثقافيّ. لا ينبغي تهديد ثقافتنا وتقاليدنا، ولكن يمكن تعزيزها وتطويرها من خلال هذا اللقاء مع الثقافات الأخرى. وهنا أضيف أن ثقافات العديد من الدول الغنيَّة متنوِّعة بالفعل بطبيعتها، وأن هذا التنوُّع يمثِّل رصيداً قيِّماً.

تبدو هذه المخاوف أكثر إلحاحاً في الوقت الحالي فيما يتعلَّق بالصِّراع السوري. المسألة ليست ببساطة حول التكاليف الاقتصاديّة لمساعدة عدد هائل من اللاجئين اليائسين، ولكن سعي الكثيرين في الغرب للتغلُّب على التحيُّزات العرقيّة والدينيّة ضد سكّان الشرق الأوسط. هذه الشواغل الثقافيّة المعيبة لا يجب أن تمثِّل سبباً لتقليل التزامنا الأخلاقيّ بحماية حقِّ



جميع البشر في الحياة وتأمين كرامة إنسانيّة عالميّة.

نحو الكونيّة

في ضوء هذه الحُجج، كيف ينبغي لنا المضي قدماً؟ الجواب، في اعتقادي، يعتمد في النهاية على مَنْ نريد أن نكونَ. أن تكونَ كونياً هو أن تكون منفتحاً على التطوُّر الذاتي الذي يأتي من القوّة التحويلية للأفكار الجديدة من أي مكانٍ آخر. ولكن إذا اخترنا طريق الكونيّة، فيما يتعلّق بجميع الأشخاص على أنهم ذوي قيم جوهريّة متساوية، فإن منطق هذا الموقف يجب أن يقودنا إلى دعم حقوق الإنسان للجميع والالتزام بالكرامة الإنسانيّة الكونيّة. إذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكننا البدء في إحداث التغيير؟ في كتاب «نحو ضيافة متبادلة» (2013)، تناقش لوسي إيريجاري -كاتبة نسويّة فلسفيّة من فرنسا- فكرة أن عالمنا يتحدَّد بشكلٍ مستمر وشامل كملكية لثقافة أو أخرى: لا توجد مساحةٌ محايدة، جسديّاً أو مجازيّاً على حدٍّ سواء، يمكن أن نناقش فيها اختلافاتنا. تجادل لوسي إيريجاري بأن ما نحتاج إليه هو مكان محايد ومفتوح ومضياف، حيث يمكن للمجموعات مناقشة اختلافاتها. من خلال تعزيز التفاهم والاحترام المتبادل، فإن هذا المكان سيجعل الضيافة العالميّة ممكنةً. يجب علينا أن نتجاوز مكاننا وشواغلنا الطبيعيّة، وأن نعالج مخاوف الآخرين دون إجبار الآخر على الامتثال لثقافتنا، ودون محاولة غزو الآخر. يعزِّز هذه الفكرة جان لويس كريتيان، الذي يشدِّد على الحاجة إلى السماح للآخرين بالتحدُّث من أجل تحقيق التفاهم: «الضيافة الأولى ليست سوى الاستماع». بالإضافة، يجب أن نستمع بشكلٍ كامل وموضوعي، ونسمع ما يقوله الآخر دون إجبارهم على الامتثال لتحيزاتنا. في الواقع، توفِّر اللُّغة أداةً لسدِّ الهوة بيننا وبين الآخرين، أو بين أبناء البلد الأصلي والأجانب.

تمنحنا أفكار لوسي إيريجاري و جان لويس كريتيان عن الضيافة طرقاً لفهم الثقافات الأخرى ومعالجة المخاوف الثقافيّة لدى البعض بشأن زيادة الهجرة. ينشأ الكثير من القلق من قلّة الفهم البسيط، أو عدم الرغبة في سماع ما يقوله الآخرون ومعرفة سبب حاجتهم للمساعدة. ومن خلال الانفتاح على الآخرين وسماعهم، تساعدنا هذه الضيافة على سدِّ الفجوة بين الثقافات المختلفة.

إذا كنّا نتمسك برؤية كونيّة مفادها أننا جميعاً لدينا قيمة كبشرٍ بصرف النظر عن خلفيتنا أو مكاننا، فمن الواضح أن الالتزام الأخلاقي يتمثّل في مدِّ الضيافة لمَنْ يحتاجون إليها في جميع أنحاءِ العالم قدر الإمكان. ووفقاً لذلك، فإن المثل العالميّ لحقوق الإنسان ينصُّ على أننا ملتزمون بمساعدة الآخرين بغض النظر عن أصلهم. بالإضافة إلى ذلك، فإن التركيز العالمي على القيمة العالميّة للأشخاص وعلى مزايا مقابلة أناس متنوِّعين يعزِّز بقوةٍ فكرة أن الهجرة لا يمكن إلّا أن تساعد السكّان الأصليين، من حيث المكاسب المالية والتميُّز الثقافيّ والأخلاقيّ. في كثيرٍ من الحالات، يمكن تحقيق ذلك ببساطة عن طريق السماح للهجرة - بدعوة الآخرين إلى بلدٍ ما كضيفٍ دائم، وهو الشكل النهائيّ للضيافة. هناك خطوة أخرى على الطريق تتمثّل في تخفيف الحصص المُخصَّصة للاجئين للسماح لهؤلاءِ القادمين المُحتاجين حقّاً والذين، إذا تمَّ رفضهم، لن يكون لديهم بديلٌ عمليٌّ سوى الهجرة بطريقةٍ غير شرعية، وربَّما الارتماء في مسالك الاتجار بالبشر.

إن ثروةً وفيرةً لمعظم البلدان تمكِّنها من تمتيع العديد من الأفراد باحتياجاتهم الحيويّة أكثر ممّا يُسمح به حالياً. ومع ذلك، لا يمكننا تجاهل المخاوف بشأن الأمن؛ ولا يمكننا أن ندعي أن البئر لا حدود لها. أنا لا أجادل بعدم وجود حدودٍ على الإطلاق، إلغاء الحدود أو القيام بعمليّات الفرز. ما أقوله هو أكثر دقة، وأكثر منطقية، وأقرب إلى «الوسط الذهبيّ» الذي يدعو إليه أرسطو من أجل العمل الأخلاقيّ. يجب ألا نسمح للجميع، لأن ذلك قد يؤدّي إلى كارثة مالية وأمنية في ضوء الاقتصاد العالميّ الحالي والتهديدات الإرهابية الأخيرة؛ لكن لا ينبغي أن نكون صارمين لدرجة أننا لا نسمح لأي شخص بالوصول إلى مواردنا. الحلّ يكمن في العثور على أسلوب مناسب - وأعتقد أننا لم نصل بعد إلى ذلك. أنا أزعم ببساطة أننا قادرون على مساعدة آلاف الأفراد المحتاجين أكثر ممّا تسمح به سياساتنا الحالية.

بشكلٍ جماعيٍّ، يمكن أن تستوعب دول العالم تدفُّقاً هائلاً من اللاجئين بتكلفة قليلة نسبياً وبفوائد كبيرة، معنوية وغير ذلك. وأؤكد أن هذا هو ما يجب علينا فعله في حالة أولئك الفارين من الحروب والمشاكل الاقتصاديّة. ليست لدينا القُدرة فقط: في هذا النظام لحقوقِ الإنسان، علينا الالتزام.

■ مايكل س. داوبر*

□ **ترجمة:** مروى بن مسعود

المصدر:
مجلّة «Philosophy Now» عدد ديسمبر 2019 / يناير 2020.

* يدرس القانون في جامعة سانت جون، وهو عضوٌ في مجلّة سان جون للقانون. حاصل على درجة الماجستير في أخلاقيّات البيولوجيا مِن كلّيّة الصحّة العامّة العالميّة بجامعة نيويورك.



منسوجات وراييني

خيوط الأمل والحياة

يرصد هذا الاستطلاع نموذجاً للصناعة التقليديّة في قرية «وراييني - Waraniéné» بشمال كوت ديفوار؛ فعلى خلاف سائر المناطق التي شهدت تراجع هذا النشاط الفنّيّ الاقتصاديّ جرّاء انتشار مظاهر التنمية الحديثة ظلّت الحياكة في هذه البلدة قائمةً مستمرةً في التعريف بالمنطقة على الصعيدين الوطنيّ والدوليّ، فغدت مصدراً سياحيّاً يسهم في حركة التنمية الاقتصاديّة ومكافحة الفقر.



تقع وراييني شمال البلاد، وتبعد عن مدينة كوروغو بحوالي 5 كلم. ويرجع تأسيسها إلى القرن الثاني عشر الميلادي (1155م) على يد أحمد فوفانا. وكانت القرية تُسمَّى آنذاك بـ«واكاتيني - Wakatiénè» بلغة السينوفو، أي فضاء خالٍ عن عبادة الأوثان. وينتسب المُؤسِّس إلى الشعب المالنكي، الذي استقرّ وسط شعب آخر من شعوب البلاد، هم السينوفو. وهم من أقدم السكّان المُستقرّين في هذه المنطقة، وكان جلّهم يدين بالوثنية، على خلاف المالنكي، الذين هم من أقدم شعوب البلاد اعتناقاً للإسلام. لذا كانت وراييني قرية إسلامية وسط وثنيين قبل أن ينتشر بينهم الإسلام. وتتكوَّن القرية من اثنيتين أساسيتين هما السينوفو والمالنكي، واختصت أولاهما بتعاطي الفلاحة، والثانية بصناعة النسيج والتجارة. ولئن كان المالنكي في مناطق السفانا في كوت ديفوار يشتغلون بالتجارة والنقل فإن سكّان هذه القرية امتازوا بميزةٍ خاصّة هي ما جعلها تجلب كثيراً من السياح. هذه الميزة هي أصالة ما تنتجه وتفنن فيه من النسيج.

ذلك أنّ صناعة النسيج بمختلف أنواعها وفنونها قد حقَّقت في القرية ازدهاراً كبيراً. ولقلّة الإمكانيات كان الإنتاج مقتصراً على توفير المطالب المحلّيّة. ثمّ عرف المجال بدءاً من سبعينيات القرن الماضي حركية وتقدُّماً في الإنتاج بفضل علاقات التعاون المعقودة مع بعض المؤسَّسات الداخلية والخارجية، فغدت القرية تنتج أكثر من حاجات السوق المحلّيّة وتلبي مطالب خارجية، وخاصّة بعد أن تمّ تنظيم العاملين في مجموعات اتّحاديّة وتعاونيّة. وكان لقطاع النسج تأثيرٌ إيجابيٌّ في سكّان منطقة الشمال على الصعيد الاقتصاديّ والاجتماعيّ والثقافيّ، فقد اكتسبوا بفضله القدرة على تمويل مشروعات تنموية أخرى داخل القرية. وقد أضفى ذلك على القرية خصوصية جلبت انتباه الحكومة والمنظَّمات الإنسانيّة الوطنيّة والدوليّة، فبادرت بدعم هذا النّشاط في المنطقة وإبرازه إلى الصعيد الدوليّ والرقي به من طورٍ تقليديّ أوّلي إلى طورٍ أفضل نوعية، ومن نشاط فرديّ إلى نشاطٍ جماعيّ قادر على تلبية مطالب واسعةِ النطاق.

كانت الملابس التقليديّة تستعمل قبل دخول الاستعمار الفرنسيّ لأغراضٍ فرديّة، كالزينة وفي المناسبات الاجتماعيّة المختلفة. وكانت هذه المنتجات الصّناعيّة بارزة، وكانت تُصنع بطرقٍ فرديّة غير منظّمة.

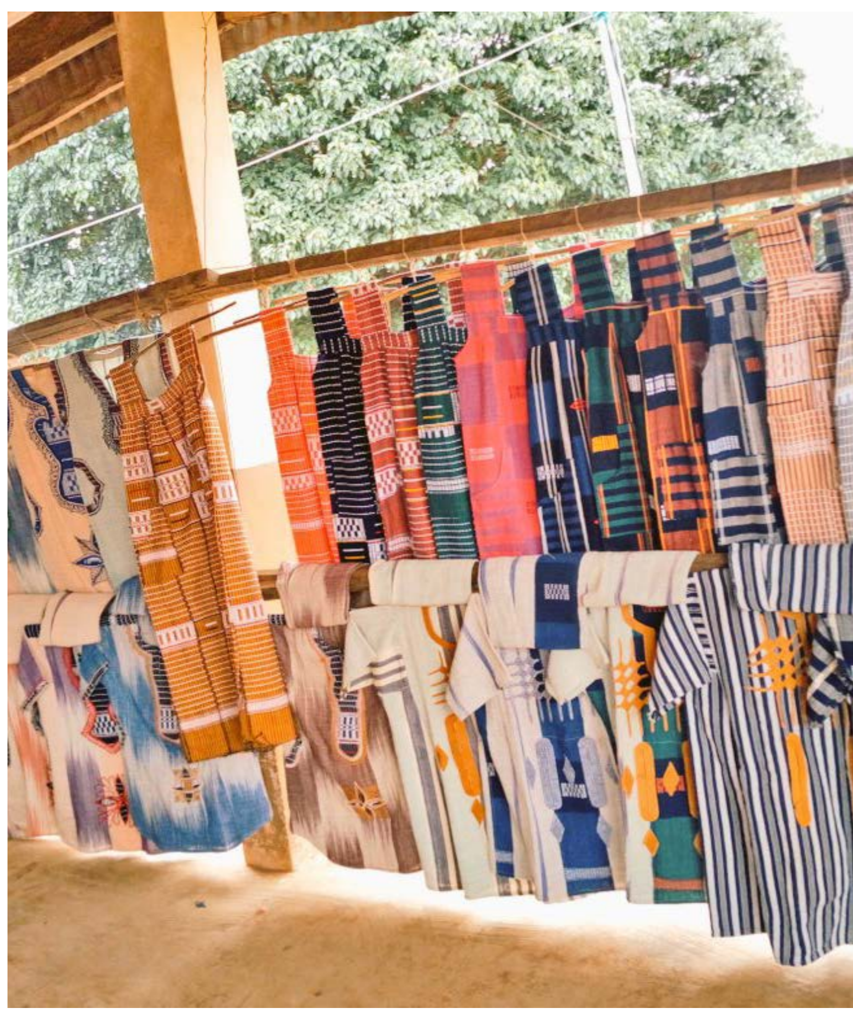
وتضمّ القرية في الوقت الرّاهن نحو 854 حرفيّاً في مختلف قطاعات النسج التقليديّ كالغزل والنفش والتطريز والخياطة. ويتفرَّغ كلّ فرد في الأسرة لأحد هذه الأنشطة حسب ميوله وحاجاته الخاصّة، ويشترك في ذلك الرجال والنساء والصبيان.

بدأ تنظيم قطاع النسيج التقليديّ على يد العاملين أنفسهم، حيث يتمّ تشغيل النساء والرجال حسب كفاءة كلٍّ منهم. وتختص النساء بالنفش والغزل، أمّا الرجال فيشتغلون بالنسج والتدريب وصناعة مختلف الأقمشة والجلابيب والأقمصة والأغطية ومحافظ النقود وما يتّخذ لزخرفة الجدران والطاولات والصالونات. ونجد في هذا المجال أكثر من أربعمئة نسّاج وأكثر من ثلاثمئة متدرّب. ونظراً لأهمّية هذا المشروع رأى العاملون في المجال ضرورة تنظيم هذه الهيئة في منظَّمات وتجمُّعات لإضفاء الشرعية على عملهم وتسهيل عملية البيع والتصدير وتجاوز الطور العفويّ التقليديّ الفرديّ. وكان أوَّل تنظيم في هذا الإطار تعاونية وراييني، وقد تأسَّست سنة 1962م، وكان هدفها الأساسي توحيد الأسعار وتثبيتها. وتبع هذه التعاونية إنشاء اتّحاد الصُنَّاع التقليديين للشمال في سنة 1983م. وكان عبارة عن تجمُّع لكلّ الحرفيين في قطاع الصناعة التقليديّة في منطقة السافانا بشمال كوت ديفوار وهو منظَّمة أكسبت القطاع حركيّة، فقد أسهمت في إيجاد مقرّ ودار للصّناعات التقليديّة في مدينة كورغو، تتألَّف من ورشات للنسج والخياطة، وصالون للعرض، وإدارة تلبّي جميع متطلَّبات الإدارة العصريّة. ويشرف عليها اليوم فالي كوني. وتوجد في وراييني ذاتها منظَّمتان أساسيتان هما الشركة التعاونية للنساجين في ورايينيوالشركة التعاونية للحرفيين، وتعمل المنظَّمتان سوياً في إدارة السوق وتحديد الأسعار، ثمّ تقسيم الأرباح.

بسبب وجود هذه المنظَّمات التعاونية استطاعت هذه الحرفة أن تنفتح على العالم وتكتسب شهرةً عالمية وتقيم علاقات واتفاقيات الشراكة مع بعض الهيئات على الصعيدين الوطنيّ والعالميّ، مثل بلدية مدينة كوروغو، ومجلس منطقة السافانا، ووزارة السياحة، ووزارة الثقافة. أمّا الشراكة على الصعيد العالميّ فمنها ما يربط القرية بشركات تهتمّ بمجال الصناعات التقليديّة في الولايات المتَّحدة الأميركية وفرنسا وألمانيا.







أصالة الكتان

أسهم قطاع الصناعات التقليديّة، وخاصّة منه النّسيج، في النهوض بالحياة الاجتماعيّة في القرية التي تحتضنها. ومن ذلك ترميم بعض المنشآت ذات الصبغة الاجتماعيّة والتربويّة، كالمدارس الابتدائيّة والمصحّات والمركز الثقافيّ للشباب. كلّ هذه الإنجازات كانت بفضل الأرباح المُحقَّقة من بيع المنتجات التقليديّة. وقد كافح هذا القطاع التقليديّ بعض الآفات السيئة في المنطقة، كالهجرة غير الشرعية والبطالة والفقر. ويتجلّى تأثير الجانب الاقتصاديّ في منظر القرية في ما نشهد من مبانٍ من الطراز العصريّ ومنشآت ذات صبغة اجتماعيّة وثقافيّة، فوراييني لا تختلف عن مدينة كوروغو ذاتها من حيث المنشآت الحديثة. بيد أننا نجد عوامل سلبيّة تعيق القطاع، منها وجود كثير من السماسرة، وهو ما يحول دون شفافية الأرقام والأعمال. وعلى الرغم من ذلك يمكن تقدير المبيعات اليومية بما بين 150 و300 قطعة، وعلى هذا الأساس يمكن تقدير المحصول بـ600 مليون سنوياً. وهذه الإنجازات القيِّمة التي تمتاز بها القرية توضِّح دور قطاع النسيج وأهمِّيته الاقتصاديّة. وبفضل هذا النشاط حقَّقت القرية مستوى رفيعاً من التنمية والتقدُّم، وتقتني أجهزةً متطورةً للخياطة والنسج وصناعة الكتان، كما أوجدت مقرّاً لهذا القطاع الحيوي وتقدَّر قيمة كلفتها بـ 70 مليون فرنك سيفا من العملة المحلّيّة أي ما يعادل 106.870 يورو. وتُصدّر المنتجات إلى الأسواق المحلّيّة





والمراكز الخاصّة ببيع المنتجات التقليديّة في أبيدجان العاصمة الاقتصاديّة والمدن الداخلية الكبرى، مثل بواكي ودلوا وغينوا ومان وغيرها، وتُصدّر قسطاً منها نحو أوروبا وأميركا.

وغالباً ما تعبِّر المنتجات التقليديّة المُتنوِّعة، من الملابس وأردية الطاولات والجدران والمحفظات التي تتميَّز بطرازٍ جيّد ومزركش بأنواع الألوان والرسوم المنجز بالكتان والقطن المندوف، عن ثقافة الشّعبين الـ«سينوفو - Sénoufo» والـ«مالنكي - Malinké» المُستقرين في المنطقة وفنونهما وتراثهما وأهمّ الحيوانات الموجودة في المنطقة على وجه الخصوص وفي كامل البلاد على وجه العموم.

منتجات قطاع النسيج في وراييني ليست تقليديّة من حيث المواد فحسب، وإنّما هي تقليديّة من حيث الفنون. وهذا ممّا يزيد الحرفة خصوصيتها الطبيعيّة وأصالتها الإفريقيّة الخالصة. وهذه الخصوصية تجلب إلى القرية زوارها من مختلف بلدان العالم ويجعلها تنال إعجابهم، كما أشارت إلى ذلك مندوبة شركة فايف تكستيل في قولها: إنّ نوعية الكتان في وراييني من العسير أن تجد مثل أصالتها في سائر الأسواق.

أسهم نشاط الحياكة في تنويع سبل الحياة الاقتصاديّة في وراييني الواقعة في منطقة السافانا بشمال كوت ديفوار، وكانت الملابس المصنوعة من القطن تستعمل في مناسبات اجتماعيّة وثقافيّة مثل حفلات العقيقة والزواج وتكريم الشخصيات البارزة وفي المناسبات الحزينة كالجنائز. وفي حدود سنة 1970م عرف القطاع توجُّهات جديدة، فأصبح يهدف إلى تحقيق أهدافٍ سياحيّة واقتصاديّة، ممّا أتاح للقرية أن تصير منارة للسياحة والتنمية الاقتصاديّة، ويتحوَّل تدخل المالنكي في نشاط المنطقة من مجرَّد إنتاج التماثيل التقليديّة ذات الصبغة الوثنية إلى إنتاجٍ ثقافيٍّ عام يسهم في التنمية وتنويع مصادر التمويل.

ومن هنا بدت آثار قطاع النسج واضحة على القرية في جوانب متعدِّدة، وصار من عوامل التضامن الاجتماعيّ والثقافيّ والاقتصاديّ إلى جانب الزراعة والفلاحة.

■ وراييني: كوناتي موسى



كيف سقطت فريسة للتكنولوجيا؟

الموسيقا والآلة

إن ما يتغيَّر هو البانوراما النفسية، والاجتماعية للإنتاج والسمع، والخصائص الأسلوبية للمنتج، وهذا ينطبق على الموسيقا المثقّفة، وكذلك على الموسيقا الاستهلاكية، على الأعمال الفنّيّة، وعلى الحِرَف اليدوية، كذلك بالنسبة إلى الأشياء الصالحة، وكذا بالنسبة إلى الأشياء عديمة الفائدة، والضارّة. إننا لم نقدِّم، هنا، هذه المجموعة من المشاكل إلّا لتوضيح تعقيد الوضع الجديد، وإظهار أنه لا يمكن اختزاله إلى مجرَّد حكم أخلاقي. يمكننا، الآن، البدء في تفكير أكثر تفصيلاً حول المكانة التي يجب أن تعطى لهذه الظواهر، والطريقة التي يمكن بها قبولها، ووسيلة مكافحة الاتِّجاهات الخطيرة. وبما أن هذه الظواهر برزت على الساحة العالمية، فمن المعلوم أنه يتوجَّب أخذها في الحسبان، وعدم تجاهلها.

إن المهنة الأسهل هي، دائماً، مهنة أخلاقيّ الثّقافة. أطلق لقب «أخلاقِيّ الثّقافة» على الشخص الذي، بفضِّل تمتُّعِه بذكاء معيّن، يتعرَّف إلى بروز ظواهر أخلاقية، واجتماعية، وجمالية؛ إلّا أنه، في الواقع، لا يخاطر بتحليل هذه الظواهر، وأسبابها، وآثارها على المدى البعيد، وخصائص «أدائها»، بل يفضِّل أن يكرِّس حدّة ذكائه لفحصها في ضوء ما يسمّى «الإنسانية»، ونفيها وسط العناصر السلبية لمجتمع في قبضة التحشيد والخيال العلمي.

ليس من النادر، اليوم، مصادفة أخلاقيِّي الثّقافة الذين يشْكون من بيع واستهلاك «الموسيقا المصنَّعة آليّاً»، أو ما هو أسوأ من ذلك، من «الموسيقا

المعلَّبـة»: القـرص، الراديـو، الأجهـزة المسجِّلة، أنظمـة الإنتـاج التقنـي للصـوت، الجديـدة، مثـل موجـات مارتينـو (Martenot)، ومولِّدات التردُّد الإلكترونية، والمرشحات، وغيرهـا.

يمكننـا الإجابـة علـى ذلك، بأن إنتاج الموسيقا - باسـتثناء الموسـيقا الصوتيـة، منـذ فجـر التاريـخ- تـمَّ عـن طريـق الآلات؛ إمّـا المزمـار، أو البـوق، أو، أفضـل مـن ذلـك، الكمـان، باسـتثناء أدوات معقَّـدة، وحـده «التقنـي» بإمكانـه التعامـل معها. صحيح أن المؤدّي والأداة يخلقان علاقـة عضويـة، تقريبـاً، لدرجـة أن «عـازف الكمـان يفكّـر» و«يشـعر» مـن خـلال كمانـه، وأن الكمـان يصبـح جـزءاً مـن جسـده، وقطعـة مـن لحمـه. لكـن، لـم يثبـت أن هـذه العلاقـة العضويـة كائنـة، فقـط، في حالة وجـود أداة ذات طابـع يـدوي، بحيـث يكـون التعـرّف إلـى جسـم المـؤدّي أمـراً سـهلاً.

إن البيانـو هـو، فـي الواقـع، آلـة معقَّـدة للغايـة: بين لوحة المفاتيـح التـي هـي علـى اتِّصـال جسـدي مـع المـؤدّي والمصـدر الحقيقـي للصوت، يوجـد نظـام معقَّد جـدّاً من الروافـع، لدرجـة أن المـؤدّي غيـر قـادر علـى ضبـط البيانو الخـاصّ به بنفسـه، ولكـن يجب عليه الاتِّصـال بمتخصِّص (الموالـف) الـذي هـو -وحـده- القـادر علـى إصلاحـه.

مـن ثَـمَّ، يمكننا أن نستنتج أن إمكانية «أنسـنة» أداة ما، لا تكمـن فـي درجـة تعقيـد الجهـاز. بإمـكان المـرء أن يتخيّل موسـيقيّاً يؤلّف سلسـلة مـن الأصوات، وينتجهـا ويخرجها بفضـل أجهـزة إلكترونيـة، ويتصـرَّف أمـام لوحاتـه، مـع ذلـك، مثـل عـازف البيانـو أمـام لوحـة مفاتيحـه، بفضـل معرفـة عميقـة بإمكانـات أداتـه الخاصّة؛ بتعبيـر آخر: إلى الحَـدّ الـذي يعـرف فيـه الفنّـان (سـواءً كان ملحِّنـاً أم كان مؤدِّيـاً) المـادّة التـي يعمـل عليهـا، والأدوات التي يشـتغل بهـا، يمكـن، دائمـاً، تجديـد نتيجـة عمليَّتـه بخيالـه، حتـى إذا كان قـد اسـتخدم وسـائل تقنيـة علميـة، أكثـر أو أقـلّ تعقيـداً. كذلـك الأمـر بالنسـبة إلـى المهنـدس المعمـاري الـذي لا يصـرخ أحـد بخصوصـه، منـدِّداً بالفضيحـة: بالفعـل، فالمهنـدس المعمـاري لا يصمِّم بيديـه، وبكيفية غراميـة، المنـزلَ الـذي يبنيـه، كمـا يفعـل النحّـات بكتلـة الطيـن، لكنـه يوجِّـه البنـاء عـن طريـق «التصاميـم» و«المشـاريع» التـي تبـدو، للوهلـة الأولـى، أنهـا مخطَّطات تقنيـة قاحلـة، بعيـدة كلّ البعد عن أيّ فكـرة فنّيّة. هذا هو حـال المخـرج السـينمائي، أيضـاً؛ فلإخراج الفيلـم الـذي تصـوَّره بشـكل ملمـوس، يجـب أن يمرّ بسلسـلة كاملة من العمليـات الميكانيكيـة، ونظـام كامـل للتنظيـم، ويمكـن -مـن ثَـمَّ- اسـتنتاج (وهـذا ينطبـق، كذلـك، على الموسـيقا «المصنوعـة آليّـاً») أن كلّ شـكل مـن أشـكال الفـنّ يمارَس علـى «المـادة الفيزيائيـة»، باسـتخدام «تقنيـة» معيَّنـة، وأن تعقيـد هـذه التقنيـة لا يؤثِّـر فـي العوامـل «الإنسـانية» التـي تـرأس ممارسـة الفـنّ، لكنهـا تجبرهـا، ببسـاطة، على إظهـار ذاتهـا بشـكل مختلـف. أخيـراً، كمـا توحـي مقاومـة الحجـر، للنحّـات، بالشـكل الـذي سـيتمّ اختراعـه، كذلـك المقاومـات التـي تعرضهـا الوسـائل التقنيـة؛ بـدلاً من قتل خيـال الفنّـان، تثيـره علـى العكـس، وتحفِّـزه فـي اتّجاهات جديـدة.

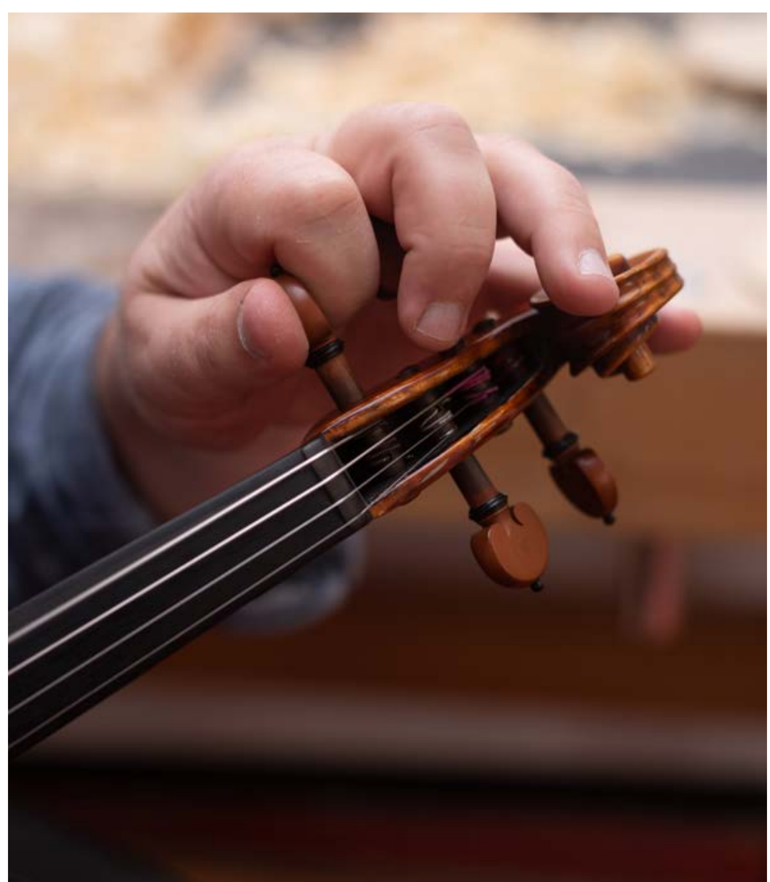
إن ظهـور الموسـيقا «المصنوعـة آليّـاً» لا تطـرح مشـاكل مـن طبيعـة فلسـفية أو جماليـة، بـل مشـاكل مـن طبيعـة اجتماعيـة، ونفسـية، ونقديـة، ويعـود اختـلاف هـذه المشـاكل إلـى نوعيـة الموسـيقا، إن كانـت مستنسـخة أم منتَجـة بواسـطة آلات.

الموسيقا المستنسخة

لقـد غيَّر ظهـور الموسـيقا المستنسـخة ظروف الاسـتهلاك والإنتـاج الموسـيقي، تمامـاً، كمـا غيَّـرت صناعـة الطباعـة ظـروف القـراءة والإنتـاج الأدبـي، وفـي كلتـا الحالتين أنتج التغييـر الكمّـي تغييـراً نوعيّـاً.

كان إمـكان وضـع الموسـيقا فـي «معلّبـة»، موجـوداً، بالفعـل، فـي القـرن الثامـن عشـر، مع الأورغانـات العاملة باللفافـات وآلات البيانـو الميكانيكيـة، لكـن هـذه الظواهـر تبقـى محـدودة فـي بيئـات معيَّنـة، فهـي مجـرَّد أشـياء للفضـول والترفيـه.

تنشـأ المشـكلة السوسـيولوجية مـع اختـراع القـرص والجراموفـون، والإنتـاج الصناعـي لهـذه الأدوات، وعندما انتشـرت الإمكانيـة الاقتصاديّـة للحصـول علـى المنتج؛ أي عندمـا أصبـح اسـتهلاك الموسـيقا المستنسـخة مسـألة جماهيريـة. فـي البدايـة، يقدِّم القرص موسـيقا أقلّ جودة



من تلك التي يمكن للمرء أن يستمع إليها في «الأماكن العامّة»، ولكن، شيئاً فشيئاً، يتحسَّن المنتج تقنيّاً، ومع ظهور القرص طويل الأمد والأجهزة عالية الدقّة الصوتية، يقدِّم القرص ظروف استماع مثالية.

إذا فحصنا الموقف، كما هو عند المستوى الذي تَمَّ بلوغه، الآن، فإننا نجد سلسلة من العواقب التي يصعب اختزالها، ببساطة، إلى فئتين: إيجابية، وسلبية. هذه العواقب لا تتعلَّق بالقرص، فحسب، بل بالبثّ الإذاعي للموسيقا المستنسخة، أيضاً.

1 - إن بثّ القرص يؤدِّي إلى إحباط تدريجي للهواية الموسيقية. وهكذا، تختفي المجموعات الهاوية الصغيرة التي كانت تجتمع للأداءات الثلاثية أو الرباعية (لقد نجا البعض في بلدان الشمال الأوروبي. ولكنهم، حتى في إنجلترا، ملزمون بتنظيم مهرجانات، مثل مهرجان دارتينجتون، خصوصاً، ليلتقي بعضهم بالبعض الآخر). كما يختفي المؤدِّي الهاوي، والفتاة من عائلة جيّدة، التي تعزف على البيانو في المنزل. اختفى تعليم الموسيقا القسري، الذي أنتج أجيالاً من عازفي الكمان الشبّان المحبَطين، ومعه الشخصية النمطية لعازفة البيانو التي لا تطاق (صوَّرها مكمانوس McManus، ببراعة، في شخصية ماجي بيبيل). نحن «نستمع» إلى الموسيقا المستنسخة، لكننا لم نعد نتعلَّم «إنتاجها». مع ذلك، نفهم الموسيقا، تماماً، من خلال إنتاجها، وليس عن طريق الاستماع إليها، فحسب. على العموم، إن اختفاء هاوي الموسيقا هو خسارة ثقافية، إنه يجفِّف مصدراً محتملاً للقوى الموسيقية. تمثِّل حالة الشاب الذي يُعَدّ جزءاً من أوركسترا موسيقا الجاز الصغيرة للطلّاب، شكلاً من أشكال الاسترجاع، غالباً ما يكون ذا قيمة كبيرة، ولكنه محدود الحجم. مع زيادة المستوى العامّ لمحو الأمّية وللثّقافة، يتناقص عدد الأشخاص القادرين على قراءة النوتة الموسيقية. ويبقى التعليم المدرسي الذي يأخذ في الاعتبار الوضع الجديد الناشئ عن نشر القرص، هو وحده القادر على معالجة هذا التفقير.



2 - ولكن، هناك نظير إيجابي، يكبح بثّ القرص الأداءات العمومية ذات المستوى الضعيف. إنه يزيل كلّ مبرِّر وجود عن الفرَق السمفونية الصغيرة، والفرق الأوبرالية المَوجَّهة، عموماً، لجولات المحافظات. كان لها -بلا شكّ- دور مهمّ في «الإخبار»، لكنها كانت تعرض حفلات بمستوى متوسِّط، إلى حَدّ ما. يعود دور الإخبار، الآن، إلى القرص، وهو ما يؤدِّيه بشكل مكثَّف أكثر، وعلى نطاق واسع، مع تقديم طرق عزف ذات جودة، كذلك. يقتصر مجال الاستهلاك، في الوقت الحالي، على الأداءات العموميّة، وعلى استنساخ تلك الأداءات عينها، وبيعها.

3 - مع ذلك، إن بثّ القرص يقتصر على «ريبيرتوار» عالمي من الناحية التجارية؛ إنه يشجّع على بعض الكسل الفكري، وعلى قدر من عدم الثّقة تجاه الموسيقا غير المعتادة. بينما قد يُدمج الحفل العامّ، في برنامجه التقليدي، بعضَ الأعمال «الصعبة» التي يتمّ فرضها على الجمهور، إلّا أن القرص يجب أن يبيع ويبيع (فقط ما يرضي، بالفعل). يمكن لسياسة ثقافية إذاعية جيِّدة أن تعالج هذا الوضع: يمتلك البرنامج الإذاعي خاصِّية الوحدة نفسها، التابعة للحفل الموسيقي العمومي.

4 - علاوة على ذلك، بالنظر إلى انتشاره على نطاق واسع، قادَ القرص (حتى لو استفاد من تنفج معيَّن) مجموعات بشرية ضخمة، كانت تعيش على هامش موسيقا الحفل، لتذوُّق هذا النوع من الموسيقا. سيكون من الحَيْف التقليل من شأن هذا العامل. بعض الأشخاص الذين لم يكن بمستطاعهم أبداً، منذ مدّة مصيرة، الاستماع إلى سيمفونية لـ«بيتهوفن»، أخرجها قائد أوركسترا كبير، يتوفَّرون، اليوم، على القرص الذي يمكن أن يجعلهم يتمنّون الاقتراب من هذه الموسيقا عينها، في قاعة الحفلات الموسيقية.

5 - لكن مشكلة أخرى تنشأ، حينذاك؛ ألّا يلغي وجود مثل هذا الكمّ الكبير من المنتوج الصوتي، سواءأ تعلَّق الأمر بالقرص أم بالراديو، الجهدَ الذي كان ضرورياً في الماضي، «لاستحقاق» الموسيقا (سواءأ أنتجها المرء بنفسه، أم خضع إلى عمل تنظيم بغرض التوجُّه إلى أقرب قاعة للحفلات الموسيقية، مع قبول طقوس كاملة، ومع الاستعداد -نفسيّاً- لاستهلاك واعٍ ومحسوب)، وألّا يسهم ذلك في إفقار الحساسية واختزال الموسيقا، التي كانت، حتى الآن، موضوع «استماع» واعٍ، في خلفية صوتية «يُشعَر

بهـا» وكأنهـا مصاحبـة اعتياديـة للمهـامّ اليوميـة، وللقـراءة، ولوجبـات الطعـام، وللمحادثـة أو للغـزل! لـم تعـد إمكانيّـة تناجـي العاشـقين علـى «خلفيـة صوتيـة» لرباعيـة وتريـة، امتيازاً مخصَّصاً للملوك... إنها في متنـاول أيّ ذوّاق بورجـوازي صغير. ليس بالقـرص وحـده، بـل يجب أن نضيـف إليـه الراديـو (الجهـاز النموذجـي لإنشـاء صـوت فـي الخلفيـة) والبـثّ الهاتفـي (fil-odiffusion). علينـا أن نعتـرف بـأن الأمـر يتعلّـق، هنـا، بمشـكلة جديـدة ومهمّـة فـي تاريخ الـذوق والعـادات. وإذا كان بالإمـكان احتـواء العواقـب المترتِّبـة علـى بـثّ الموسيقا المثقّفـة، فإننا لا نصـادف الأمـر نفسـه عندمـا ينتقل المـرء إلـى الموسيقا الخفيفـة.

6 - فـي مجـال الموسـيقا الخفيفـة (لـن نطـرح، هنـا، مشـكلة قيمـة هـذا النـوع مـن المنتـج)، يوفِّـر القـرص والراديـو و«البـثّ الهاتفـي» و«الجُكبُكـس - Juke box»، للإنسـان، نوعـاً مـن «المتواصـل» الموسـيقي الـذي يرافقـه طـوال يومـه. لحظة الاسـتيقاظ، وفي أثناء وجبات الأكل، والعمـل، والتسـوُّق فـي المتاجـر الكبـرى، وممارسـة الهوايـات، والرحلات بالسـيّارة، والحـبّ، والجولـة فـي الباديـة، واللحظـة التـي تسـبق النـوم، الـكلّ يسـبح فـي هـذا «الحـوض الصوتـي» حيـث الموسـيقا لـم تعـد تُسـتَهلك بصفتها موسيقا، بل بصفتها «ضوضـاء». هـذا الضجيج ضروري للإنسـان المعاصر، إلى درجة أنـه يلزم انتظار بضعة أجيـال لإدراك مـدى تأثيـر هـذه الممارسـة علـى التركيـب العصبـي للبشـر.

7 - إن بـثّ الموسـيقا الخفيفـة يسـهم فـي كونيّـة الـذوق. إن جميـع الشـعوب تسـتهلك وتتلقّـى، بمتعـة، النوع نفسـه من الموسـيقا. إنها نهاية الحضارات الموسيقية المسـتقلّة.

8 - نتيجـة لذلـك، تتوقَّـف وظيفة الموسـيقا الشـــعبية كإنتـــاج أهلـــي للموســـيقا الاسـتهلاكية، ولاسـيّما أننـا نتوفَّـر، حاليّـاً، علـى موسـيقا مستنسـخة ذات جـودة أداء ممتـازة. وهكـذا، بعـد أن اسـتبدل مكبِّـر الصـوت أرغـن الكنيسـة، لـن يضطـرّ كاهـن القريـة إلـى طلـب مقطوعـة «ليلـة هادئـة» («Stille Nacht») جديـدة، أو تأليفهـا بنفسـه. لقـد طـردت آلات الجُكبُكـس ومشـغِّلُ الأسـطوانات المطربين الشعبيين مـن المعـارض، وعازفـي الجيتـار وعازفـي الأكورديـون من أماكن السـهر، ومن حفلات الزفـاف القرويـة، ومـن طقـوس التعميـد الريفيـة.

9 - تخضـع الموسـيقا المستنسـخة لقوانين المنتـج الصناعـي الاقتصاديـة، علـى عكـس الإنتـاج الأهلـي: يجـب اسـتهلاكها بسـرعة، ويجـب أن تشـيخ بسـرعة، حتـى يتـمّ خلـق الحاجـة إلـى منتـج جديـد. يضغـط السـوق علـى الأسـاليب والأقـراص؛ لجعلهـا «تفـوت الموضـة» بسـرعة، مثـل السـيّارات، بالضبـط، أو ملابـس النسـاء. اليـوم، تَـمّ تجـاوز رقصـة «التويسـت -twist » برقصّـة «ماديسـون - madison»، تـمَّ تجـاوز هـذه الأخيـرة بركـوب الأمـواج (surf). إذا كان هـذا الإيقـاع المتسـارع يُخضـع الحساسـية لنـوع مـن الإثـارة العصبيـة، فإنـه -مع ذلك- يفـرض عليهـا نوعـاً مـن الجمبـاز، يمنعهـا مـن الاسـتقرار فـي صيـغ ثابتـة. كان هـذا الثبـات المميَّز، للموسـيقا الشـعبية، عاملاً مـن عوامل العقليـة المحافظة. إن الوظيفة التـي كانـت لهـذه التقاليـد، فـي الحفـاظ علـى أسـلوب معيَّن، وتقنيـة معيَّنة للتنفيذ، علـى مَـرّ القـرون، هـي، اليـوم، وظيفـة المراقـص. مـن ناحيـة أخـرى، لـم يعـد للجماعـات البشـرية جذور موسيقية، ولـن تتمكَّن، فـي القـرون المقبلـة، مـن التعـرُّف إلـى نفسـها، كمـا يحـدث اليـوم، فـي «ريبرتـوارات» تقليديـة قـادرة علـى تلخيـص فتـرة تاريخيـة كاملـة، وروح الجماعـة (ethos).

الإنتاج الميكانيكي لموسيقا الاستهلاك

لقـد أثَّـر إمـكان إعـادة إنتـاج الموسـيقا بالوسـائل التقنيـة، بشـكل خـاصّ، فـي إنتـاج هـذه الموسـيقا. وحفَّـز، بعـد ذلـك، إنتـاج موسـيقا مصمِّمـة تبعـاً لجهـاز إعـادة إنتـاج الصـوت فـي مجال الموسيقا «الاستهلاكية»، ومجـال الموسـيقا «المثقّفـة».

1 - حـدَّدت ظـروف الاسـتهلاك أسـلوب موسـيقا الاسـتهلاك. وصحيـح أن بعـض الموسـيقا الخفيفـة يُسـتهلك كموسـيقا خلفيـة، أنجبـتْ المغنـي (crooner)، والمغنـي ذي الأسـلوب السـرّي، والموسـيقا المهموسـة، و«موسـيقا الجـو»، التـي مثَّلت و(ماتـزال تمثِّـل) فتـرة مـن تاريـخ الأغنيـة. أدّى انتشـار آلات الجكبكـس فـي الأماكـن العامّـة (التـي افترضـت اسـتخدام الصـوت العالـي) إلـى وضـع الموسـيقا التـي كان لابـدّ مـن عزفهـا بصـوت قـويّ: نعلـم أن الأغنيـة «التـي تُصـرخ» تَـمَّ تأكيدهـا فـي دائـرة آلات الجكبكـس، لا فـي أقـراص المذيـاع.

2 - حـدّدت الطبيعـة التقنيـة لوسـائل إعادة الإنتـاج أسـلوب الموسـيقا المستنسـخة، ووُلِد أسـلوب «بيتـي كورتيس» من الإمكانية التقنيـة لتحقيـق تأثيـر صـدى، وأصبحـت التقنيـة الصوتيـة المتقلِّبـة، التـي أطلقتهـا مجموعـة « The Platters»، فـي أغنيـة «Only You»، ممكنـة بفضـل الصـدى المغناطيسـي.

نحن نعلم أن الاسـتماع العمومي، بالنسـبة إلـى معظـم المغنِّيـن الحالييـن، يعطـي نتائـج دون مسـتوى التسـجيلات، وتتَّجـه أغنيـة الاسـتهلاك، أكثر فأكثر، نحو المنتج «المفكَّـر فيـه للتسـجيل» وليـس المفكَّـر فيـه، والمغنَّـى، «ثـم» المسـجَّل بعـد ذلك.

3 - أوحـى نشـر أدوات التسـجيل الجديـدة، للهـواة، بأنمـاط جديـدة مـن الموسـيقا. وتبقـى ظاهـرة مجموعـة الأصدقـاء الذيـن يتجمَّعـون لإنتـاج وتسـجيل تأثيـرات موسيقية غريبـة (تعتمد تجاربهم، في كثير مـن الأحيـان، علـى الضوضـاء الطبيعيـة)، فـي الوقـت الحالـي، لأسـباب اقتصاديّـة، فقـط، مجـرَّد ظاهـرة قليلـة الأهمِّيّـة. فآلات التسـجيل الجيِّـدة غاليـة ونـادرة. لكـن، فـي اليـوم الـذي سـيتمّ فيـه وضعهـا فـي متنـاول الجماهيـر، مثـل القـرص، فـي الوقـت الحالـي، قـد تكـون لهـذه الظواهـر نتائـج غيـر متوقَّعـة. قـد يلجـأ البعـض إلـى المجـال التجريبـي، بينمـا قـد يسـترجع البعـض الآخـر «الريبرتـوارات» الشـعبية المسـتخرجة بفضـل الحضـور الاسـتفزازي الوحيـد لآلـة التسـجيل (تجـدر الإشـارة إلـى أن سـحر المسـجِّل الـذي يسـتخدمه علماء الأعـراق، الذيـن يسـافرون عبـر المناطـق الأكثـر حرمانـاً فـي بلدنـا، يشـجِّع النـاس علـى إحيـاء الأغانـي التقليديـة التـي تَـمَّ نسـيانها لسـنوات).

4 - توحـي وسـيلة التسـجيل التقنيـة إلـى المؤدّي بإمكانات جديدة لاسـتخدام المنتج نفسـه، وغالبـاً مـا تعطـي نتائـج جماليـة

مثيـرة للاهتمـام. لفتـرة طويلـة، سـجَّل موسـيقيّو الجـاز جلسـات ارتجـال (jam sessions) علـى الشـريط؛ للتمكُّـن -فـي مـا بعـد- مـن عـزل اللحظـات التـي وصـل فيهـا الارتجـال إلـى ذروتـه. يسـجِّل بعـض العازفيـن خطوطـاً لحنيـة مختلفـة، مـؤدَّاة بشـكل منفصـل، بأدواتهـم، علـى العديـد مـن الأشـرطة الممغنطـة، ثـم يقومـون بتنضيدهـا، والبحـث عـن تأثيـرات متعـدِّدة الأصـوات، يمكـن أن تتـراوح نتائجهـا مـن المسـتوى التجـاري إلـى مسـتوى إرضـاء جمالـي.

الإنتاج الميكانيكي للموسيقا «المثقّفة»

مـن المعـروف أن الموسـيقا «المثقّفـة»، انطلاقـاً مـن «شـوينبرج»، حاولـت -بطـرق مختلفـة- تجـاوز النغمـة، واكتشـاف آفـاق صوتيـة جديـدة، ليس على مستوى اللحن، فحسـب، بـل من حيث الهرمونيـة والرنّات، أيضـاً. كان اختـراع الرنّـات الجديـدة، علـى وجـه الخصـوص، إحـدى المشـكلات الأساسـية لـ «الموسـيقا الجديـدة». كان المـراد هـو أن يقتـرح علـى الأذن تركيبـات صوتيـة لا ترتبـط ارتباطـاً وثيقـاً، مـن خـلال التقاليـد أو الضـرورة النحويـة، بالنظـام النغمـي. كانـت الآلـة موجـودة لتزويـد الملحِّنيـن بإمكانـات تشـغيلية هائلـة؛ كان بإمكانهـا أن تنتـج أصواتـاً جديـدة، -مـن ثَـمَّ- اقتراح علاقـات جديدة بين الأصوات. نحن نعلـم أنـه، فـي الفنـون، يـؤدّي ظهـور مـادّة جديـدة إلى بلبلـة الأنواع الموجودة، ويؤدي إلى اختراع أشـكال جديدة: أحدثَ اكتشـاف الرسـم الزيتي التغييرات في الأشـكال، التي صـار الجميـع يعرفونهـا، كمـا أن إمكانيـة اسـتخدام المعـادن والخرسـانة المسـلَّحة وَلَّـدت الهندسـة المعماريـة الحديثـة.

كان العالـم الصوتي للموسـيقا الكلاسـيكية مبنيّـاً علـى سلسـلة مـن الاتِّفاقـات التـي اعتـادت عليهـا الأذن لعـدّة قـرون، ولكنهـا لـم تكـن تمثِّـل المسـتوى الطبيعـي الأمثـل (لـم تكـن الموسـيقا الشـرقية والموسـيقا اليونانيـة، وموسـيقا العصـور الوسـطى قائمـة علـى النظـام النغمـي، ومـع ذلـك كانـت موضـع تقديـر كبيـر مـن قِبَـل مسـتمعيها)، وتشـرط الأدوات الكلاسـيكية، مثـل البيانـو، هـذا الطبيعـي الوهمـي (لا يقتصـر الأمـر علـى أن البيانـو ينتـج أصواتـاً اصطلاحيـة نغميـة، ولكنـه -نتيجـة لنظـام نغمـي معـدَّل، ولترتيـب اتِّفاقـي للفواصـل الموسـيقية- أصبـح، الآن، مألوفـاً وممتعـاً لآذاننـا، لكنـه ليـس مطلقـاً علـى كلّ ذلـك)؛ لذلـك رحَّـب الملحِّنـون -بحمـاس- بظهـور الأدوات التقنيـة، التـي وفَّـرت آفاقـاً جديـدة للبحـث، وحرَّكـت حـدود الحساسـية. جلـب ظهـور الآلـة، فـي المجـال الموسـيقي، النتائـج التاليـة، والتـي توصـف -عمومـاً- بأنهـا «تجريبيـة»، علـى الرغـم مـن أن هـذا المصطلـح قـد يوحـي بالالتبـاس:

1 - أتاحـت أنظمـة التسـجيل إنشـاء أصـوات طبيعيـة أو ضجيـج، وتنظيمهـا فـي تسلسـلات تخضـع لمشـاريع شـكلية محـدَّدة. لدينـا، إذن، «موسيقا ملموسة» تحاول تحرير الأذن مـن العـادات اللحنيـة المكتسـبة، وإظهـار ثـراء عالـم الصـوت المحيـط بنـا، الـذي تجعلنـا العـادة نتجاهلـه. يمكـن مناقشـة النتائـج الجماليـة لممارسـات التشـغيل هـذه، ويفضِّـل الكثيـرون اعتبـار الموسـيقا الملموسـة مجـرَّد مـادّة جيِّـدة للموسـيقا التصويريـة أو المرافقـة الموسـيقية. ومـع ذلـك، إن الموسـيقا الملموسـة لهـا وظيفـة تحرُّريـة، ذات ذوق موسـيقي معيَّـن.

2 - أتاحـت الآلات الإلكترونيـة إنتـاج أصـوات جديـدة، ورنّـات غيـر معروفـة حتـى الآن؛ سلسـلة مـن الأصوات تختلف، فـي ما بينها، بفـروق دقيقـة، مـن خـلال «تصنيـع» مباشـر للتـردُّدات التـي تتكـوَّن منهـا الأصـوات، و -مـن ثَـمَّ- العمـل، داخـل الصـوت نفسـه، علـى عناصـره المكِّونـة، كمـا أنهـا جعلـت مـن الممكـن تصفيـة الأصـوات الموجـودة، وتقليصهـا إلـى مكوِّناتها الأساسـية. وهكـذا، وجـد الملحِّـن نفسـه أمـام عالـم صوتـي غيـر مستكشـف، وأمـام مـادّة جديـدة واسـتفزازية.

3 - أدخلـت الموسـيقا الإلكترونيـة، إلـى العالـم الموسـيقي، صـورة جديـدة للملحِّن: رجـل علـى درايـة بالرياضيـات والفيزيـاء، خبيـر فـي الآلات الكهربائيـة الصوتيـة، منفتـح علـى الأبعـاد الجديـدة للثّقافـة. مـن الواضـح أن بعـض هـؤلاء الملحِّنيـن- المهندسـين، لـن يكونـوا، أبـداً، أكثـر مـن «مهندسـين»، كمـا يلمِّـح بذلـك «أخلاقيّـو الثّقافـة». لكـن، من المعـروف أن من ضمن مئـة مهنـدس معماري، تأتي نسـبة الفنّانين أقـلّ مـن النسـبة المئويـة «للمهندسـين» و«المسّـاحين».

4 - طرح إنتاج الموسـيقا الشـريطية، بفضل الاسـتخدام المباشـر للمرشّـحات ومعدِّلات التـردُّد، مشـاكل جديـدة وغيـر مسـبوقة، فـي مـا يتعلَّـق بالحفـاظ علـى المنتـج الموسـيقي. بهـذا الخصـوص، هنـاك جـدل مفتـوح بيـن مؤلِّفي الموسـيقا الإلكترونيـة: يؤكِّـد البعـض أنـه يمكـن للمـرء أن يسـجِّل، بيانيّاً، تسلسـل العمليات المنجزة للوصول إلـى إنتـاج سلسـلة مـن الأصـوات، وتركيبهـا علـى الشـريط؛ ونتيجة لذلك، قـد يتمّ كتابة الموسـيقا الخاصّة بهم، واستنساخها. بينما يؤكِّـد آخـرون أن إنتـاج الصـوت يعتمـد على اللحظـات الفجائيـة، والمعالجـة المباشـرة للشـريط (التـي لا يمكـن التنبُّـؤ بهـا، بدقّة)، معايـرة المرشّـحات والمولِّـدات (التـي لا يمكـن وصفهـا بحـدود رياضيـة دقيقـة). بعد إنتـاج الموسـيقا، لا يمكـن إعـادة إنتاجهـا مـن قِبَـل آخريـن، علـى أسـاس مـا يسـمّى (التوليفة الموسيقية)، و -مـن ثَمَّ- إن تُعهَد الموسـيقا، فقـط، إلـى الشـريط الممغنـط، ويبقى الشـريط نفسـه «محدوداً» لأن بعض ظواهـر إزالـة المغناطيسـية تدمِّـره.

سـتتمتَّع الموسـيقا الإلكترونيـة بوجـود يـدوم حوالـي عشـر سـنوات، وسـتكون سـريعة الـزوال كمـا هـي حـال الارتجـال فـي موسـيقا الجـاز أو الألعـاب المائيّـة؛ فهـي سـتظهر -مـن ثَـمَّ- كمنتـج نموذجـي لحضـارة الاسـتهلاك القائمـة علـى التتابـع السـريع للأشـكال.

5 - علـى المسـتوى الفنّـي، بشـكل أكثـر تحديـداً، تلغـي الموسـيقا الإلكترونيـة الفرق بيـن العـزف وكيفيـة الأداء: المـؤدِّي هـو الشخص الذي يسـجِّل تلحينـه الخاصّ علـى شـريط مغناطيسـي، وهـو نفسـه يتعامـل مـع الأجهـزة الإلكترونيـة، ولكـن بمسـاعدة الفنيِّيـن. فـي حالـة اسـتحالة التدويـن الموسـيقي، سـوف نـرى اختفـاء حتـى صـورة الملحِّـن «الـذي يعـزف، في ما بعـد، أعمالـه الشـخصية»، ومـا إن يختفـي هـذا الاختـلاف، حتـى تختفـي، أيضـاً، بعض المشـكلات الجماليـة التـي كانـت مصـدر مناقشـات عديـدة، مثـل نقـاش الأمانـة فـي كيفيـات الأداء.



6 - حتى الآن، خضع تدوين الموسيقا الإلكترونية لمعايير جدّ شخصية، جعلت النوتات الحالية غير مقروءة، تقريباً. كان على الموسيقيّين، بالفعل، اختراع نظام تدوين مختلف لكلّ تلحين، ما دام كلّ تلحين يعتمد على إنتاج إمكانات صوتية مختلفة، وعلى تنظيمها وفقاً لمعايير تركيب متغيِّرة، كما أن النوتات تكون أكثر إثارةً للاهتمام، باعتبارها وثائق توضِّح سيرة المؤلِّف أكثر من كونها أدوات عمل، وبصرف النظر عن حقيقة أنها يمكن أن تحقِّق جودة جرافيك رائعة، تقدّم مشاكل جديدة في تاريخ التدوين الموسيقي؛ بمعنى أن وظيفة محرِّر الموسيقا، على سبيل المثال، ستختفي، فيصبح منتجاً لشرائط مغناطيسية، بدلاً من كونه طابعاً للنوتات.

7 - تغيِّر الموسيقا الإلكترونية، أيضاً، شروط الاستهلاك، فيموت الوضع النمطي للحفل الموسيقي معها، وفي جميع الأحوال، يموت الأداء «الأمامي». ونظراً لأن العديد من المنجزات تستخدم تأثيرات ستيريوفونية (أشرطة مغناطيسية تُبَثّ من مكبِّرات الصوت موضوعة في أماكن مختلفة من القاعة)، تصبح هندسة قاعة الحفلات الموسيقية نفسها موضع تساؤل. قد يتساءل المرء، والموسيقيون يفعلون ذلك، عمّا إذا كان لا يزال يتعيَّن على المرء أن يفكِّر في قاعة الحفلات الموسيقية أو عمّا إذا كانت هذه الموسيقا يجب ألّا تجد أشكالاً جديدة من الأداء، وفقاً لمفاهيم أخرى للاستماع، ربّما في سياق لنوع جديد من المجتمع، وتبقى، أيضاً، إمكانية الأداء «الخاصّ»، بوضع المستمع الأشرطة على مسجِّله الشخصي؛ بهذا المعنى، خطَّطت الموسيقا الإلكترونية، أيضاً، لإمكانية تدخُّل مباشر للمستهلك، فتمَّ تخيل نظام من الأشرطة التي يمكن للمستهلك تركيبها وفقاً لذوقه، وهو -بذلك- يتعاون في بناء أشكال أخرى من المنجز المقترح عليه.

8 - تقدِّم الممارسة الموسيقية الحاليّة العديد من الأمثلة لاستعمالات مصاحبة لموسيقا إلكترونية وموسيقا الآلات، من أجل مزائج صوتية محدَّدة. في هذه الحالات أيضاً، تُغيِّر مكبِّرات الصوت والأنظمة الستيريوفونية والقماطر الفنّيّة المستخدمة، في أثناء الأداء، طبيعة الأداء التقليدي، وتنظيم فنّاني الأداء بالعلاقة مع الجمهور، وتفرض على فنّاني الأداء نوعاً آخر من الاهتمام والمسؤولية.

9 - من نافلة القول أنه، في الموسيقا المعاصرة، حتى لو لم يتمّ استخدام الأجهزة الإلكترونية أو الموسيقا الفيزيائية المشخّصة المسجَّلة على شريط، قد أوحت تجربة الوسائل الميكانيكية باستخدامات جديدة وغير متوقَّعة للأدوات التقليدية؛ بمنحها إمكانات صوتية جديدة. يعد البيانو، الذي أصبح صندوقه وأرجله آلات موسيقية للإيقاع، أحد الأمثلة التي نصادفها كثيراً في حفلات «الموسيقا الجديدة».

هذه هي الجوانب الرئيسية للمشكلة. يجب أن تجري المناقشات حول استحالة استنساخ المؤلَّفات الموسيقية، مَنْ يتَّهمون هذه الموسيقا بأنها فريسة للآلة، وأنها فقدت كلّ مظهر إنساني. قد يشكّ المرء، بدلاً من ذلك (وقد فعل البعض ذلك)، في كون أتباع الموسيقا الإلكترونية لا زالوا يحافظون على موقف رومانسي، يتوجّب العمل على إزالته. يظهر بعض الملحِّنين، أمام اللوحات المغطّاة بمصابيح التحذير، وأمام مراسم الطيف (les spectrographs) وأزرار التحكُّم، موقف عازف البيانو نفسه، في القرن التاسع عشر، أمام لوحة مفاتيح آلته. في الواقع، يؤدّي ظهور تقنيات جديدة إلى تعديل شروط الابتكار والاختراع، ولكن لا يتمّ تدميرها، بأيّ حال من الأحوال. إن ما يتغيَّر هو البانوراما النفسية، والاجتماعية للإنتاج والسمع، والخصائص الأسلوبية للمنتج؛ وهذا ينطبق على الموسيقا المثقّفة، وكذلك على الموسيقا الاستهلاكية، وعلى الأعمال الفنّيّة، على الحرف اليدوية، وكذلك بالنسبة إلى الأشياء الصالحة، والأشياء عديمة الفائدة، والضارّة. إننا لم نقدِّم، هنا، هذه المجموعة من المشاكل إلّا لتوضيح تعقيد الوضع الجديد، وإظهار أنه لا يمكن اختزاله إلى مجرَّد حكم أخلاقي. يمكننا، الآن، البدء في تفكير أكثر تفصيلاً حول المكانة التي يجب أن تعطى لهذه الظواهر، والطريقة التي يمكن بها قبولها، ووسيلة مكافحة الاتّجاهات الخطيرة. وبما أن هذه الظواهر برزت على الساحة العالمية، فمن المعلوم أنه يتوجَّب أخذها في الحسبان، وعدم تجاهلها.

■ أمبرتو إيكو

□ ترجمة: عبدالرحيم نورالدين

المصدر:
نُشِر باللغة الإيطالية، في «Apocalittici e integrati»، ميلانو، بومبياني، 1964.
المصدر الفرنسي:
La musique et la machine, Communications, n°6, Chansons et disques, 1965, p. 10-19



جوليا كريستيفا:
أن تعيشَ معناه أن تجدَ شكلاً

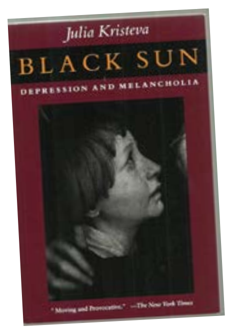
عاصرتْ جوليا كريسِتيفا، على مدى الخمسين سنة الماضية، الأيديولوجيات الكبرى وقد شقّت لنفسها مسارها الخاصّ المفرد والمُتعدِّد. في هذا الحوار تتحدَّث الفيلسوفة ذات الصيت العالميّ، وعلى غير عادتها، عن الأوساط الثقافيّة بفرنسا، وعلاقتها بمُثقّفي مرحلتها، واتهاماتها بالتجسُّس لصالح مخابرات بلدها، وحياتها الخاصّة، وأهمِّية التحليل النفسي في مقاربة قضايا العصر.



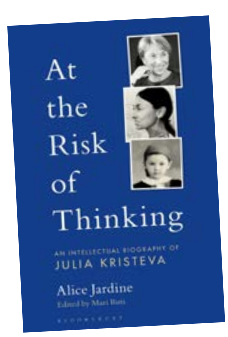
«أن تعيشَ معنـاه أن تجدَ شـكلاً» تفضِّـل جوليـا كريســتيفا أن تستشــهد بهاتِـه العبـارة للشـاعر الرومانسـي فريديريك هولديرلـن. وُلِـدتْ وترعرَعَـت ببلغاريـا وأصبحـت بعـد قدومهـا إلـى فرنسـا مصدر إلهـام التيـار التقدُّمـي فـي الأدب والفلسـفة فـي سـتينيات القـرن الماضـي. تتقـن عِـدَّة لغـات وهـي تتأرجـح بيـن الشـكلانيين الـروس والروايـة الجديـدة أو البنيويـة. احتكـت بـأراغون، رولان بـارت، وجـاك دريدا، وأسهمت في مجلّة «تيـل كيـل - Tel Quel». تزوَّجت من فيليب سولرز، وتعلَّمت أسس التحليل النفسـي مـع لاكان. قامـت برحلـة إلـى الصيـن عـام 1974 رفقـة سـولرز ورولان بـارت فـي لحظـة ظهـور الماويـة كبديـل عـن أرثودوكسـية الشـيوعية التي دافع عنهـا ألتوسـير... وشـيئاً فشـيئاً، سـتتميَّز الفيلسـوفة باختلافها، بالعثور على أشكال من التدخل والتفكير المُتفرِّد... تتعـدَّد، أيضاً، انخراطات جوليا كريسـتيفا؛ فلكونهـا أُمّـاً لابـن معـاق أسَّسـت المجلـس الوطنـيّ للمُعـاق، ونظـراً لانشـغالها بجعـل التحليـل النفسـي علـى اتِّصـال بـ«الأمـراض الجديدة للـروح»، فقد غيَّرت جوليـا كريسـتيفا مـكان الأشـياء/ كمـا يقـول رولان بـارت. ولربَّمـا، أيضـاً، لأنهـا كانـت تبحـث عـن أشـكالٍ جديـدة، لـم تلـزم مكانـاً واحـداً.

ترعرعـت فـي بلغاريـا الشـيوعية بيـن أب أرثوذكسي، وأمٍّ عالمة بيولوجيا. ما هو التأثير الـذي كان لوالديك في معتقداتك المختلفة؟

- لقـد نشـأت، فـي واقـع الأمـر، بيـن أبٍ مؤمـن متحمِّـس، وأمٍّ عالمـة فـي البيولوجيـا متشـبِّعة بأفكار داروين. فكنـت أنـا مَـنْ يدافـع عـن العقـل والمنطـق. انحـزت، مبكِّـراً، إلـى الأنـوار. فقـد فـرض علـيَّ أوديب أن أثـور علـى «الظلاميـة الواديـة». حـدث هـذا فـي مجتمـع يعيـش تحـت نيـر التوليتاريـة الشـيوعيّة. كان يتـم التحضيـر لـ«الإنسـان الجديـد» منـذ الطفولـة، كنت مـن (الـروَّاد) شـأن كلّ المُتمدرسـين، قبـل أن التحـق بالشـباب الشـيوعيّ فـي المُراهقـة. لـم يُـرِد والـدي أن نناهـضَ النظـام. ومـع ذلـك عبَّـر عـن انشـقاقه الداخلـي مـن خـلال قراءاتـه لدوستويفسـكي، ومـن خـلال أناشـيده الدينيّة بالكنيسـة. كان يقـول إن هـدف حياتـه هـو أن يُخـرج بناتـه مـن أمعـاء جهنـم (تعبيـر مُسـتعار مـن الكوميديـا الإلهيـة لدانتـي). لـم تكـن بيـن يديـه غيـر «وسـيلة وحيـدة للنجـاة»، بحسـب قولـه، هـي تعلُّـم اللُّغـات الأجنبيّـة. وفي وقتٍ مبكِّـر تعلَّمـت اللُّغـة الروسـيّة، ولاحقـاً، اللُّغـة الإنجليزيّـة، واختلفـت إلـى مدرسـة الحضانـة الفرنسـيّة، حيـث عشـت اللجـوء فـي اللُّغـة الفرنسـيّة مـن خـلال الأدب.









أذكـر أننـي كنـت أتسـلَّق شـجرة البرقـوق فـي بسـتان جدتـي وأنـا أردِّد أبياتـاً لفكتـور هيجـو.

ذكـرت، أيضـاً، اللحظة التي كان يُدعى فيها المـارَّة، فـي الشـارع، كـي يتلـذَّذوا بالإدانـات المنطوق بها خلال المحاكمات السياسيّة...

- فـي وقـتٍ مبكِّـر، شـعرت بالعنـف المـادي والنفسـي للتوليتاريـة. كان فـي عمـري خمـس سـنوات عندمـا جهـر مكبِّـر الصـوت بأنـه قـد أزفـت سـاعة إعـدام المُعارضيـن، فسـقطت أختـي مـن عربـة الأطفـال فـي الشـارع، وهرعنـا إلـى بيوتنـا. انتشـرت أخبـار عـن العـذاب الـذي لحـق بـ«الرجعييـن»، وعـن مسـابح نتنـة... فـي بدايـة الأمـر، كنـت أرغـب فـي أن أصبـح عالمـة فيزيـاء فلكيـة، كـي أهـرب إلـى الفضـاء الخارجـي. ولكـن ذلـك كان يتطلَّـب أن تكـون ابنـاً مـن أبنـاء الـذوات كـي تسـافر للدراسـة فـي روسـيا. فانكفأتُ فـي الفضـاء المُصغَّـر للغـات. مـا أزال أحتفـظ بدفاتـر كنـت أنقـل فيهـا المعجـم الفلسـفيّ لـ«فولتيـر»، وجـاك القـدري لـ«ديـدرو». كانـت فرنسـا بلـد الأدب، وبلـد الثـورة أيضـاً. كانـوا يقدّمـون فلاسـفة الأنـوار فـي الجامعـة كأسـلافٍ لماركـس وللشـيوعيّة. ولكـن «المنشـقين» كانـوا ينهلـون منهـم جرعـة الحرّيّـة. فـي فتـرة الانفـراج التـي دشـنها تقريـر «خروتشـوف»، أعجبـت بالتيـار المُسـمَّى بـ«التصحيحـيّ» وبالرسـائل الفرنسـيّة لـ«أراغـون»، ثـمَّ بالروايـة الجديـدة التـي بـدأت بإنجـاز أطروحـة حولهـا.

فـي سـن الخامسـة والعشـرين، اغتنمـت فتـرة الانفـراج، واسـتفدت مـن منحـة للقـدوم إلـى

فرنسا. وبها التقيتِ نخبة الطليعة الأدبيّة: رولان بارت، لوسيان غولدمان، فيليب سولرز. كيف اندمجت بسرعة كبيرة في هذا الكون المُصغَّر؟

- لم أندمج حقيقةً. لقد بقيت أجنبيّة كما قال رولان بارت. وأكثر من هذا قُرئت في الخارج أكثر ممّا قُرئت في فرنسا. وتابعت، بنصيحة من بعض الأصدقاء، الحلقات العلميّة لغولدمان وبارت. وهيأ لي بيير ديكس رئيس تحرير «الرسائل الفرنسيّة» الاتِّصال بأراغون..

وفيليب سولرز؟

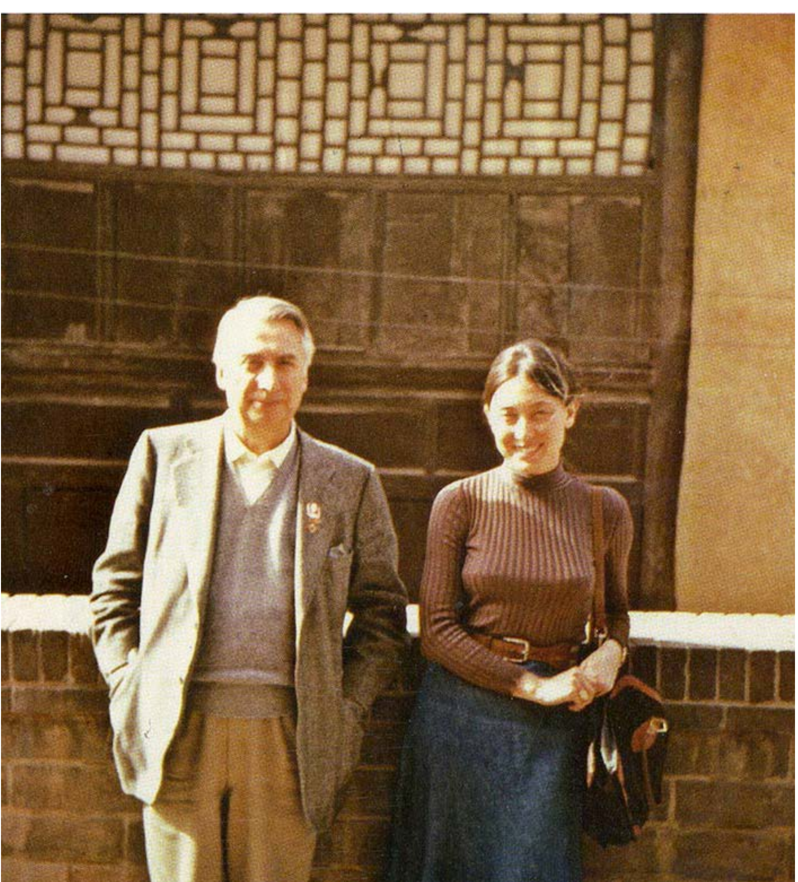
- جسَّد، مع مجلّة «تيل كيل»، الفكر الطلائعي بنشر: آرطو، باطاي، جويس، دريدا وفوكو... وقد ساءل الأشكال الكلاسيكيّة للرواية والأيديولوجيا، سواء أكانت بورجوازية أم تقدُّميّة. لقد أراد تغيير المجتمع بتغيير اللُّغة، وهي أفكار تذكّرني بالمستقبليين الروس. نصحني جيرار جنيت و رولان بارت، اللذان تابعت حلقتهما العلميّة، بالذهاب للقائه. استقبلني سولرز في مكتبه الصغير في مطابع «سوي - Seuil». لم يكنْ يشبه أحداً من الكتاب اليائسين من الغرب المُعاصِر الذين رأيتهم بالجامعة. إنَّ جسد الرواية الجديدة هاته، يذكّرني كثيراً ببدن لاعب كرة قدم. وأظن أنه انبهر بشابةٍ بلغارية عاشقة للثقافة الفرنسيّة ليست على منوال الطلبة الجامعيين لتلك الفترة. تحدَّثنا عن باختين، وعن الكرنفال، وسرعان ما نشأت بيننا عاطفة دافقة وغير متوقَّعة. لم يكن الزواج موضة في الفترة اللاحقة لـ(ماي 68). لقد تزوَّجنا لأنَّ أوراق إقامتي انتهت صلاحيتها، وما لم نتزوج كان عليَّ أن أعود إلى بلغاريا. لم نفترق أبداً.

في سنة 1974، سافرت للصين برفقة بارت وسولرز في اللحظة التي اقتربت فيها مجموعة المُثقَّفين المُلتئمة حول «تيل كيل» من الماوية. هل تتقاسمين مع رفاقك أوهامهم؟

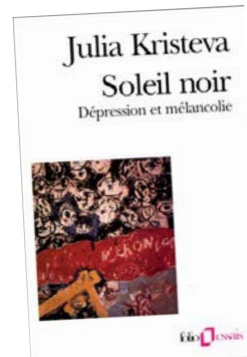
إنِّي لأتعجَّب من سؤالك. كما لو أني لم أدرك أن الماوية كانت حركة توليتارية! كان بعض أصدقائي متحمِّسين، فمنذ 1971 اعتبروا الماوية مثل اشتراكية متيقِّظة للخصوصيات الوطنيّة والثقافيّة. بعد الكولونيالية كيف سنلاقي العالم الثالث؟ راقت التنوُّعات الثقافيّة واللُّغويّة والفكريّة البنيويين والسيميائيين الذين سبروا أغوار التناصية في الأساطير. وها هو «ماو» يثور على الدوغمائية الروسيّة! لقد أطلق الرجال والنساء في الحلبة السياسيّة! كان هذا هو الوقت المناسب لاستطلاع الأمر عن كثب. كنا أوّل وفد من المُثقَّفين تم استدعاؤه بعد دخول الصين إلى هيئة الأمم المتَّحدة. لقد درست في سلك إجازة تخصص لغة صينية بجامعة باريس السابعة، دون أن أحضر يوم الامتحان وقد تودَّد لي فرانسوا شينغ بتعليمي مبادئ الحكمة الطاوية. كنت متشكِّكة، أجل، ولكني كنت مُولعة باكتشاف النساء في الصين. كان أوَّل شيء يتوجَّب فعله هو أن نصغي إليهن، بينما كان الصينيون يتحدَّثون مع السوفيات باللُّغة السوفياتية. وقد تمَّ استعمال النساء لإضفاء المصداقية على فكرة التغيير الجذري، ولكنهن كن يمارسن مسؤوليات واقعية. من جهتي، نشرت كتاب «الصينيات Des Chinoises»، لأجعل التيار النسويّ الغربيّ على اتِّصال بهذا الإرث الثقافي. وشيئاً فشيئاً تخلَّيت عن السياسة لأتفرَّغ للتحليل النفسيّ.

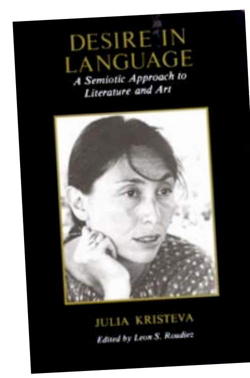
بعد أربعين سنة، جرى اتهامك بأنَّك كنت مُجنَّدة من قِبَل أجهزة الاستعلامات البلغارية كجاسوسة كي تقومي باختراق المشهد الثقافيّ الفرنسيّ لتلك الفترة. وقد قمت بالردِّ على الفور بأنها اتهامات «خاطئة وتبعث على الضحك».

- إنَّها حكاية غريبة. فملف «سابينا -Sabina» (كلمة السر المُفترضة)، هو ملفٌ فارغٌ فبركته المصالح الأمنية السريَّة لتبرير تحركاتهم أمام مسؤوليهم لمراقبة شخص عَبَرَ إلى الجهة الأخرى من الستار الحديدي. فالملف الذي لا يتكلَّم عني إلّا بضمير الغائب، لا يذكر أي مهمَّة قمت بها، ولا يحمل توقيعي. إنَّه ملفُ تتبُّع ومراقبة تمَّ تغليفه على أساس أنه ملفُ تجنيد. تصوَّر أنهم أرسلوا ستة عشر شخصاً ليطرحوا عليَّ السؤال في مناسباتٍ مختلفة: هنا، سيسألون ما إذا كان أراغون شيوعيّاً، وإجابتي بأنه كان سوريالياً. إنها جاسوسة بارعة! وبالنسبة لربيع براغ، كنت أقول إنه لا يتلاءم مع روح الحزب الشيوعيّ البلغاريّ. طرق بابَ بيتي ذات يوم رفيقٌ قديمٌ بالثانوية يحمل قصيدة بلغاريّة، وكنت صريحة معه بالقول: إنَّها قصيدة سيئة. فاستخلصوا أنَّني أصبحتُ «متعجرفة جداً» وأنني «أحتقر الشعر البلغاريّ». وقد خلص التقرير أن «سابينا جاسوسة فاشلة»،









ملفّ سابينا فبركته المصالح الأمنية السريّة لتبرير تحركاتهم أمام مسؤوليهم لمراقبة شخص عَبَرَ إلى الجهة الأخرى من الستار الحديدي. فالملف الذي لا يتكلَّم عني إلّا بضمير الغائب، لا يذكر أي مهمَّة قمت بها، ولا يحمل توقيعي. إنَّه ملفُ تتبُّع ومراقبة تمَّ تغليفه على أساس أنه ملفُ تجنيد

مضيفاً إلى أن يتوجَّب مراقبة زوجها الذي يعقد علاقات مع الصين! وهذا أمر يقارب السخف. وهذا مجرَّد جزء من الملف يتألَّف من 28 رسالة شخصيّة أرسلتها إلى والديَّ وتمَّ حجزها. وبفضل إجراء شفافية أرشيف الأجهزة السريَّة، أصبحت قطرات الدمع أو المتعة هاته متاحة للجميع على الإنترنت. إنها تفاهات، وانتهاكات نفسيّة لا تندمل... أن يجرؤ صحافيون من نوفيل أوبسيرفاتور والنيويورك تايمز، من دون تحقُّق، على إعطاء مصداقية لهاتِه الأساليب الستالينية التي تكشف الكثير عن أخلاقياتهم المهنية، وأكثر عن جهلهم بمفهوم الدولة التوليتارية!

أصيب ابنك «دافيد - David» بمرض عصبي، وأنت تنشطين بقوة لفائدة الأشخاص في وضعية إعاقة. ماذا علمتك هاتِه التجربة؟

- علَّمتني أنَّ الإنسان متفرِّد. هذه الحقيقة التي تبدو تبسيطية تُعاني حتَّى تفرض نفسها. إنَّ مفهوم الإعاقة يقوم على باب مسدود من الميتافيزيقا. يفترض أرسطو شكلاً - نموذجاً كونياً (unarchétype) وفيه تتباعد «وضعيات مختلفة» أو «حالات» بشكلٍ اعتباطي، وبشكل الحرمان من امتلاكه، وبالنَّقص. ومع ذلك، هاتِه النظرة (لديك نقص، فأنت ناقص) أدَّت إلى معجزات من الرحمة والتعاطف ومن العناية صحبة الازدراء والخوف والرفض. ولكن الأشخاص في وضعية إعاقة ينتفضون، اليوم، ضدّ هاتِه النظرة إنهم يدينون فيها الإقصاء الذي تفرضه عليهم. وعلى العكس بدت لي حيوية دافيد، في وضعية الإعاقة، اختباراً وفرصة. اختباراً، لأنه سيف الموت لديموقليس: فمن دون رمَّامة ومن دون مساعدة إنسانية، لا تكون حياة المُعاق صالحة. مهما كانت الاستقلالية الذاتية للمُعاق، فإنه يمكن أن يشرح أبيات بودلير : «(فنائي/ ألمي في القصيدة)، أعطني اليد، تعال من هنا».. الشخص في وضعية إعاقة يدعو إلى مشاهدة وسماع أولئك الذين يتكلَّمون، ويمشون، ويسمعون، ويرون، ويتحرَّكون في المحيط بشكلٍ مختلف، وغريب، ومجنون، ويثيرون الخوف. عوالم جديدة تنفتح، حينئذ، في حياتنا الخاصّة، مؤلمة أو سعيدة، لا عادية ولا معاقة، تفجر المفاجآت، عوالم هي بصدد أن تصبح متعدِّدة الأصوات، والأصداء المختلفة، ومع ذلك متوافقة، عوالم تعود أخيراً إلى تعدُّداتها.

تقولين في كتابك «الشمس السوداء Soleil noir»: إن الاكتئاب والسوداوية هما مزاجان أساسيان مرتبطان بفقدان الشيء.

- علمتنا ميلاني كلين أن الطفل يمرّ بتجربة الحزن ما إنْ يكن قادراً على تمثُّل انفصاله عن الأمّ. بعد الصيحات، والغضب، والبكاء، يرمي بالخَملة أو الإسفنجة اللتين يقوم بمصهما، وجسمه الصغير ووجهه يُصبحان مسرحاً للانفعالات، والتعبيرات الصامتة، والحركات التي تدل على الحزن، والكآبة، والسوداوية. لقد «فقدتها» عزلة فادحة. «ولكن لا، إني أتمثَّلها، خلاي العصبيّة قادرة على أن تحتفظ بآثارها، إنها تقع في أعماقي، أمسك بها، وإنه بإمكاني أن ألقي نظرة يائسة قليلاً، مطمئنة قليلاً، في حضورها الافتراضي. أعرف أنها ليس مجرَّد افتراضية، وإني أجهد نفسي على أن أرسل في إثرها بعض الألحان الصغيرة التي أنا قادر على إرسالها -أصواتي المُتردِّدة- حتى أجعل ممّا أصبح فكري حاضراً». فالخسارة ليست إلّا غياباً يمكن تحمُّله، والخيال السوداوي: يستقل بذاته: ضاحك، لاذع، ثائر. فالكلام هو قتل متخيَّل وسعيد لـلأمِّ الذي تتهدَّده، في خفاء دائماً، فجوة الانفصال هاته. الكلام مشيَّد على بُركان.

هل من شأن التحليل النفسي أن يُكوِّن المواطنين؟

-ليست هناك سياسة للتحليل النفسي. إنه هذا المكان الواقع بين الفُرَج (interstitiel)، حيث تكتشف أن غربتك قابلة للتحويل. إن التحليل النفسيّ، وهو يقحم هذا الاتفاق بين الغيريات الغارقة في المعاناة والأكثر حميمية للرجل وللمرأة، يُشغِّل اللُّغة والهويّات والروابط والأفكار. وهو لما يفعل، يسهم في تأسيس المذهب الإنسانيّ الذي نعاين اليوم إخفاقاته. الميلاد الجديد غير مُعَايَن حتى الآن. بينما اليقظة حاصلة ليست فقط من أجل إنقاذ الكوكب، ولكن للإصغاء إلى الخصوصيات المُتطرِّفة. كما لو أننا في نهاية القرن الثامن عشر عندما أعلن «سكوت Scot» أن الحقيقة ليست لا في الأفكار المُجرَّدة، ولا في المواد المُظلِمة، ولكن في هاتِه المرأة، وفي هذا الرجل.

■ **حوار**: مارتن لوغروس

□ **ترجمة**: طارق غرماوي

المصدر :

PHILOSOPHIE MAGAZINE 135 - DÉC. 2019 - JAN. 2020



خوان غويتسولو ▲

خوان غويتيسولو

حوارات بدون حدود[1]

عافيةُ ثقافةٍ ما، لاتقاس إلّا بانفتاحها على الخارج، وحرصها على امتلاك وتمثُّل عناصر أجنبية تغنيها. يتموضع هذا الحوار الذي لا حدود له على طرف نقيض من كلّ نزعة إقليمية، أو قوميّة، ومن كلّ إطلاقية هوياتية. إن المجتمعات والأفكار والرؤى الخلقية والجمالية تتطوَّر على إيقاع تطوَّر الكائن الإنساني، ولا يغدو ذلك ممكناً إلّا بواسطة التبادل، والتناضح والهجنة؛ فليست لغاتنا الحيّة أحافير ولا قِطعاً مُتْحَفيّة تحميها مؤسَّسات وأكاديميات.

حن نعيش في عالم حدوده قاسية، رُسمت -غالباً- بواسطة الدماء، وهويّاته ثابتةً تعتمد التهميش والإقصاء، حيث يصير الذين لا يقبلون بذلك هدفاً للشكّ والنوايا الفاسدة الشرِّيرة. فما معنى أن يقال: «قشتالي في كاتالونيا، مفرنَس في إسبانيا، إسباني في فرنسا، «هسبانو» في أمريكا الشمالية، نصراني في المغرب، و«مورو» في كلّ مكان»؟، كما وصفت نفسي، منذ عشرين سنة، على صفحات كتابي «الحِمى الممنوع»؟

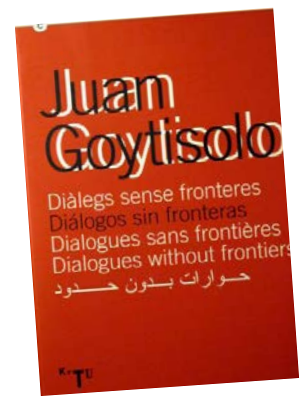
إن الطروحات المتسلِّطة، أحاديّة المعنى، التي تـُرسم حدودها، دوماً، بواسطة المسطرة والفرجار (سواء أكانت طروحات قوميّة أم لسانية أم سوسيولوجية) تقودنا، نحن الذين لا نندرج فيها، إلى أرض مشاع، حيث يصير التعقيد نشازاً، والفضول إزاء الغرابة شذوذاً ينبغي الحيلولة دون انتشاره. عليك أن تكون إسبانياً، أو فرنسياً، أو تشيكياً، أو هولندياً، أو كاتالونيّاً، أو باسكياً، أو منتمياً إلى قومية محدَّدة دون غيرها، وإلّا وجب عليك أن تنصب خيمتك خارج أسوار الحصن الهويّاتي. ليست هذه الهويّات الجماعية، التي «قاومت آلاف السنين»، حسب عبارة «أميريكو كاسترو»، إلّا نتاج قراءات مبتسرة للماضي، داخَلَتها تزييفات مغرضة وأساطير بالغة الغنى، مثل أسطورتي الرسول سانتياغو الأحد عشر ألف عذراء. فإذا كانت الثّقافة المتقدِّمة محصِّلة المؤثِّرات الخارجية التي تلقَّتها وتمثَّلتها على امتداد تاريخها، فإن ما يدعى علامات الهويّة الفردية لا تكون، بدورها، إلّا مهجَّنة، متغايرة، متحوِّلة؛ أيّ ثمرة تناقضات محايثة للشخصية الإنسانية، ولتشاجرها المتعدِّد مع التاريخ والمجتمع.

تعود حساسيَّتي إزاء المدافعين عن هويّة جماعية مفترضة تحدِّد، مسبقاً، مصير الفرد منذ ولادته، ماحيةً بذلك كلّ حريّة في الاختيار والتعبير، إلى ماض موغل في البعد. ففي طفولتي التي تلت الحرب الأهلية، تمَّ تلقيني أصول القوميّة الكاثوليكية، باعتبار «الوطن وحدة مصير كونية». لم يكن بالإمكان، حينئذ، أن تكون إسبانيّاً دون أن تكون كاثوليكيّاً؛ لذا عندما لم أعد كاثوليكياً تحرَّرتُ من السجن الهويّاتي الوطني والقومي، تبعاً لذلك. هكذا، وبجَدع الأنف، توالى انفتاحي على ثقافات ولغات أخرى؛ أي على تنوُّع العالم وعلى تناقضاته الاجتماعية والخلقية والجمالية المستحثّة. تعلَّمتُ النظر إلى ثقافة شبه الجزيرة، على ضوء ثقافات أخرى، والنظر إلى لغتي على ضوء لغات أخرى، وقد كلَّفتني مهمّة الانفلات من غراء القومية الكاثوليكية، وأفقها التاريخي، مشاقّ عانيتُ منها عدّة سنين. لم يكن العرف الأدبي الرسمي، الذي لا زال مداه متواصلاً إلى اليوم، رغم بعض التعديلات والتنقيحات، ليلائم -تماماً- ذلك العرف الذي وضعته لنفسي وحيداً، ودون عجلة، بفضل شراهة فضولي بوصفي قارئاً. هكذا، انضاف إلى تأثير كبار الروائيين والشعراء الأوروبيين، وإلى مُقامي، طيلة عقود، في حَيّ «سانتيي» الباريسي متعدّد الأعراق، وإلى تدريسي في عدّة جامعات في أمريكا الشمالية، اقترابي -وقد ذرّفتُ على الثلاثين- من بلدان المغرب، أوَّلاً، ثم من تركيا عقب ذلك. إن حرصي على عبور الحدود الذي يعتبره الكثيرون شاذّاً ووخيماً يذكِّرني، دوماً، بذلك السؤال «التفتيشي» الذي كان مستجوبيّ يطرحونه عليّ: إلامَ ماذا يعود اهتمامك المفرط بالعالم العربي؟ وقد صيغ السؤال بطريقة تتغيّا استنباط أسباب غير قابلة للبوح - لم يكن يلبّي، فقط،ضرورة تخلُّصي من قهر علامات هويَّتي،

بـل يسـتجيب، أيضـاً، لإرادتـي فـي أن أوفِّـر لنفسـي حيـاة غنيّـة بالتجـارب، وأحيـط -قدر المسـتطاع- بمكتبة بابـل الكونية. هكذا، دلَّنـي سـربانتيس، الـذي لا يـزال موضـع توجُّـس مـن طرف بعض المتخصِّصيـن، علـى الطريـق السـويّ؛ فقـد كان، بـدوره، شـاّذاً فـي عالـم عصـره، حيـث أطلـق علـى نفسـه صفـة (مبتكـر نـادر) مسـتبقاً -بذلـك- الذيـن اسـتهدفوا فرادتـه غريبـة الأطـوار.

أجـد نفسـي، هنـا، مضطـرّاً إلـى الدخـول فـي مجـال شـخصيّ محـض؛ هـو مجـال محيطـي العائلـي اللصيـق.

فـي مجتمـع مـزدوج اللّغــة، عمليّــاً، مثلمـا هـو المجتمـع الكاتالانـي، أمـس واليوم، تَمّ تشـطيب اللّغة الكاتالونيّة بواسـطة مكنسـة، عقـب انتصـار فرانكـو. ففـي منزلـي، وفـي المدرسـة، وبيـن أصدقـاء الطفولـة والمراهقـة، كانـت لغـة (جـول) ملغـاة. كان جـدّايَ، مـن جهـة أمّـي، يتواصـلان باللّغـة الكاتالونيّـة، علـى انفـراد، لكنهمـا كانـا يوجِّهـان حديثهمـا إلـيّ وإلـى إخوتـي باللّغة القشـتالية، وقـد رافـق ذلـك الإخفـاءَ المتعمَّـدَ، الـذي ورثنـاه، للّغـة الحديثـة، إضمـارٌ آخـر أكثـر عمقـاً ودلالـةً؛ يتعلّـق الأمـر بظـروف مصـرع أمّـي، الـذي كان يُنسَـب إلـى «الحُمـر»، بصـورة غامضـة، مـع أن مسـئوليَّته ترجـع إلـى المذبحـة الناتجـة عـن قصـف الطيـران الفرانكوي لبرشـلونة يوم 17 مـارس، 1938. فإبّان منفـاي الفرنسـي، وحينمـا كنـتُ أتفحَّـص -صحبـةَ «فريدريـك روسيف»- الوثائـقَ المصوَّرة التـي كان سيسـتعملُّها فـي تركيب فيلمـه «المـوت فـي مدريـد»، واجهـت -لأوَّل مـرّة- مشـاهد ذلـك الهجـوم الجـوّي العنيـف علـى مركـز المدينـة، مـن خـلال شـريط



أنبـاء مصـوَّرة، أُنجـز لحسـاب الحكومـة المحلِّيّـة (جينراليتـات)، وتأمَّلـت المـدى الحقيقـي لمـا حصـل. فـي ذلـك الوقـت، كنت أكتب في الصحافة اليسـارية الفرنسـية باسـم مسـتعار، وأعمل «رفيق سـفر» لحزب شـيوعي قابـع فـي سـراديب السـرِّيّة.

خلافـاً لفـرع أبـي، سـليل دهاقنـة السـكْر الباسـكيين الكوبيِّين، كانت عائلة أمّي تنتمي إلـى برجوازيـة مثقّفة، متعـدِّدة اللّغات. لقد كتبتُ، في مناسـبات عدّة، عن شـقيق جدَّتي مـن جهـة أمّـي «رامـون بيبيـس باسـتور»، الـذي أثَّـرت ترجمتـه إلـى لـ«رباعيّـات» عمـر الخيّـام، إلى اللغة الكاتالونيّة -ولا شـكّ- في تحرُّري مـن القمـع المذهبـي الدينـي. ويبدو لـي أن تلـك الترجمـة، التـي أُنجِـزت انطلاقـاً مـن الإنجليزيـة، والفرنسـية، كانـت موفَّقـة؛ إذ نقلتهـا -بـدوري- إلـى اللّغـة الإسـبانية ضمـن ردودي على كرّاسـة «أوريانا فلاتشـي» «السُّـعار والنخـوة»، وذلـك حينمـا قابلـتْ، فـي هجومها على التعصُّب الإسلاموي، بين «دانتـي» - (وهـو شـاعر عبقـري، دون ريـب، لكـن رؤيتـه للجحيـم محـدودة الشـفقة، إذا شـئنا التعبيـر، بلباقـة) والشـاعر الفارسـي الكبيـر الـذي نتعـرَّف فيـه إلـى نفوسـنا، نحن -العديـد مـن القـرّاء، اليـوم- بفضـل مادِّيَّتـه البهيجـة، وارتيابـه الدينـي. لقـد كان «رامون بيبيس باسـتور» معادياً للبرجوازية، متمرّداً، نصيراً للكيان الكاتالوني، قضى نحبه بسـبب داء السـلّ، سـنوات، قبـل ميلادي، كما كان مؤلِّـف دواويـن شـعرية، ذَمَّ فيهـا مواطنيـه.

لقـد أعـدتُ قـراءة ذلـك كلّـه، بعمـق، فيمـا بعـد؛ أي فـي الفتـرة الـي كنـت أكتـب فيهـا، وأنـا فـي باريـس، «علامـات هويّـة»، محاولاً، فـي كتابـي هـذا، إدراج مـا ضـاع مـن ميـراث أمّـي، وذلـك بواسـطة قراءة مواظبـة للغتها، وهـي القـراءة التـي مكَّنتنـي مـن الوصـول إلى شـعراء مـن مسـتوى «فويكـس»، و«بـالاو إي فابـري»، و«إسـبريو»، والمسـاهمة في إنجاز الطبعة الفرنسـية لروايات «جوان ساليس»، و«ميرسـي رودوريـدا». بيـد أنـي لـم أكشـف، بعـد، لغـزاً آخـر ظـلّ محفوظـاً، بعنايـة، فـي الصـوان الـذي يحـوي أسـرار عائلتي.

لقـد كانـت «كونسـويلو غـاي»، أخـت أمِّـي الصغـرى التـي لا زلنا نحافظ -بخشـوع- على كمانهـا فـي صومعـة شـارع «بـاو ألكوفيـر»، شـاعرة أيضـاً. لـم أكـن أعـرف عنهـا الشـيء



الكثير، باستثناء ولعها بالموسيقى، وقرانها الشقيّ، وترمُّلها المبكِّر، ووفاتها بسبب سلّ الكلى في مصحّة «بوين سلفادور دي سانت فيليو دي يو بريغات»، سنة 1942. لم نَرَها، أنا وإخوتي، قَطّ، إذ كانت منطوية على سرِّها الذي لا يقال: كآبة، وجنون، واعتلال. وبفضل مؤسَّسة «لويس غويتيسولو»، غداً بإمكاننا، اليوم، الاطِّلاع على أشعارها التي نُشرت رفقةَ مدخل توضيحي كتبه أخي، ومقدِّمة رائعة وضعتها «إلفيرا ويلبيس». لقد كتبتْ «كونسويلو غاي» نصوصها المعدودة أواخر عشرينات القرن الماضي، وهي في ريعان الشباب، حيث وقَّعَتها، أحياناً، باسم مستعار هو «مالابار». تتميَّز تلك النصوص بحداثة مستحثّة، معاصِرة لأوائل مؤلّفات ما يسمّى «جيل السابع والعشرين»، وتتركَّز فرادتها في قدرتها على التعبير بثلاث لغات هي: الكاتالونيّة، والقشتالية، والفرنسية. لم تكن خالتي قد أكملت سنواتها العشرين، بيد أن زادها الثّقافي كان ثلاثيّ اللّغة، بحيث أشبهت، في ذلك، العديد من كتّاب أوروبا الاتِّحادية في الوقت الراهن. لكن الحرب الأهلية والاستبداد الفرانكوي لم يلبثا أن قضيا على عالم حوارٍ بدون حدود، كانت تلك المرأة تجسيداً له قبل الأوان.

أعود، الآن، إلى مجرى خطابي. إن امتلاك ثقافتَيْن ولغتَيْن أفضل من الاكتفاء بواحدة، وإتقان ثلاث لغات أفضل من إتقان اثنتَيْن، وأربع أفضل من ثلاث، وهكذا دواليك إلى غاية ثمانٍ وعشرين لغة، كان المكتشف وعالم الأعراق «ريتشارد بورتن»، الذي لا أنفكّ أُعجب به، يستعملها، فيما يبدو، شفوّياً أو كتابةً. هكذا، تقود الدعوة إلى رضى الاكتفاء الذاتي، والانغلاق داخل صَدَفةٍ واقية (ما عدا حالة الثقافات واللّغات المهدَّدة بالاندثار) إلى جوهرانية عاطفية ووطنية، حيث تُعطى الحظوة، ويُعلى من شأن السياق المحلّي على حساب القيمة الفنيّة الكونية التي يستحقّها كلّ مبدع أصيل، بحسب تعبير «كونديرا» في كتابه «الستار»؛ ذلك أن عافيةَ ثقافة ما لاتقاس إلّا بانفتاحها على الخارج، وحرصها على امتلاك وتمثُّل عناصرأجنبية تُغنيها. يتموضع هذا الحوار، الذي لا حدود له، على طرفَيْ نقيض من كلّ نزعة إقليمية، أو قومية، ومن كلّ إطلاقية هوياتية.





خوان غويتيسولو وجان جنيه يمين الصورة ▲

إن المجتمعات والأفكار والرؤى الخلقية والجمالية تتطوّر على إيقاع تطوُّر الكائن الإنساني، ولا يغدو ذلك ممكناً إلا بواسطة التبادل، والتناضح والهجنة. فليست لغاتنا الحيّة أحافير ولا قِطعاً مُتْحَفية، تحميها مؤسَّسات وأكاديميات. وتبرهن اللسانيات الدياكرونية على تواصل اقتراض لغات من غيرها، وعلى استمرار تحوُّل معاني المفردات، وعلى تناوب فترات الانكماش والتوسُّع والانتشار.

لقد شكَّل سَفَر الكلمات، ومخرها عباب محيط اللّغات المديد، موضوعاً لفضولي وفتنتي، على الدوام. هكذا، إن تعلُّمي الدارجة المغاربية لم يبيِّن لي، فقط، أصول عدد لا حصر

لـه مـن المفردات القشـتالية، والكاتالونيّـة، وإن فـي حـدود أدنى، بل بَيَّـنَ لـي، أيضـاً، أمراً حميمـاً ومحفّزاً: هـو ترجمتنا الحرفيّـة لأصوات، وتعابيـر منـاداة، وجُمـل، وعبارات مأثـورة (بعض هـذه، يمكن العثور عليهـا فـي متـن «الأمثـال الأندلسـية» الـذي وضعـه «ألونسـو ديـل كاسـتيو»، ووجـود تطعيمـات عربيـة فـي التركيـب اللاتينـي الجديـد للّغـة الإسبانية). أضيـف إلـى ذلـك أن التكييـف اللهجـي، غـداً، يؤثّـر، اليـوم، فـي الاتّجـاه المعاكـس: فالعديـد مـن الكلمـات القشـتالية تسـرَّبت إلـى الدارجـة المغربيـة، كمـا أن التنقُّـل، جيئـةً وذهابـاً، بيـن العربيـة والكاتالونيّـة سيفعل فعلـه، غـداً. لقـد سـمعت أكثـر مـن مـرّة، فـي أثنـاء زياراتـي لمدينـة وهـران، كلمـة capsa - وليـس صنـدوق أو caisse أو caja - التـي اعتبرهـا ثمـرة الحضـور الجماعـي القديـم لمهاجريـن فالانسـيين ومايورقييـن مـن جالية الـ pied noir المتلاشـية، وهـي الجاليـة التـي أدخلت، بدورهـا، مفـردات عربية إلى لهجـة patué الأليكانتيـة الحاليـة، عنـد عودتهـا إلـى أرض أسـلافها.
يتشـكَّل الكائـن الإنسـاني مـن هويّـات متباينـة، لكنهـا متسـاوقة فيمـا بينهـا؛ لـذا بإمكانـي أن أكـون برشـلونيّاً، وباريسـيّاً، ومراكشـيّاً فـي الوقـت نفسـه، مـع ادّعـاء الجنسـية السربانتيسـية. وأن أكتـب باللّغـة القشـتالية، مـع إحساسـي بـأن بيتـي كائـن فـي برشـلونة، وليـس فـي مدريـد. أن أتجوَّل في «الرمبلة»، و«الريبيرا»، و«الرافال» بالمباشـرة العاطفيـة نفسـها التـي يوفّرهـا لـي المشـهد الحضـري والاجتماعـي فـي طنجـة، وفـي مدينـة الأطلـس، ورديّـة اللـون، التـي أعيـش فيهـا، أو توفّرهـا ميولاتـي، بوصفـي مشّـاءً فضوليـاً ومنقّبـاً في الدائـرة الثانيـة أو العاشـرة أو الثامنـة عشـرة (مـن دوائـر باريـس). أعيـش أجـواء المدينـة العتيقـة وأجـواء «الرمبلـة»، وأنـا أضيـع فـي الممـرّات المسـقوفة التـي وصفهـا «بودلير» و«والتـر بنجامان»، والتي يشـغلها، اليـوم، أتـراك وهنـود وباكسـتانيون. أصغـي إلى تنـوُّع لغات حيـويّ، وأسـتمتع بفضـاء، لا تتوقّـف حركتـه، وأعـي وشوشـات الزمن وتناقضـات المجتمـع؛ فالكتابـة تعنـي القبـول بوجـود نزاعـات فـي قـرارة الفـرد الكاتـب. علـى المـرء أن يكـون ملتزمـاً سياسـياً، فـي مجـال المواطنـة، وأنـا أحـاول أن أكـون كذلـك؛ بأدافـع عـن مجمـل القضايـا التـي تطابـق العقـل والأخـلاق: كالنضـال ضـدّ الظلـم والفاقة والتفرقـة العنصريـة والعرقيـة، وفـي سـبيل إحقـاق المسـاواة بيـن الجنسـين، والإجهـاض المشـروع، وقانـون زيجـات الأمـر الواقـع. أمّا فـي مضمـار الأدب فـلا يتّسـع الأمـر لأيّ تصحيـح أو إصـلاح؛ ذلـك أن الإبـداع الشـعري والروائـي - شـأنه فـي ذلـك شـأن الاسـتيهامات الجنسـية لـدى الفـرد - لا يوجّـه بـأيّ عصًـا خلقـي أو اجتماعـي، وإلّا غـدا مجـرَّد إرشـادات وعلاجـات مذهبيـة. فـإذا كان البحـث أو المقالة الصحافيـة يتطلّبـان معاييـر خلقيـة سياسـية، ووضوحـاً فـي الأفـكار، فـإن الروايـة لا تسـتلزم ذلـك، البتـة؛ لكونهـا نتاجـاً عقليّـاً، ولا عقليّـاً، لإنسـان متكامـل مؤلّـف مـن ذكاء وغرائـز، والـذي هـو حصيلـة هويّات متعـدّدة ونزاعـات لا حَـلّ لهـا.
علـى امتـداد نصـف قـرن مـن الكتابـة، علـى وجـه التقريـب، كنـت موضـوع تحليـلات إيديولوجيـة ومقاربـات مبتسـرة تعتمـد معاييـر مفارقـة لـلأدب: مثـل غيـاب أبطـال إيجابيين (فـي أعمالـي)، وإعطائي أدواراً ثانويـة للشـخصيات النسـائية (وإن لـم يكـن هـذا صحيحـاً فـي حالتَيْ «الأربعينية» و«إسدال الستار»)، وابتعادي عن العرف المثلي، والتركُّـز القضيبـي، وولعـي بـ«المورو» إلى غير ذلك من الشـتائم. لقد كانـت الطروحـات المتسـلّطة، التـي أشـرت إليهـا فيمـا قبـل، تعمـد إلـى القيـام بعمليـة جراحيـة فـي المنظومـة الفنّيّـة للإبـداع الروائـي المعقّـد، حيـث تسـتخرج، بواسـطة مبضـع، نُـتفاً منـه، لا يسـتقيم معناهـا إلّا ضمـن علاقتـه بالمتـن الـذي مزَّقـه ناقـد الادّعـاء العـامّ أو الطبيـب الشـرعي، دون رحمـة أو شـفقة، علـى سـرير العمليـات، فـي مسـتودع الأمـوات أو فـوق كرسـي الأسـتاذية. فهـل بإمـكان القـارئ أو السـامع أن يتخيَّـل مـا الـذي سـيبقى مـن قـراءة سـريرية أو مسـتبدّة لنصـوص مثـل نصـوص لوتريامـون، وجويـس، وسـيلين، وجينيـه؟
أكـرِّر: إن التعقيـد هو العـدوّ اللدود لكافّة الجهود الوثوقية الفاشـلة، والحقائـق المزعومة التي تحاكي عنف اللكمات، والهويّات الإقصائية التـي لا تحتمـل أيّ اختـلاط أو امتـزاج. هنـاك، فـي العالـم، حـدود لا حصـر لهـا، بحيـث لا يُقَبـل وجـود المـرء حتـى داخـل ذاتـه!.
كان «غـاودي» يقـول: علينـا، دومـاً، أن نجمـع ونضيـف، ملمِّحـاً -بذلك- إلـى تعـدُّد مصـادر إبداعـه الرائـع. فـكل مشـروع فنّي يفتـرض إدماجاً ديناميكيّـاً لعناصـر شـتّى، وكلّمـا كانـت هـذه العملية واسـعة النطاق كانـت أكثـر ثـراءً وغنًـى. ويقـدِّم «رامـون جـول» -شـأنه في ذلك شـأن «ألفونسـو العاشـر»- المثـل الأسـمى علـى تلـك القيمـة المسـكونية فـي أدبنـا. مـع ذلـك، مـا زال حَمَلـة أعـلام النزعـة القوميـة الجوهرانية يصـرّون، خلافـاً لـكلّ بداهـة، علـى إنـكار أن يكـون مـدى الثّقافـة أبعد مـن حـدود اللّغـة الخاصّـة. والحـال أن المجتمـع الحضـري، اليـوم (علـى نحـو مـا رسـمْتُه، منـذ ربـع قـرن، فـي روايتـي «مشـاهد بعـد المعركـة»)، يبـدو متعـدِّد اللّغـات، منفتحـاً علـى صيـرورات توالُـد، وهجنـة متعـدِّدة الألـوان، لا حصـر لهـا. فـي مسـتقبل قريـب جـدّاً، سـتبلغ نسـبة المهاجريـن مـن خـارج دول الاتّحـاد الأوروبي إلى شـبه الجزيـرة، 15% مـن إجمالـي سـاكنتها، وعلينـا أن نتأهَّـب لمواجهـة التعايـش معهـم، بنجـاح؛ ذلـك أن المحافظـة علـى مـا هـو خـاصّ لا تتعـارض، بتاتـاً، مـع القبـول بالدخيـل الغريـب فـي حـدود مـا هـو مقبـول ومتلائـم مـع قيـم المجتمـع الديموقراطـي، وقوانينـه. سيكون لدينـا مهاجـرون من جنوب الصحراء، ومغاربيون سيشـعرون بكونهم كاتالانيّيـن، وسيشـعر غيرهـم بأنهـم إسـبان، وحبَّـذا لـو شـعروا، جميعـاً، فـي الوقـت نفسـه، بأنهـم كاتالانيّيـن وإسـبان. علينـا ألّا نجعـل للحقـول أبوابـاً: لقـد كان «كافـكا» يهوديّـاً، وألمانيّـاً، وتشـيكيّاً، كمـا كتبـت الروائيـة البرشـلونية «نوريـا أمـات»، وسـيكون مـن السـفه تجزئتـه ونَفْـي انتمائـه إلـى المجتمـع الـذي وُلِـد فيـه، اعتمـاداً علـى ذلـك. فـكلّ إبـداع أدبـي فـي مسـتوى عظمـة إبداعـه كفيـلٌ بـأن يبلـغ الكونيـة، دون إنـكار أصولـه. أعيـد وأكـرِّر، بإلحـاح: علينـا، أبـداً، أن نضيـف ونضيـف، لا أن نطـرح ونحـذف.

■ ترجمة : إبراهيم الخطيب

1 - عنـوان محاضـرة، ألقاهـا الكاتـب الإسـباني «خوان غويتيسـولو» في خزانة الكتـب (كاتالونيا) يـوم 28 نوفمبـر، 2006. وقـد صـدرت حديثـاً مترجمـة إلى أربـع لغات هـي: العربيـة، والكاتالونيّة، والإنجليزيـة، والفرنسـية، ضمـن كتـاب بعنـوان «حـوارات بـدون حـدود»، عن (KrTU).



▲ Paul Klee, 1919

مأزق فنّي ومأزق فكريّ

كلماتٌ في الرواية التاريخيّة

مرَّت عشرون سنة على أوّل روايةٍ تاريخيّةٍ قمتُ بترجمتها من الفرنسيّة إلى العربيّة، وهي رواية «ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان»، لجيلبرتٍ سينويه. كان ذلك سنة 1999. ولمّا كان الشيءُ بالشيءِ يُذكَر فقد أعدتُ قراءة هذه الرواية لأوّل مرّةٍ منذُ صدُورِها ورأيتُ أن أكاشف قرّائي بما أثارته فيّ هذه القراءة من أسئلة:


آدم فتحي

السؤال الأوّل يخصّ التجنيس أو التصنيف. هل يجوز لنا اليوم أن نتحدَّث عن «روايةٍ تاريخيّة» في ضوء تطوُّر المُدوَّنة الروائيّة العالميّة؟

«نعيشها لنرويها» قال ماركيز مُوجِزاً القول في وصف الحياة. وأزعم أنّنا «نرويها لنعيشها»، لأنّنا لا ندرك حياتنا، ولا ندركُ أنّنا نعيشها إلّا عن طريق الإبداع. ولمّا كان السردُ اشتغالاً على الحركة في المكان والزمان فقد رجّحَ الكثيرون أنّ الروايةَ تاريخيّةٌ أصْلاً حتى إنْ لم تُنسَب إلى «الرواية التاريخيّة». ولو نظرنا في الأعمالِ التي تشتغل على السيرة «الذاتيّة أو الغيريّة»، وتلكَ التي تنتمي إلى ما يُسمَّى اليوم «أدب التخييل الذاتيّ»، والأخرى التي تنسَبُ إلى «الرمزيّة» أو «الواقعيّة» أو «التجريب» مروراً بما يُسمَّى «رواية الهامش» أو «أدب القاع» أو «الرواية السياسيّة» أو «أدب السجون» وصولاً إلى الرواية المبنيّة على عُقدة بوليسيّة أو المعنيّة بمحاورة التراث، لرأينا أنّها لا تخلو كلّها من معالجةٍ للتاريخ في بعدٍ من أبعاده. بما في ذلك روايةُ «الخيالِ العلميّ» أو «الرواية الاستشرافيّة» اللتان قد لا يهمّهما التأريخُ للماضي أو الحاضر بقدْرِ ما يهمّهما التأريخُ للمستقبل. بناءً على ذلك قال البعض ببطلان التصنيف، ودعا البعضُ إلى تجاوُزه. دعوة لا شيء يدعمها في نظري، خاصّةً حين نقفُ على الدورِ الأساسيّ الذي يلعبه هذا التصنيف في بناء «العقْد» الرابط بين الكاتِب وقارئه، وفي التمييز بين الرواية التي يكون هدفها التأريخ لشخصيّة أو حقبة أو أُمّة، والأخرى التي لا يمثِّل التأريخ بالنسبة إليها سوى تعلّة للكتابة الأدبيّة.

السؤال الثاني يخصّ مكانة «الرواية التاريخيّة» كصنف مختلف عن بقيّة الأصناف في المدوَّنة العربيّة تحديداً. لماذا سجّلت هذه الرواية حُضوراً محتشماً وثانويّاً بالمقارنة مع غيرها؟

لقد ظهرت رواية «زينوبيا» لسليم البستانيّ سنة 1871. وكان من المنتظر أن يتطوَّر هذا الصنف من الروايات كمّاً وكيفاً بما يوازي تطوُّر الرواية العربيّة بشكلٍ عامّ. إلّا أنّ ذلك لم يحدث. والنتيجة أنّ الجانب الأكبر من تاريخنا (شخصيّاتٍ وأحداثاً ومُنجَزاً حضاريّاً) ظلَّ خارج نطاق التغطية الروائيّة العربيّة حتى اليوم؟ وهذا يعني أنّه خارج وعينا بقدْرٍ مَا. هل اكتسب التاريخ في لا وعي بعضِنَا ملامحَ «النصّ الأعلى» المُقدَّس؟ هل ترفَّعَ بعضُنَا عن التأليف في هذا الصنف الروائيّ من منطلق التشكيك في نسبته إلى «الأدب الرفيع»؟ قد تصحّ الفرضيّتان. وقد يعود الأمر إلى ما أسمّيه «فَقْرَ التسمية». لا يحتاج مؤلّف الرواية في المُطلق إلى غير موهبته ومخيّلته وتمكُّنِهِ من لغته وأسلوبه وفنّه. وإذا كان لابدّ له من بحثٍ وجمعِ مادّةٍ فإنّه يجد ضالّته اليوم فيما توفِّره المكتبات الورقيّة والشبكة العنكبوتيّة. أمّا مؤلّف الرواية التاريخيّة فهو يحتاج بالضرورة إلى معلومات تغطّي تلك المراحل التاريخيّة بوقائعها ورموزها ومكوِّنات حياتها الثقافيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، وخصائص فلاحتها وصناعتها، وأسماء قراها ومدنها، وتفاصيل عمارتها، وهندام سكّانها، وآداب الطعام لديهم، وأسماء شجرهم وحيوانهم وطيرهم، وأدواتهم المنزليّة، إلى آخر التفاصيل. لكنّنا نقرأ رواياتٍ عربيّة كثيرة فنشعر بأنّ مؤلّفيها مُصابُون بمرضٍ أُسَمّيه «فقْر التسمية» على غِرار «فقر الدم». هذه «الأنيميا

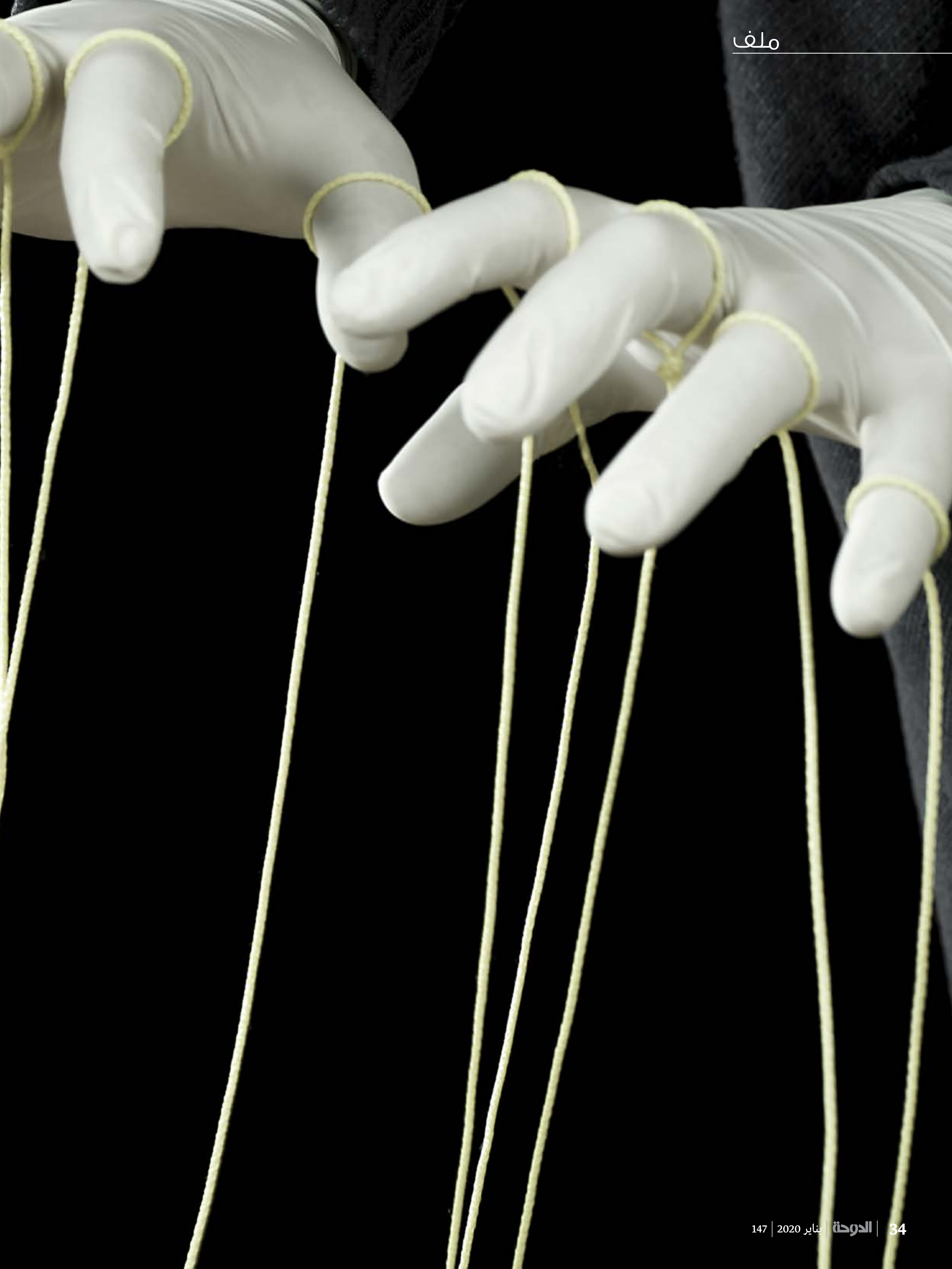
التسمويّة» مرضٌ قاتل يُفقِدُ الرواية في المطلق كُلَّ قدرة على الإيهام، فما بالك حين يتعلَّق الأمر بالرواية التاريخيّة. ولا يمكن تلافي هذه «الأنيميا اللغويّة» إلّا عن طريق عملٍ جماعيّ يُفتَرَضُ أن ينهض به المؤرِّخون وعلماء الاجتماع وعلماء الإناسة وعلماء اللّغة وغيرهم كلٌّ في اختصاصه. وإذا كانت لدينا محاولات في هذا الصدد فإنّها أَقلّ ممّا يجب بكثير. ولَعَلّ أهمّ هذه المحاولات ما نعثر عليه في اللغات العالميّة الأخرى. ممّا يسَّر على الروائيّين الغربيّين خوضَ مغامرة الرواية التاريخيّة حتّى فيما يخصّ تاريخنا، فإذا نحن نتلقَّف رواياتهم وهي تكتبنا من وجهة نظرهم، فنترجمها، مطمئنّين إلى حِرَفيّتها وأحياناً إلى قيمتها الأدبيّة، غافلين أو متغافلين عمّا قد تتضمَّنه من ألغام.

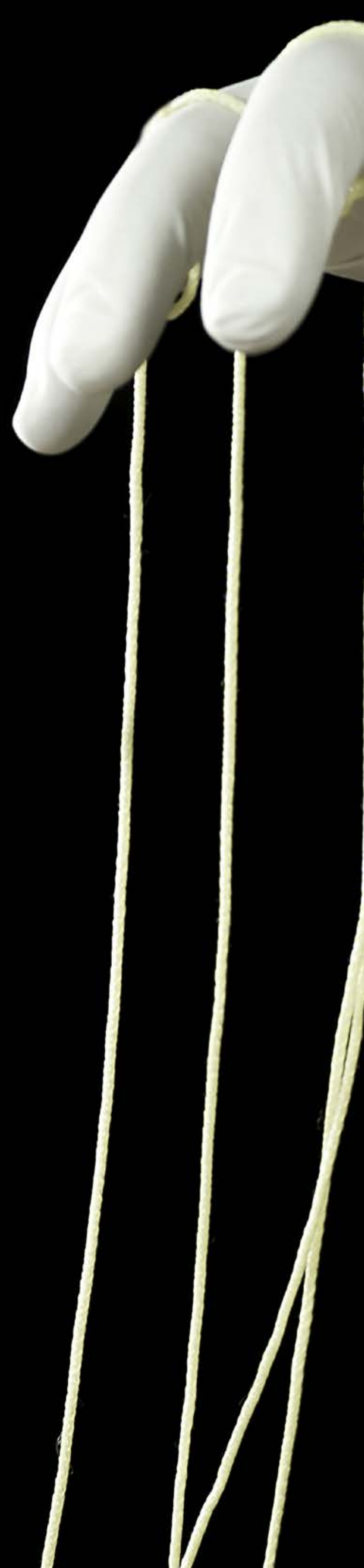
السؤال الثالث يخصّ المأزقين «الأصليّين» اللذين يقفان أمام «الرواية التاريخيّة» في المُطلق، عربيّةً كانت أم غير عربيّة. وهما مأزق فنّي ومأزق فكريّ أو قِيَمي يمكن اختزالهما في السؤال التالي: أين يقف التاريخ؟ وأين يبدأ الأدب؟

أمّا المأزق الفَنِّيّ فيتمثَّل في صعوبة كسْر أُفق انتظار القارئ ومفاجأته. وهذا في نظري من أكبر التحدّيات المرفوعة في وجه مؤلِّف «الرواية التاريخيّة». الأحداث في هذا الصنف من الروايات «مُتّفقٌ عليها» منذ البداية. الشخصيّاتُ «معروفة» إجمالاً وذات ملامح «مرسومة» ومصائر «مُحدَّدة» مسبقاً. وعلى الرغم من ذلك فإنّ على الروائيّ أن ينتقل بنا ممّا هو مُتَوقَّعٌ إلى ما هو مفاجئ. تلك النقلة هي التي تصنع الفارق وتتيح للروائيّ أن يتغلَّب على المُؤرِّخ فيه. ولا تتحقَّق هذه النقلة إلّا حين يجعل الروائيّ من بُنْيَةِ الرواية وأسلوبِهِ ولغتِهِ فيها أبطالاً حقيقيّين، حاضرين بما يكفي للارتقاء من الحكي إلى الكتابة ومن التاريخ إلى الرواية، كي ينجح العمل في إبداع تاريخه الخاصّ.

وأمّا المأزق الفكريّ أو القِيَميّ فيتمثَّل، انطلاقاً من زاوية نظريّ دائماً، في صُعوبةِ تعامُلِ المُؤرِّخ الحاضرِ داخِلَ مُؤلِّفِ الروايةِ التاريخيّة العربيّة، مع تيمة الشرّ. ثمّة استثناءات كثيرة طبعاً لكنّي أتحدَّث عن الظاهرة الغالبة. لقد تعرَّفَ آدم وحوّاء على الثمرة المُحرَّمة، فإذا هُما يكتشفان عُرْيَهُمَا. المعرفة تعرّي إذنْ. وتبعاً لتلك المعرفة عُوقِبَا بالخروج من الفردوس وسقطَا. هكذا دخلا في التاريخ وهكذا شرعت البشريّة في كتابة قصّتها أو روايتها. رواية تؤرِّخ أو تاريخ يروي عُرْيَنَا وسُقوطَنَا باعتبارِهِمَا شرّاً ونتيجةَ شرّ، هو مصدرُ الخير الفَنِّيّ كلّه. لذلك ما انفكّ الإبداع الفَنِّيّ يحاور هذا الشرّ ويواجهه ويحاول تفكيكه وإعادة تركيبه لَعَلّه يجد له معنًى. وهو ما انتبه إليه مبدعونا القُدامى حين قالوا على لسان الأصمعيّ «طريقُ الشعر إذا أدخَلْتَهُ في باب الخير لان..».

المشكلة أنّ الكثيرين فضّلوا «إنكار» المسألة واعتبروا التاريخ ممحاةً سحريّة. وعوضاً عن كتابة العُرْي والسُّقوط للتحرُّر منهما، انهمكوا في تحويل الكتابة إلى «طَاقيّة إخفاء» لسَتْرِ العورات والسقطات، جاعلين من الرواية بشكلٍ عامّ و«الرواية التاريخيّة» تحديداً، عمَلاً بيداغُوجِيّاً، يحاول تعليم الخَلَف تجنُّبَ أخطاء السَّلَف، أو التشاغُل عن هزائم الحاضر بأمجاد الماضي، أو التعبير عن الرغبة في تعويض «السقوط» بـ«الصعود»، وفي مواجهة «الخروج» من فردوس السماء بـ «العروج» إلى فردوس الأرض المنسوب دائماً إلى «ماضٍ ذهبيّ». هكذا وجدنا أنفُسنا في الغالب، مع احترام الاستثناءات، أمام أعمال مثقلةٍ بالإسقاط والتبشير أو النوستالجيا والبروباغندا، تختلف درجةُ انطلائها على القارئ باختلاف «حِرَفيَةِ» مُؤلِّفيها. والحَقّ أنّنا ننظر إلى «علامات» الرواية في العالم، فنرى أنّها ما كانت لتنجح لو لم تمنح الشرَّ حريّتَهُ في التصرُّف ضمن ما تتطلَّبه بنية العمل الروائيّ، بعيداً عن غوايات التبشير بأيّ شيء، بعيداً عمّا تتطلَّبه حسابات الروائيّ السياسيّة أو الأيديولوجيّة أو الأخلاقيّة.





نظريّةُ المُؤامَرة

الكأسُ المسمومة!

«تعرَّضَتْ نظريّة المُؤامَرة إلى نقدٍ شديدٍ في العلومِ السياسيّة. نقدٌ لا يكفُّ عن الظُّهور كلّما حَضرَ طيفُ هذه النظريّة في تفسيرِ أحداثٍ عالميّة مُنذ أنْ احتُكمَ إليها في «تفسير» الثورة الفرنسيّة، أواخر القرن الثامن عشر. لقد وَجدَتْ هذه النظريّة دَوماً ما يُغذِّيها في الحقلِ السياسيّ، بحيث ارتبطَتْ به على نحوٍ خاصّ، لذلك تحوَّلَت إلى موضوعٍ لعُلومِ السياسَة. لربَّما يعودُ اعتمادُ هذه النظريّة في المُمارَسة السياسيّة لا فَقط إلى كونِ السياسة تنبَني على المَصلحةِ وعلى تبرير الوَسائل بالغاياتِ، وعلى هشاشة البُعد الأخلاقيّ فيها، بل يعودُ أساساً إلى كوْن السياسة، وَفق ما تَستجليه عُلومُها وتُفكِّكُهُ، لا تَحتكمُ إلى الفكر في بناء التصوُّرات، ولا تستندُ إلى التفسير العلميّ. كما أنّ مُمارَستها تتطلَّبُ، من بين ما تتطلَّبه، القُدرةَ على ارتجالِ الأسباب والحُلول. فنظريّةُ المُؤامَرة تُعفى مِنَ الفِكر، ومن التحليل، ومن البَحث عن الأسباب المُوَلِّدة للظواهر. لا أثرَ، في نظريّةِ المُؤامَرة، لِمَا أرْساهُ عِلمُ الاجتماع مِنْ مكاسبَ مَعرفيّةٍ ومن آلياتٍ لفَهْم الظواهر والبَحث لها عن تفاسير. لا تكفُّ هذه النظريّة، بانفصالٍ تامٍّ عن هذه المكاسب والآليات، عن مُعاوَدة الظهور وتقديمِ الأحكام الجاهزة، على نحو ما تبدَّى من انتعاشِها حديثاً في سياق الحَراك الذي عرفتْهُ البلدان العربيّة، إذ اتُّخذت نظريّةُ المُؤامَرة أداةً للتصدِّي لهذا الحَراك، وللسّعْي إلى تَجريمه وتَخوينه وإفشاله». ◄◄◄

بين العامّ والخاصّ

أوهام المُؤامَرة

لا تكشِفُ نظريّةُ المُؤامَرة فقط عن تناقُضِ مُنطلقاتِها مع الفَهم السليم والتفسيرِ المُرجَّح للظاهرة، بل تكشِفُ، أبْعَد من ذلك، عن مُفارقةٍ كبيرة تتجلَّى في قُدرةِ الوَهْم على أنْ يَصُوغَ نظريّتَهُ، وفي طاقةِ الحَجْب والتعتيم على ادّعاءِ الكَشْف والتفسير والإضاءَة. فنظريّةُ المُؤامَرة دليلٌ على أنّ بوسْعِ الوَهم أنْ يَصوغَ نظريّتَهُ، وأنْ يُقدِّم نفسَهُ بوَصفه قادراً على تفسير الظواهر. ولا تتجسّدُ أوهامُ هذه النظريّة في التفسير السياسيّ للظواهر وحسب، إنّها تتبدّى أيضاً عندما تجدُ امتدادَها لدى الذوات، أي عندما تَسري هذه الأوهامُ لا في تفسير أحداثٍ سياسيّة، وإنّما في توَسُّل المَرء بها لفَهمِ علاقته بغَيْره...

المُؤامَـرةُ فِعْـلٌ بَشَـريٌّ يتغـذّى بالأحقـاد وعَمائهـا، وبالسـلوك الانتهـازيّ، وبتَعويـدِ الـذات علـى إيـذاءِ الآخَر. لربّمـا يَعـودُ أصْلُهـا، متى تمّ الحَفرُ عن جُذورها البَعيـدة، إلـى الجانب المُظلم فـي النّفس البَشـريّة، إذ هو شَرارَتُها، التي تتّقِدُ نارُها بتقاطُع ذاتَيْن أو أكثر فـي إحداثِ الأذَى واعتماده فـي تصوُّر العلاقات بين النـاس. فالمُؤامَرة تنتظمُ في فِعلٍ جَماعيّ، إذ التآمُرُ، بمـا هـو تشاوُرٌ علـى الأذيّـة، يَقتضي تَنسيقاً بيـن اثنيْن علـى الأقلّ ضدّ الغَير. المُؤامَـرةُ، فـي هذه الحُـدود، هـي تقاطُـعُ إرادتيْـن أو أكثـر فـي فِعْـلٍ خَسيس، يقـومُ علـى تنسـيق مُـؤْذٍ، وعلـى خِبـرَةٍ فـي إنتـاج الأذَى، وعلـى سَـعْي إلـى تدميـر الآخَـر. فالمُؤامَـرةُ تقتـاتُ الإيلامَ والأذيّـةَ والإساءَةَ وتدميرَ الآخَر. هـي ذي صُورةُ المُؤامَـرة قبْـل أنْ تتّخـذ بُعـداً جَماعيّـاً قـد يَسْـري فـي مـا حَكَـمَ العلاقـات القبَليّـة، ثـمّ العلاقـات المُجتمعيّة فيمـا بَعْـد، والسياسـيّة، والعلاقـات الدوليّـة. لقد كانت المُؤامَـرةُ، فـي الأصْل، نُقطةً سَـوداء فـي ذاتٍ لمْ تَعرف كيـفَ تُطفـئُ المُظلـمَ فيهـا وتتحصّـنُ من رَغبـة الإيذاء، ولا كيـف تَصْفـو مِـنَ كدَرِهـا، الـذي يُشـكّلُ الإيـذاءُ أحدَ تجلّياتـه. فالنفسُ أمّـارةٌ بالسّـوء والإسـاءة، أي أمّـارةٌ، بمعنـى مـا، بالتآمُـر بدافـعِ الحقـد، والتمركُـز علـى الـذات، وتبرير كُلّ الوَسـائل لتغذيةِ الأطماع والمَصالح الشخصيّة.

في هـذه الحُـدود، يَبقـى التآمُـرُ سُـلوكاً بَشـريّاً مشيناً شبيهاً بـكلِّ مـا يَبنـي الوَجـهَ الآخَـرَ مـن الـذات؛ وَجْهَهـا المُظلـمَ والمُلهـمَ لعُدوانيّتِهـا، لا وَجْههـا القائـم علـى المحبّـة والبَـذل والإيثـار والتضحيّـة. لكـنّ تحـوُّلَ المُؤامَرة إلى نظريّةٍ اقترنَ، في السياق السياسيّ بوَجْهٍ خـاصّ، باتّخاذها مُوَجِّهاً للفَهم وتفسيرِ الظواهر. وهي النظريّـة التـي تحـدَّدَت بالاحتـكام دَوماً إلـى مُسـبّقاتٍ جاهـزة لتفسير ظاهـرةٍ مـا، ولفَهْـم العلاقـات، ولفَهْـم الـذاتِ نفسـها. مِـنَ التآمُـر، بمـا هـو نُـزوعٌ بَشـريّ غيـرُ مُراقَـب، إلـى المُؤامَـرة، بمـا هـي نظريّـةٌ، انتقـالٌ إلـى خَلـل نظـريّ يَرتبـطُ بادّعـاءِ التفسير دُون امتلاك أسُـس علميّـةٍ لإنجـازه. إنّ مـا بـهِ تُفسِّـرُ هـذه النظريّـةُ مَوضُوعَاتِهـا لا يَقـومُ إطلاقـاً علـى أيِّ أُسُـسٍ عِلميّـة، لأنّهـا لا تَبحـثُ في أسـباب الظاهرة - مَوضوعِ التفسـير، ولا فـي سياقاتها وفـي التفاعُـلات البانيـة لعلاقاتهـا، بـل تنطلـقُ نظريّـةُ المُؤامَـرة مِـنَ أجوبـةٍ قبْليّـة تعدُّهـا أصْـلَ كلِّ واقعـة، وتعمَـلُ لا علـى التفسـير، بـل علـى تبريـر مُؤامَـرَةٍ جاهـزَةٍ قبْـل الظاهـرة المُفسَّـرَة، التـي لا تغـدو، فـي مَنظـور هذه النظريّة، سوى أداةٍ للدِّفاع عن صلاحيّـةِ حُكـمٍ جاهـز، وذريعـةٍ لإضفـاءِ مصداقيّـةٍ على قُـدرةِ هـذا الجاهـز علـى التفسـير. التبريـرُ، الـذي عليـه تقـومُ هـذه النظريّـة، غيرُ التفسـير، لأنّ الأوّلَ تـذرّعٌ بما يَبنـي مصداقيّـةً وَهْميّـة. إنّـهُ إرغـامُ المَوضـوع علـى أنْ يأخُـذ صُـورةَ مُؤامَـرة. فنظريّـة المُؤامَـرة، تبعـاً لذلـك، مَفصولـة عـن مَوضـوع تفسـيرها، إنّهـا تحجُـبُ الظاهـرةَ المُفسَّـرة، وتعمـلُ علـى جَعْلها مُتلوِّنةً بتشـاوُر شـيطانيٍّ جاهـز وثابـت. الثابـتُ فـي نظريّـةِ المُؤامَـرة أنّهـا تتغذّى علـى الأحْـكام الجاهـزة، واللافـتُ أنّ هـذا الثابـتَ فيهـا هـو مـا يَتحكّـمُ فـي ثباتهـا وجُمودهـا.

ثمّـة ميتافيزيقـا مُوَجِّهـة لنظريّـةِ المُؤامَـرة، مفادهـا أنّ كلّ ظاهـرةٍ ليْسَـت سـوى تجـلٍّ مـن تجليـاتِ أذىً

يَبقى التآمُرُ سُلوكاً بَشريّاً مشيناً شبيهاً بكلّ ما يَبني الوَجهَ الآخَرَ من الذات؛ وَجْهَها المُظلمَ والمُلهمَ لعُدوانيّتِها، لا وَجْهها القائم على المحبّة والبَذل والإيثار والتضحيّة



مُطلق، ومن ظِلِّ قوّةٍ مَسؤولة، في الخَفاء، على تصريفِ هذا الأذى. كلُّ ظاهرةٍ، في تصوُّر هذه النظريّة، ليست سوى تجلٍّ لمُؤامَرة كبرى تُعاوِدُ الظهورَ في العلاقات بمُختلف مُستوَياتها، وتَجدُ تحقُّقاتها في كلِّ ما يَحكمُ هذه العلاقات. إنّها ميتافيزيقا تُقرُّ بوُجُودِ تَصميمٍ قبْليٍّ على الأذيّة، وبنَفْيِ الصّدفة عن كلِّ ما يقعَ، لا لإرجاعه إلى أسبابه، بل لاتّخاذه ذريعةً على أذى مُطلق. لرُبّما هذا البُعدُ الميتافيزيقيّ في النظريّة هو ما سمحَ لدارسيها بالحديث فيها عن إيمانٍ لدى مُناصريها؛ إيمان يُرسِّخُ الثقةَ العمياء في قوّةٍ تُخطِّطُ بتصميمٍ مُحكم لإحداث الأذى.

نظريّة المُؤامَرة، في ضَوء ما تقدَّم، هي إذاً أنْ تُفسِّرَ دُون أن تُفكِّر، أو بصيغةٍ أدقّ هي أنْ تدّعيَ التفسيرَ بمُمارَسةِ ما يَمنعُ مِن تحقّقه. كلُّ شَيء، في هذه النظريّة، مُتحصّلٌ مِنْ أذىً مُطلق، ومن تدخُّلِ أيادٍ خَفيّة تُؤمِّنُ للأذيّة سَيرورَتَها في وُقوع الأشياء وحُدوث الظواهر وتفكُّك العلاقات. إنّها نظريّةٌ تَحجُبُ مَوضُوعَها ليتسنّى لها أن تتحدَّث عنه؛ تحجُبُهُ بما يَحجُبُها هي ذاتها، ويَمنعُها مِنَ الرُّؤيةِ خارجَ التآمُر. مِرآةُ نظريّةِ المُؤامَرة عَمياء؛ لا تُظهرُ غيرَ التآمُر. وكي تُظهِرَهُ، لابدّ أنْ تَحجُبَ المَوضوعَ الذي تدّعي إظهارَهُ. ما يُرَى مِنْ منظور المُؤامَرة يأخذُ بالضّرورة لَوْنَها، ويُبعِدُ المَرئيَّ عن صُورته المُرتبطة بأسبابهِ المَلموسة وبمُحدِّداته. ما يُرَى يَبقى مُعْتماً بالظّلّ الذي تُقرُّ به هذه النظريّة. إنّهُ ظلُّ سُلطةٍ اقتصاديّة وسياسيّة ودينيّة لا تكفُّ عن تدبير التآمُر في الخَفاء. لذلك شكّل الظلُّ، والخَفاءُ، والسّرُّ، والتصميمُ القبليُّ المُحكَمُ، أُسُسَ ميتافيزيقا نظريّة المُؤامَرة.

تقومُ نظريّةُ المُؤامَرة، فَضلاً عن ذلك، على تَوَجُّسٍ وارتياب، لكنّهُما مُنفصلان عن أيّ تَوجُّس وارتيابٍ فكريّيْن، لأنّهما لا يَشتغلان مِنْ داخل الفِكر، ولا يَقْتاتانهِ، ولا يشتغلان أيضاً من داخل التفكير في المَوضوع، بل هُما جامدان جُمودَ النظريّةِ نَفسها. الغريبُ أنّ التوجُّسَ المُطلقَ هو أساسُ الإيمان بهذه النظريّة وفيها، كما لو أنّ التوجُّسَ الباني لها يَشتغلُ ضدّ ما يُحدِّدُهُ، كي يغدوَ مَظهراً مِن مظاهر الإيمان. إنّ ما يَمْنعُ الجُمودَ والثبات، أي الارتياب، هو ذاتُه الذي يَغدو، في نظريّةِ المُؤامَرة، حامياً لهُما. فالارتيابُ المُحتكَمُ إليه في هذه النظريّة يَحمي الجُمود. إنّهُ ارتيابٌ لا ارتيابَ فيه. ذلك أنّ الارتيابَ الفكريَّ هادمٌ للجُمود، بينما هو، في هذه النظريّة، قبْليٌّ وثابت، لأنّه مُقيَّدٌ بمَعنىً مُطلقٍ لا يَقبلُ النّسبيّة؛ معنى الأذى الجاهز، بما هو حُكمٌ يتماهَى مع مفهوم الأصل. لذلك لا تَقوى نظريّة المُؤامَرة على أنْ ترتابَ في ذاتها، ولا أنْ تستبعدَ فِعْلَ التآمُر وهي تَعرضُ لمَوضوعٍ ما. إنّها استسهالٌ يقتاتُ أوهاماً ويُغذّيها في الآن ذاته. لا تحليلَ ولا تفكير ولا ارتياب، في حين أنّ نظريّة المُؤامَرة تدّعي هذه الأمورَ جميعَها. وعموماً، فالاتّكاء على هذه النظريّة في ادّعاء التفسير غيرُ مُكلف، لأنّ هذا الاتّكاءَ لا يتطلّبُ سِوَى تَوقيفِ التفكير والاستسلام إلى الجاهز. إنّها نظريّةٌ تقومُ على كسَلٍ فكريٍّ فادح.

تعرّضَت هذه النظريّة من مَوقعِ الجاهز فيها إلى نقدٍ شديدٍ في العلوم السياسيّة. نقدٌ لا يكفُّ عن الظُّهور كلّما حَضرَ طيفُ هذه النظريّة في تفسير أحداثٍ عالميّة مُنذ أنْ احتُكمَ إليها في «تفسير» الثورة الفرنسيّة، أواخر القرن الثامن عشر. لقد وَجدَت هذه النظريّة دَوماً ما يُغذّيها في الحقل السياسيّ،

بحيث ارتبطَت به على نحوٍ خاصّ، لذلك تحوَّلَت إلى موضوعٍ لعُلومِ السياسَة. لربّما يعودُ اعتمادُ هذه النظريّة في المُمارَسةِ السياسيّة لا فقط إلى كونِ السياسة تنبَني على المَصلحة وعلى تبرير الوَسائل بالغايات وعلى هشاشة البُعد الأخلاقيّ فيها، بل يعودُ أساساً إلى كوْن السياسة، وَفق ما تَستجليه عُلومُها وتُفكِّكُهُ، لا تَحتكمُ إلى الفكر في بناء التصوُّرات، ولا تستندُ إلى التفسير العلميّ. كما أنّ مُمارَستها تتطلّبُ، من بين ما تتطلّبه، القُدرةَ على ارتجالِ الأسباب والحُلول. فنظريّةُ المُؤامَرة تُعْفي مِنَ الفِكر، ومن التحليل، ومن البَحث عن الأسباب المُوَلِّدة للظواهر. لا أثرَ، في نظريّةِ المُؤامَرة، لِمَا أرْساهُ عِلمُ الاجتماع مِنْ مكاسبَ مَعرفيّةٍ ومن آلياتٍ لفَهْم الظواهر والبَحث لها عن تفاسير. لا تكفُّ هذه النظريّة، بانفصال تامٍّ عن هذه المكاسب والآليات، عن مُعاوَدة الظهور وتقديم الأحكام الجاهزة، على نحو ما تبدَّى من انتعاشِها حديثاً في سَياق الحَراك الذي عرفتْهُ البلدان العربيّة، إذ اتُّخذت نظريّةُ المُؤامَرة أداةً للتصدّي لهذا الحَراك، وللسّعْي إلى تَجريمه وتَخوينه وإفشاله. كما تُعاودُ هذه النظريّةُ الظهورَ كلّما تبلْوَرتْ صيغةٌ من صِيَغ مُقاومةِ شكلٍ مِنْ أشكال التسلّط، حيث تلجأ السلطة إلى نظريّةِ المُؤامَرةِ من أجل تلفيق التُّهَم الجاهزة لكلِّ مُقاومةٍ لأشكال التسلّط، والعملِ على تقديم المُقاوَمة بوَصفها مُؤامرةً ضدَّ المَصالح الوطنيّة والقوميّة. إنّ نظريّةَ المُؤامَرة تُوَفّرُ للسلطة ذرائعَ سَهلةً وجامدة من أجل تسفيهِ الاحتجاج المشروع، وتجريم المُقاومة الهادفة. وبذلك، لا تَحجبُ النظريّةُ مَوضوعاتِها وحسب، بل تتّخذُ هذه الموضوعات أداةً لتزكيّةِ هاجس المُؤامَرة ونَسْفِ كلِّ نزوع إلى المُقاومة.

اِستناداً إلى ما تقدَّم، لا تكشِف نظريّةُ المُؤامَرة فقط عن تناقُضِ مُنطلقاتِها مع الفَهم السليم والتفسير المُرجَّح للظاهرة، بل تكشفُ، أبْعَد من ذلك، عن مُفارقةٍ كبيرة تتجلّى في قُدرةِ الوَهْم على أنْ يَصُوغَ نظريّتَهُ، وفي طاقةِ الحَجْب والتعتيم على ادّعاءِ الكَشْف والتفسير والإضاءَة. فنظريّةُ المُؤامَرة دليلٌ على أنّ بوسْعِ الوَهم أنْ يَصوغَ نظريّتهُ، وأنْ يُقدِّم نفسَهُ بوَصفه قادراً على تفسيرِ الظواهر.

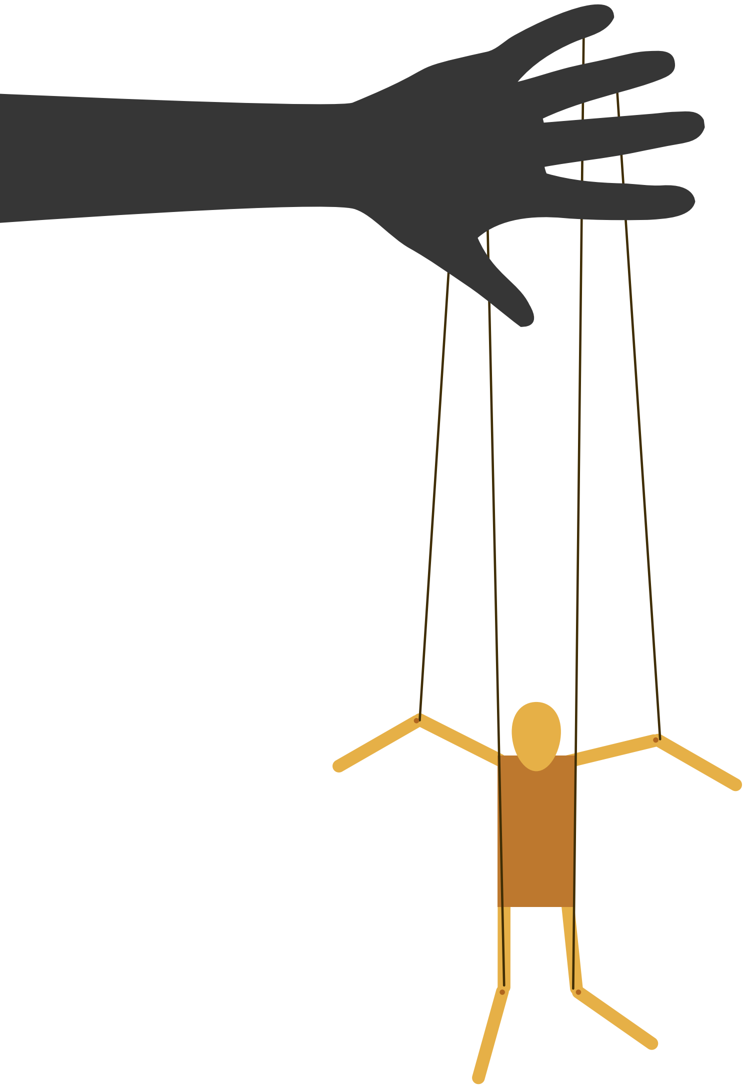
لا تتجسّدُ أوهامُ هذه النظريّة في التفسير السياسيّ للظواهر وحسب، إنّها تتبدَّى أيضاً عندما تجدُ امتدادَها لدى الذوات، أي عندما تَسري هذه الأوهامُ لا في تفسير أحداثٍ سياسيّة، وإنّما في تَوَسُّل المَرء بها لِفَهْم علاقته بغَيْره، وأبْعد من ذلك لِفَهْم العلاقة التي يَبنيها مع ذاته، على نحو يُخوِّلُ لخَلَل هذه النظريّة أنْ يَسريَ حتّى في فَهْم المَرْء لذاته، وفي رُؤيته لهذه الذات. لا حدَّ لامتداداتِ هذه النظريّة في اليَوميّ، وفي أوْهام الذات عن نَفْسها وعن صِلتِها بغيرها. فحكايةُ وَهْم التآمُر ذاتُ شعابٍ مُتشابكةٍ في حياةِ الفرد، لا في «التفسير» السياسيّ للظواهر وحسب.

على المُستوى الشخصيّ، يكادُ اعتمادُ المَرء الدائم على مُوَجِّهات هذه النظريّة في فهْم نَفْسه وفَهْم علاقاته مع الآخَرين يكونُ حالةً مَرَضيّة. في هذا المُستوى الشخصيّ، تجدُ أسُسُ هذه النظريّة امتداداتِها في هَوس حادّ بتغذيةِ حكايةِ المُؤامَرة، وفي



حرْص الشخص على إرجاع كلِّ ما يَجري في حياته إلى مُؤامرةٍ لا تنفكّ تُحاكُ في الخَفاء ضدَّه، وغالباً ما يَصوغُ هذه التغذية بخطابِ التهويل الذي يَبقى مَشدوداً إلى مَفهوم الظلّ، بوَصف هذا المفهوم مِنْ أسُس نظريّةِ المُؤامَرة. لا تستقيمُ هذه النظريّة، إنْ في تفسير الظواهر أو في فَهْم الذات لنَفْسها ولِعلاقتها مع الآخَرين، إلّا بالتهويل، مادام مُنطلَقُها يَفترضُ ظِلّاً. لذلك يَعملُ التهويلُ على تحويل الظلِّ المُتوَهَّم إلى حقيقةٍ شاخصة. التهويلُ هو جَعْلُ ما لهُ صفة العَدَم شاخصاً وماثلاً للعيان. فخطابُ نظريّةِ المُؤامَرة هو، بوَجْهٍ عامّ، خطابُ تهويلٍ بامتياز. لربّما هذا التهويلُ القائمُ على الإيهام هو ما يَبتلِعُ في الأخير صاحبَهُ، بحيث يتعذَّرُ عليه، في الحالات المُفرطة في التوَجُّس المَرضيّ، أن يَرى الأشياءَ من خارج وَهْم التآمُر الذي يُغذّي لديه التهويل. مِنْ مَلامح امتدادات هذه النظريّة على المُستوَى الشخصيّ أمْران رئيسان. أوّلهُما حاجَةُ المَرء، الذي وقعَ في حبائل أوهام هذه النظريّة، إلى عدُوّ وَهميٍّ دائم. لا يُمْكنُ لمَن اعتادَ توَهُّمَ مُؤامرةٍ ضدَّه أنْ يعيشَ بدون عدوّ. لذلك يعملُ باستمرار على خَلقه. وهو ما يَجعلُ مفهومَ الظلّ، على نحو ما تقدَّمَ الإلماحُ إليه، أحدَ أسُس الميتافيزيقا المُوَجِّهة لهذه النظريّة. لابُدّ لظلِّ العَدُوّ المُفترَض، في هذا الوَهْم البائس، أن يَستويَ ويَغدوَ شخصاً ماثلاً للعيان، لذلك يعملُ الخطاب، الذي يُنتجهُ مَنْ ألِفَ أنْ يُغذّيَ تَوَهُّمَهُ ويقتاتَهُ في آن، على تمكين العَدَم مِن عَين، أي تمْكينه من وُجود وهْميّ. هكذا يَغدو الأمرُ، في الأخير، لا مُجرّدَ افتراض، بل إيماناً راسخاً، لكنّه إيمانٌ مَرَضيّ. غالباً ما يتغذّى هذا الخطابُ، الذي يَعملُ بيَقينٍ وَهميّ أو بوَهْمٍ مَكين، بالتهويل، وبالتّخوين الذي يُجدِّدُ الحاجَةَ إلى عدوّ. لا تنفصلُ هذه الحاجة عن النزوع الدائم إلى تخوين الغَير، على نحوٍ تترتّبُ عليه الصُّورةُ التي يدأبُ المَهووسُ بوَهْم التآمُر على تقديم نفسهِ عبْرها. الأمرُ الثاني، هو التذاذُ المَرء بتقديم نفسهِ في صُورةِ ضَحيّة، وإصراره على أن يَعيشَ بهذه الصّورة وفيها. إنّ مَن يقعُ في شرَكِ هذا الوَهم لا يَجدُ حرَجاً في تقديم نفسه، حتّى في سياقات عامّة، ضحيّةً لمُؤامَرات مُدبَّرة، بل أكثر من ذلك، يَحرصُ على التباهي بالأمْر، كما لو أنّ في هذا الأمر ما يَستحقّ التباهي أو كما لو أنّهُ يتعلّقُ ببُطولةٍ ما. أنْ يكونَ المَرءُ ضحيّةً، حتى وإنْ ترتّبَ ذلك على واقعةٍ ملموسة، ليس إطلاقاً داعياً من دواعي الافتخار أو التباهي، على العكس فهو من دواعي الشّفقة. مِنَ المُؤسف، إذاً، أنْ يَقبل المرءُ على نَفسه أن يَغدوَ مَوضوعَ شفقة، مُدمناً بذلك تقديمَ نفسه في صورةِ ضَحيّةٍ لمُؤامَراتٍ لا تنتهي في توَهُّمه.

إذا كان لابدّ مِنَ الحديث عن ضحيّة، فالأقربُ إلى الصَّواب هو الحديث عن ضحيّةٍ لا لتآمُرٍ مُدبَّر، بل لنظريّة المُؤامَرة نفسِها. يُمْكنُ، في سياق هذا الامتداد الذي شهدتْهُ النظريّة في فَهْم الذوات لنَفسها، الحديث عن ضَحايا نظريّة المُؤامَرة لا ضَحايا المُؤامَرة. أنْ يكونَ المَرءُ ضحيّةَ هذه النظريّة معناه أنْ تسريَ أوهامها في فَهْمه لنفسه وفي فهْمه لعلاقاته بغَيره، وأنْ تجعلَهُ يلتذُّ بذاتهِ في صُورةِ ضحيّة. إنّ المُتتبِّع لامتدادات هذه النظريّة على المُستوى الشخصيّ يُمْكنُ أن يتساءلَ: أيتعلّقُ الأمرُ في هذه



الحالة باتّخاذ المَرء لنظريّةِ المُؤامَرة آليةً من آليات المُزايدة واستجداء وَضْعٍ اعتباريّ يَعرف أنّه لا يَستحقّه، أم أنّ الوهمَ، الذي عليه تقومُ نظريّة المُؤامَرة، تمكَّنَ من المرء حتى غَدا حقيقةً لديه. الاحتمالان مُختلفان. يبدو مِنْ غير المُمْكن استبعادُ أيٍّ منهما. غير أنّ الاحتمال الثاني يَجدُ تحقُّقاته في العَديد من الحالات، بمَعنى أنّ المَرءَ يغدو فِعلاً ضحيّة ولكن ليس بالمعنى الذي يُقدِّمهُ عن نفسه، وإنّما بمَعنىً آخَر دالّ على أنّه صارَ ضحيّةَ وَهْمه. ما أقسى أنْ يَصيرَ المرءُ ضحيّةَ وهْمِه، لأنّهُ ينتهي في الأخير إلى التآمُر على نَفسه وإلى الالتذاذ بالإقامةِ في الوهم والتباهي به. بتغذيّةِ الوَهْم واتّخاذه مَوقعاً ثابتاً لفَهْم الذات لنفَسها ولعلاقاتها، لا تقومُ هذه الذاتُ، في حقيقة الأمر، إلّا بالتآمُر على نفسها ورَسْم صُورة مقلوبة عنها. وبذلك تَصيرُ فُرجةً مُعقَّدةَ المَشاهد، لأنّ وَهْمَها يَمتدُّ في حكايات الآخَرين. في الحالتيْن معاً، أي سواء تعلّقَ الأمرُ بنظريّة المُؤامَرة في الخطاب السياسيّ أو بامتداداتها في فهْم المَرء لذاته ولعلاقاته، تُوَفِّرُ هذه النظريّة مَوضوعاً يُتيحُ لدارسيها، من بين ما يُتيحُهُ، تفكيكَ اشتغال الوَهم، وتقويضَ آلياته في تحويل العَدم إلى عيْن، وجَعْلِ الظلّ شخصاً ماثلاً، واستدامةِ صُورةِ عدوٍّ لا ينفكّ يُعاودُ الظهورَ باستمرار، وتمكين التهويلِ من بلاغةٍ ترومُ الإقناع به، وتقديم الغير عبْرَ التخوين الذي يُغذِّي الوَهْمَ ويغتذي به في الآن ذاته.

■ خالد بلقاسم

سرير بروكيست

والتأويل من داخل العلبة

لَعلَّها أكثر التعبيرات استعمالاً خلال التحليلات الشفاهيّة والكتابيّة، إلى الدرجة التي باتتْ فيها «متناً تفسيريّاً» للإجابة عن الأسئلة والالتباسات التي يضجُّ بها العالم، فلا يخلو نقاش من «نظريّة المؤامَرة» طلباً للحجاج، والترافع، والتبرير، على أساس ألّا شيء يحدث بالصُدفة، ولا شيء يكون كما يبدو عليه، وكلّ شيء مرتبط بعضه ببعض، وفقاً لما انتهى إليه مايكل باركون، فدوماً هناك ما/مَنْ يُحرِّك اللعبة بدهاءٍ تامّ ويتلاعب بمصائر الشعوب ويشعل الحرائق وينشر الأمراض، تبعاً لمعتنقي هذا الإمكان التفسيريّ.

ما الذي يدفع المرء إلى الاستنجاد بـ«التأويل» المُؤامَراتي، لفهم وتحليل كلّ المُمكنات والاستحالات؟ ما الذي يجعله «مُؤَوِّلاً» من داخل العلبة، لا من خارجها، لكلّ ما يحيق به وبطبقته ووطنه وعالمه من أحداث وانقلابات؟ أي «معنى» تُتيحه نظريّة المُؤامَرة لبناء الفهم وتجاوز المحتجب؟ وهل من الممكن، التحرُّر من «نظريّة المُؤامَرة» في الحالة الجدالية العربيّة على الأقلّ؟

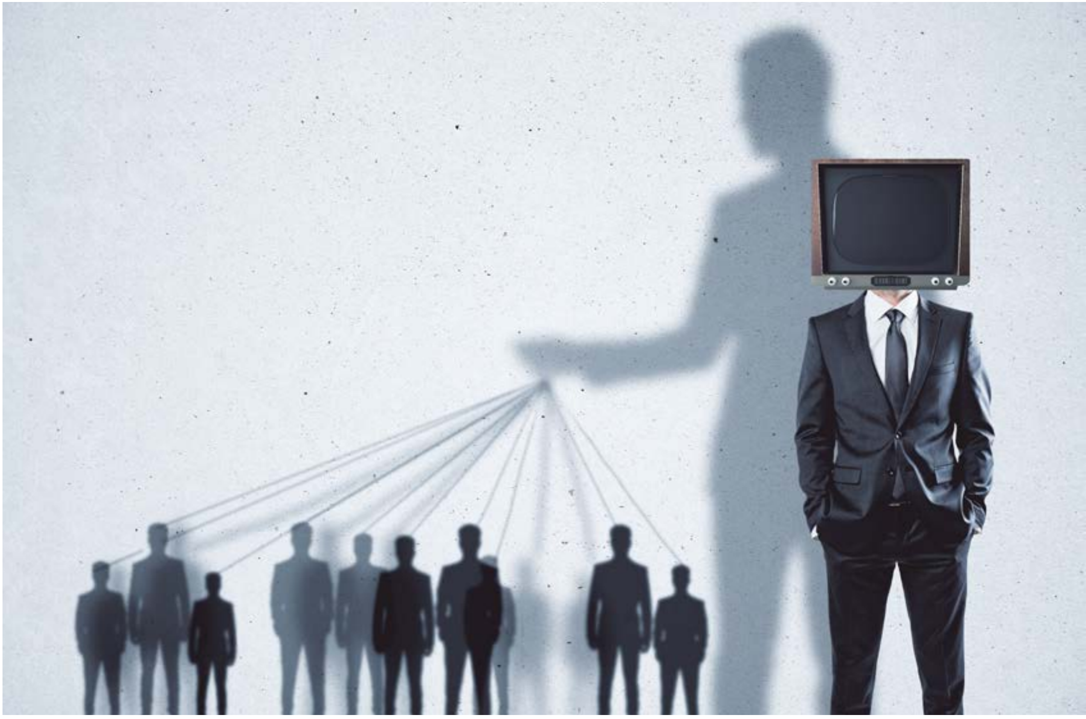
لنتفق في البدء على أن الأمر يتعلَّق بفرضية ممكنة، قابلة للتأييد أو التفنيد، وألّا علاقة لها بالنظريّة العلميّة، التي تستوجب براديغماً معرفيّاً وتراكماً علميّاً، يسمح لها باقتراح متون قرائيّة وقوانين تفسيريّة للحقل الذي تنشغل به. والحال أننا، وفي كثير من الأحايين، أمام «قراءة» مُتطرِّفة للطالع السياسيّ لا أقلّ ولا أكثر، تقدِّم الجواب الذي ترتضيه جموع الرافضين للتفكير خارج العلبة (thinking out of the box).

منذ أن وُجِدَ الإنسانُ على وجه البسيطة، والصراع دائر حول سلطة التفسير والتأويل، والتي احتكرت أوّلاً مِنْ قبل الساحر، لتستقر بعداً في يد رجل الدين والحكيم والسياسيّ وصاحب المال، وتتوزَّع بعداً بين جغرافيات لا نهائية من الاستبداد والتسلُّط. فما يحدث من وقائع كان بحاجة إلى تأويل و«عقلنة» وتبرير، وبالطبع فمَنْ يتوفَّر على المزيد من الرساميل الرمزيّة والماديّة، هو مَنْ سيحتكر التأويل ويتحكَّم في مدخلاته ومخرجاته. من هنا نفهم كيف تمكَّن الساحر في المجتمعات الأولية من تفسير المرض بغضب القوى اللامرئية، مقترحاً ألّا سبيل لإرضائها إلّا بالقربانية والتضحية، مثلما فسَّر شح الأمطار وتراجع الصيد بمؤامرات تمارسها أرواح شريرة، أو أنها قادمة من «نيران صديقة» من توقيع أحد أفراد المجموعة. ومنه انطلقت عمليّات التأسيس للتفسير المُؤامَراتي الذي يُعفي الذات من المسؤولية ويحمِّلها مباشرةً للآخر، مرئياً أو لامرئياً، المُهمُّ أنه لابدّ من شماعة نعلِّق عليها سوء الأحوال وعسرها، اتِّصالاً بالصحّة والغذاء والعنف وكافة الديناميات الإنسانيّة، ومن ثمَّة كان الإقبال على هذا النوع من التفسير، الذي يمنح «الارتياح» عبر «شيطنة» الخارجاني وتوكيد «مظلومية الأنا».

> لابدّ من شماعة نعلّق عليها سوء الأحوال وعسرها، اتّصالاً بالصحّة والغذاء والعنف وكافة الديناميات الإنسانيّة، ومن ثمّة كان الإقبال على هذا النوع من التفسير، الذي يمنح «الارتياح» عبر «شيطنة» الخارجاني وتوكيد «مظلومية الأنا»

علينا أن نعترف أن الانجرار، وفي كلّ حين، نحو نظريّة المُؤامَرة، لتفسير كلّ شيء، ما هو إلّا تعبير عن بنية نفسيّة مهزوزة، تُدمن «التبرير» كآلية دفاعية، وتوثر «الكسل» والخضوع الأعمى لـ«ديكتاتورية اليقين»، خصوصاً وأن التفسير المُؤامَراتي يتضمَّن إجابات جاهزة ومسكوكة، لا تتطلَّب بدل أي «جمناز فكري» لقراءة الواقع وتفكيكه، فكلّ ما يستجد أو يتقادم من أحداث وتحوُّلات، يجد «تأويله» الحالم في «الأيادي الخفيَّة» التي تُدير اللعبة وتحرِّك الدمى من وراء الستار.

إن تفسير الوقائع السوسيوسياسيّة، يقتضي التحرُّر أوّلاً من «التصوُّر المغلق» لدورة التاريخ، وأن ما نعيشه، ليس إلّا «تدويراً» وإعادة إنتاج للواقع، وأن ما يحدث تمَّ التخطيط له قبلاً، في إلغاء تام لإرادة الشعوب ودينامية الحياة السياسيّة، بحيث يتحوَّل الربيع الديموقراطي الذي يتواصل آناً من الجرح إلى الجرح، إلى مجرد تخريج إجرائي لسياسة خفيَّة



هَنْدَسَتْهَا القوى الإمبريالية، وهو تفسير تعسفي يستند إلى منظور اختزالي ضيق، يعتبر المجتمع بمختلف صراعاته وتنافساته وتسوياته، مجرَّد «توليفة» جامدة يتم تحريكها واستنفارها متى استدعت الظروف ذلك.

ما يميِّز نظريّة المُؤامَرة هو مجهولية الانتساب، فالتفسير الذي تقترحه بصدد واقعة ما، لا انتماء ولا مصدر له، وهي بذلك تمنح الآخذ بها، فرصة للتملك والادعاء بأنها من عندياته، خصوصاً وأنها لا تتطلَّب كثير عناء لتأسيس الأطروحة التفسيرية، يكفي استحضار بعض حوادث التاريخ الفائتة، وإضافة بعض «التوابل» المُستعمَلة من طرف «مُنَجِّمي» التحليل السياسيّ و«مشعوذي» الأزمنة المُعاصِرة، لإضفاء «المعقولية» والصدقية على «القول». ولهذا ليس غريباً أن نجد أغلب مدمني نظريّة المُؤامَرة في الحالة العربيّة، يتحجَّجون برصيد قرائي مفتوح على «بروتوكولات حكماء صهيون» و«حكومة العالم الخفيّة» و«العوالم السريّة للماسونيّة»، فضلاً عن تقديم شواهد من «أحداث الحادي عشر من سبتمبر» و«الفوضى الخلّاقة» و«الربيع العربيّ»، للتأكيد على أن كلّ ما يحدث تمَّ إخراجه قبلاً، وأننا نعيش النسخة التطبيقيّة لا غير.

لن نسقط في فخ التأويل المُؤامَراتي إن قلنا بأن بنيات الاستبداد هي التي دعمت فكر المُؤامَرة، وجعلت منه أسلوباً تحليلياً لكلّ ما يحدث في الواقع، وفي ذلك إعفاءٌ مباشرٌ من مسؤوليتها المُباشِرة في عدم إقرار الديموقراطية وتحقيق الرفاه للشعوب، كما أنها وجدت في ذات المؤامرة أسلوباً قمعياً لتكميم الأفواه واغتيال الحرّيات. فكلّ احتجاج على سوء التدبير، يُفسَّر بأنه مؤامرة حِيكت خيوطها بالخارج، وكلّ تفكير خارج السرب، هو تآمر على الثوابت والشرعيّة، علماً بأن المؤامرة الفجَّة التي تتواصل اليوم هي تأبيد الاستبداد وتأجيل الحِراك والتغيير.

تشير أبحاث علم النفس إلى أن الإنسان يلجأ إلى نظريّة المُؤامَرة، كميكانزم تفسيري، عندما يُخفق في استيعاب الواقع، ويفشل تحديداً في ترتيب علاقة سوية مع بنياته، وذلك لأجل التخلص من الخوف والألم وعدم القدرة على الفهم، فالتأويل المؤامراتي يمنحه الارتياح، ولو مؤقتاً، ويعفيه من المسؤولية والمساءلة، ويسهل عليه تركيب قطع «البوزل». ومبعث الخطورة في ذلك كلّه، أنها تمنحه من جهة «شعوراً بالأمن»، و«تسييداً» لثقافة اليقين، وفي الآن ذاته تخلق لديه شعوراً بالإحباط واللاجدوى، ما دام كلّ شيءٍ معداً سلفاً، ولا سبيل لتجاوزه أو تغييره. ولَعلّ هذا ما دفع الكاتب روجير كوهين إلى القول بأن «الملجأ الأخير لكثير من العقول الأسيرة، هو بالضبط نظريّة المُؤامَرة، فهي الملاذ الأخير للضعفاء، فإذا كنت غير قادر على تغيير حياتك الخاصّة، فلا بدّ من وجود قوى كبرى مسيطرة على العالم»، تمنعك من الحِراك والتغيير.

بالرغم من عدم تحقُّق الكثير من «نبوءات» أنصار نظريّة المُؤامَرة، فإن الإقبال على استهلاكها ما يزال مرتفعاً، وسيبقى كذلك، لأنها تتيح للكثيرين من غير القادرين على تغيير الأنا والآخر والعالم، تحميل القوى الخفيّة واللامرئيّة، مسؤولية ما يحدث، من ظلم واستغلال وحروب، مستحضرين بذلك لسرير بروكيست، لـ«تفصيل» كلّ واقعة على نفس المقاس.

فبروكيست/قاطع الطريق في المتن اليوناني، كان يعترض سبيل المارين من غابته، ليأخذهم إلى سريره، ويقرِّر العقاب اللائق بهم، فإن كانت قامة المُعتقل تتجاوز حدود السرير، كان القطع. وإن كان من قِصار القامة ولم تصل أطرافه إلى حدود السرير، كان التمديد وإلى أن تتقطَّع ذات الأطراف، المهم أن هناك «سقفاً سريرياً» و«سقفاً تفسيرياً» صالحاً لكلّ واقعة، وهو ما يتكرَّر أيضاً في حالات التفكير من داخل علبة المُؤامَرة.

المُؤكَّد أن التأويل المُؤامَراتي، مستمر في التجذُّر، أكثر فأكثر في البيئات التي تدمن الإجابات ضدّاً عن قلق السؤال، وذلك لكونها تقدِّم تفسيراً يسيراً وسريعاً لأعقد المشكلات الدوليّة والفرديّة، عبر تحرير مُعتنقها من أيّة مسؤولية أخلاقيّة ومجتمعيّة، بإلقاء اللائمة على «وحش لامرئي» يُكَيِّف ويُشَكِّل وتحدَّد صورته نهايةً، تبعاً للاصطفافات الأيديولوجيّة والوضعيات المراتبية، فالمُتآمر قد يكون «غرباً كافراً» أو «ليبرالياً متوحِّشاً»... أو لربَّما «كائناً فضائيّاً»، المُهمُّ أن نظريّة المُؤامَرة كفيلة بإنتاج المعنى في أزمنة اللا معنى. فمتى التفكير من خارج العلبة؟

■ عبد الرحيم العطري

عقول متشكِّكة

لماذا نؤمن بنظريّات المُؤامَرة؟

تخلق معتقدات المُؤامَرة التماسك الاجتماعيّ، أو بالأحرى الشعور بالانتماء، لأن الأشخاص يتحوَّلون، بتأثير البروباغندا المُكثَّفة، إلى مجموعة من «الطليعيين»، الذين يعتبرون أنفسهم مستنيرين بـ«المعرفة الحقيقيّة»، التي تكشف علناً عن آرائهم، ومنها التأكيد على أن العالم تحكمه مُؤامَرة، أمّا الجزء المتبقّي من المخالفين، فهم من السذّج والحمقى الدهماء من الناس.

وفقاً لعلماء النفس، هناك علامات مميّزة للنظريّات الخاطئة، يمكن أخذها كنماذج، مثل التناقضات المحسوسة في «الأدلّة» والبيانات التي يمكن أن تجعل المرء يشعر بالريبة منها، وهو ما يحاول أن يشرحه بإسهاب «روب برودرتون» في كتابه الذي يحمل عنوان «عقول متشكِّكة، لماذا نؤمن بنظريّات المُؤامَرة». يقول «برودرتون» في مقدِّمة كتابه: «دعونا نوضِّح على الفور: أن الاعتقاد بهذه النظريّات، ليس شيئاً خارجاً عن المألوف، بل على العكس تماماً: فهي مُقنعة ومبنية ببراعة، وتلبي بطريقة جيّدة احتياجات معيَّنة في بعض المسائل الأكثر إلحاحاً من غيرها، على سبيل المثال، الحاجة الماسّة إلى فهم مجرى الأحداث المتسارعة، أو تلك التي يغلِّفها الغموض والشبهات».



وبالنسبة لعالم النفس الاجتماعيّ فيرين سوامي، من جامعة أنغليا، فإن هذا الشعور يعود، أيضاً، إلى خطأ لوزة المخيخ (amigdala)، وهو جزء من الدماغ الذي يجعلنا نتفاعل بقوة في مواجهة التهديدات المحدقة بنا، إذ يبلغ أَوْجَ نشاطه في لحظات القلق وعدم اليقين حول المستقبل، وهذا ما يدفع الدماغ لتحليل متواصل للمعلومات المتاحة في محاولة لتنظيمها في سرد متماسك ليجعلنا نفهم ما يحدث، ولماذا نحن مهدَّدون؟ وكيف يجب أن نتفاعل مع الحدث؟.

لم نذهب قطّ إلى القمر، الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، واغتيال كينيدي نظَّمته وكالة المخابرات المركزية، تحاول الحكومات تهدئة السكّان بمواد غير مرئية تنثرها الطائرات، أو ما يُعرف بالسحاب الكيميائي، أو تلك التي يطلقونها في القنوات المائية. ها هي نظريّات المُؤامَرة الأكثر شيوعاً في الوقت الحاضر، تلك التفسيرات البديلة الخيالية للأحداث الحقيقيّة التي يقدِّمونها على أنها مؤامَرات من قوى شريرة وقويّة. تفسيرات يصدِّقها شخصٌ واحد تقريباً من أصل أربعة. ولكن كيف يمكننا أن نصدِّق هذه القصص الغريبة؟

ويبدو أن هناك شغفاً كاملاً بالمؤامرات بين نسبةٍ كبيرة من سكان الأرض: «إن أولئك الذين يعتنقون نظريّةٍ ما، لديهم احتمالٌ كبير في تصديق النظريّات الأخرى»، يلاحظ برودرتون، «والأكثر من ذلك، إنها معتقدات مترسِّخة، غرانيتية. نظريّات المُؤامَرة ليست محصّنة فقط ضدّ الدحض، ولكن تتغذّى عليها: إذا كان هناك شيء يبدو مُؤامَرة، فهو كذلك. من ناحيةٍ أخرى، إذا كانت لا تبدو مُؤامَرة، فهي أكثر وضوحاً،



لأنها تشير إلى أن أولئك الذين أرادوا تمويهها، أدّوا عملهم بشكلٍ جيّد». إن الدلائل التي تناقض النظريّة يُنظر إليها كأعمال تضليلٍ من قِبل المُتآمرين، أي بمعنى أنها دليل على المُؤامَرة نفسها، وهنا تكمن المفارقة.

«من الجهل. أو بالأحرى، من الفجوات في فهم الحدث أو الظاهرة. إنها روايات بديلة تم إنشاؤها بدءاً من المعلومات المفقودة من البيانات الرسميّة أو التي تتناقض معها». يقول بروذرتون: «يأخذ منظِّرو المُؤامَرات التصرُّفات الشاذّة التي ليس لها صلة بالموضوع، وهو أمر غير كافٍ بمفرده لتقويض التفسير الرسميّ، ويحبكونها معاً في سرد متماسك، ممّا يحولها إلى مُؤامَرة واحدة». فلنأخذ صور رحلة أبوللو إلى القمر: منظِّرو المُؤامَرة يتذرَّعون بأدلّة مثل العَلَم الذي يبدو أنه يرفرف على سطح القمر، في غياب الريح أو الغلاف الجوي. في الواقع تمّ وضع العَلَم على بنية على شكل حرف (L) مقلوب لمجرَّد الإبقاء عليه مرفوعاً إلى الأعلى. ولكن في مدوَّنات المُؤامَرة لا أحد يصدق ذلك. «هذا الهبوط المُزيَّف على سطح القمر ليس فقط واحدة من أكثر نظريّات المُؤامَرة انتشاراً على شبكة الإنترنت، ولكنه أيضاً نوعٌ من حصان طروادة الذي تتطوَّر به المُؤامَرة في العقول»، كما يؤكِّد بروذرتون.

«على شبكة الإنترنت، حيث من السهل نشر الأكاذيب وفضحها أيضاً، خضعت نظريّات المُؤامَرة لطفرة جينية: إنها تميل اليوم لأن تتخذ طابعاً أكثر غموضاً وأقلّ تفصيلاً ممّا كانت عليه في الماضي. غالباً ما يقتصر منظِّرو المُؤامَرات على الويب لإبراز النقاط الحرجة في البيانات الرسميّة لحدثٍ ما، مع التلميح المُبطَّن إلى أن شخصاً ما لا يقول الحقيقة. هذا يبدو واضحاً مع نظريّة الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول على أنها «مُؤامَرة داخلية»: العديد من التلميحات والإيحاءات إلى الفجوات في الرواية الرسميّة، ولكن القليل من التفسيرات البديلة حقّاً». ولكن لماذا يعتقد 40 % من سكّان نيويورك (15 % من الإيطاليين) أن الحكومة الأميركية لعبت دوراً نشطاً، أو أنها كانت تعلم بالأمر مسبقاً ولم تفعل شيئاً لوقف الهجوم؟

السمة الأخرى للمُؤامَرة هي ما يطلق عليه في علم النفس «خطأ الإسناد»: «إنه الميل لإسناد أحداث معيَّنة إلى الخصائص الشخصيّة للآخرين وإلى إرادتهم بدلاً من الصدفة أو إلى عوامل خارجية»، كما يشرح علماء النفس، «لذلك انتهى بنا المطاف إلى الاعتقاد بأن هناك علاجاً لأسوأ الأمراض، لكن شركات الأدوية العملاقة تبقيها مخفيّة للحفاظ على كسب المال من بيع العقاقير، أو أن أزمة الهجرة الحالية هي نتيجة لخطةٍ أميركية لزعزعة استقرار أوروبا».

ومع ذلك، فإن أخطاء التقييم هذه يمكن أن يرتكبها الجميع: «إنها، في آخر المطاف، زيادة في العمليّات الذهنية الطبيعيّة التي نتشاركها جميعاً. مهاجمة منظِّري المُؤامَرات يعني أن تفعل ما يفعلونه همّ: اعتبار الأخطاء الشائعة كذنب لمجموعة معيَّنة من الناس». من ناحيةٍ أخرى، من الأفضل ألّا نثق كثيراً: «في دراسة أجريت عام 2011، وجد دوغلاس وسوتّون علاقة متناقضة بين الاعتقاد بالمُؤامَرات والميل إلى المشاركة بها!».

بالنسبة لمعتنق نظريّة المُؤامَرة، فإن الحقيقة الوحيدة هي أن



وضع الأشياء بشكلٍ معيَّن هو بحدّ ذاته مُؤامَرة، لأنها وضعت على هذا النحو. لذلك، من غير المُرجَّح أن يكون هناك أي شخص يشعر أنه موضع شكّ من خلال اعتناق هذه الحقيقة، التي تغطي نفسها بـ«معرفة» شاملة. إنها في جوهرها وفي حقيقتها، ما هي إلّا دعوة إلى التظاهر بالرغبة في إحداث «ثورة»، «ثورة» الضمير، الذي تعكّر على أيدي «قوى غاشمة»، والذي ينبغي تحريره، بينما في هذه الأثناء، يتصرَّف بالطريقة المُعاكسة تماماً.

التآمرية إذن، هي تمثيلية مبتكرة، لأنها وقبل كلّ شيء، تقول للجميع إن الأفكار الجديدة لا تولد من الحوار، بل من الصدام، أو بالأحرى سياسة الأرض المحروقة، طالما التبريرات جاهزة وهناك مَنْ يصدِّقها فعلاً، حتى أن المُؤامَرة هنا تتخطَّى العالميّة، لتصبح كونيّة. هكذا، لا يتم الحديث عن خصوم، ولا محاورين طبعاً، ولكن التفكير يبقى منحصراً بمعنى «الأعداء» و«الأصدقاء». الأعداء المخفيين، الأصدقاء المُعلنين، الذين يُعبّر عنهم كأجزاء متجانسة ونشِطة في المجتمع من خلال معارضة «المُؤامَرة»، ويرسم مساراً جديداً، تاريخاً غير مكتوب، تم تطهيره من كلّ أهوال الفساد! المُؤامَرة، وإلى كونها شذوذاً وتطرُّفاً خالصاً، يُعبّر عنها بعض الأفراد كحجر الزاوية الصلبة في اتّجاهاتهم المُفرطة في تزييف الحقائق وكلّ ما يمتّ إلى الواقع بصلة، حتى أن غاز الكلور يصبح -بقدرة قادر- غازاً غير مؤذٍ، ولا يتجاوز في خطورته مستحضرات التنظيف الموجودة في كلّ بيت.

إن طريقة التفكير الأيديولوجيّة المتطرِّفة، على الرغم من أنها غير متبلورة وغامضة، إلّا أن دحضها يصبح أمراً عسيراً للغاية. هذه الحقيقة تغذِّي مصداقيتها في عيون أولئك الذين يجعلونها خاصّة بهم، وتصبح دليلاً مثبتاً على صحتها. في الحقيقة، هم يعترضون على أنه: «إذا كنت لا تعرف كيفية مواجهة أي شيء آخر غير الإشارة إلى ما تعتبره أساساً واضحاً لما لا ندعمه، ولكن كلّ ما تقوله، وما تفعله، فهو بالنسبة لنا يثبِّت موقفنا. إذا كانت الأرض مُنْبَسِطة، وبدلاً من ذلك تلهث في محاولة أن تبين لنا أنها كروية، فنحن نردّ أن هذا التكلُّف بعينه ما يخفي التناقض في أقوالك وفي صحة أقوالنا». كلّما جادل المرء ضدّ المُؤامَرة، زاد من مخاطر ترسيخها، لأننا يجب أن نسلّم بالحجج التي تخصّه، أن نلعب لعبة على أساس القواعد التي يمليها هو، وليس على أساس العقلانية التي يتم إلغاؤها تماماً في هذه الحالة.

■ يوسف وقاص

المراجع:

- Menti sospettose، perché crediamo alle teorie del complotto - Rob Brotherton - Bloomsbury Edizioni.

- Non siamo mai stati sulla luna. Una beffa da 30 miliardi di dollari، Bill Kaysing 1976.

صدر في

كتاب الدوحة







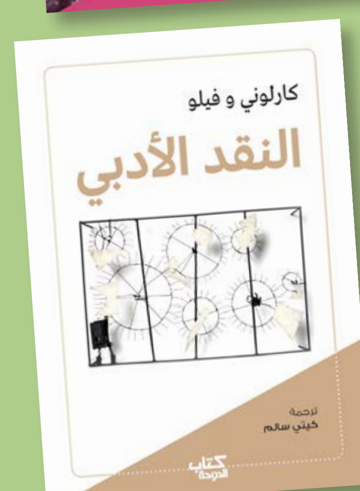
















مدفوعة برغبةٍ تطوُّريّة في البقاءِ.. فكيف تشتغل هذه الظاهرة الآن؟

نظريّات المُؤامَرة، محيطة بنا دائماً

من المُؤكَّد أنّ وسائلَ الإعلام الاجتماعيّة قد أدخلت دينامية جديدةً في كيفية انتشار نظريّاتِ المُؤامرة وكيفية تنظيمها.. ومن المُؤكَّد أيضاً أنّ العديدَ من المواطنين في العالم يعتقدون في صحّتها، وأنّ الحركات الشعبويّة التي تروِّجها بقوة قد حقَّقت نجاحاً ملحوظاً في الانتخاباتِ في السنواتِ الأخيرةِ. ولكن هذا التغيير لا يجعل الحاضر مختلفاً بالضرورة عن الماضي. فعلى مرِّ التاريخ، كانت نظريّاتُ المُؤامرة شائعة، وكانت تنتشر عبر أيّ قناةِ اتِّصال متاحةٍ، وتغذِّي الصراعَ والتحاملَ والكراهيةَ والحربَ. لقد استمرَّ «عصر المُؤامرة» لآلاف السنين. فنظريّات المُؤامرة كانت دائماً جزءاً من الحالة الإنسانيّة، وستظلّ.

حطَّم حريقُ نوتردام الهائلُ في 15 أبريل/نيسان 2019 قلوبَ عشّاق الثقافة الفرنسيّة في جميع أنحاء العالم. وبكى الباريسيون في الأماكنِ العامّة في الوقتِ الذي كانت النيرانُ تلتهم أجزاءً كبيرةً من هذه الكاتدرائية الأثريّة وتحوّلها إلى رمادٍ. وعبّر الرئيس الفرنسيُّ إيمانويل ماكرون على (تويتر) عمّا شعر به الشعبُ الفرنسيُّ حين كتب: «أشعر الليلة بالحزنِ لرؤية هذا الجزء منّا يحترقُ».

ووفق مصادرَ رسميةٍ فإنّ الحريقَ كان عرَضِيّاً، وأنه على الأرجح بسببِ عطلٍ تكنولوجيّ. ومع ذلك فسريعاً ما بدأت نظريّاتُ المُؤامرة تنتشر على وسائل التواصلِ الاجتماعيّ. فقبل إطفاء الحريق ادّعت بعضُ مواقع الويب المُتواطئة مثل «فورتشان - 4chan» أنّ الحريقَ قامت به الحكومة الفرنسيّة أو اليهود أو جماعة إسلاميّة إرهابيّة. وبسرعة فائقة انتشرت هذه التهمُ بين جمهور واسعٍ في جميع أنحاء العالم.

كان ذلك هو المسارُ المُتوقَّع للأحداث. فالحوادثُ الاجتماعيّة الكبيرة والمُؤثّرة والصادمة مثل الحرائق والفيضاناتِ والهجماتِ الإرهابيّة والحروبِ عادة ما تستدعي نظريّاتِ المُؤامرة على نطاقٍ واسعٍ بين الأفراد الذين يشكِّكون في صحّة وجهة النظر الرسميّة.

وعزَّزت شخصياتٌ بارزةٌ في اليمين الراديكالي نظريّة المُؤامرة بالقولِ بأنّ الحريقَ كان هجوماً قام به متطرِّفون. وتحدَّث المُعلّق اليميني المُتطرِّفُ «Hal Turner» عن وجود صلة بين حريقِ نوتردام والحرائقِ الأخرى التي شهدتها كنائسُ مسيحية في الولايات المتَّحدة وأستراليا وروسيا. وادّعى أنّ هذه الحوادثَ نتيجة لـ«حرب الإسلاميّة»، ونشرَ شريط فيديو يُوحِي بأنّ «مسلماً» كان في الكاتدرائية عندما اندلع الحريقُ. ولكنّ التحقيقَ كشف في وقتٍ لاحق أن الشّخص الذي ظهر في الكاتدرائية لم يكن مسلماً، بل كان رجلَ إطفاءٍ يرتدي خوذة وقناعاً وملابسَ واقية. غير أنه إلى أنْ ظهرت هذه الحقيقة تمّت إعادة نشرِ الفيديو على تغريدات تويتر مئاتِ المرَّات. هنا في بلادي هولاندا حظي هذا الفيديو أيضاً بالاهتمامِ عندما أعاد نَشْرَه «تيري بوديه - Thierry Baudet»



The Conspiracy of Claudius Civilis, Rembrandt, 1661-62

النجمُ الجديد الصاعدُ لليمين الشعبيّ الهولنديّ.

في السنوات الأخيرة، على وجه الخصوص، انتشرت نظريّاتُ المُؤامرة على شبكة الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعيّة. إنَّ هذه الأشكالَ الحديثة في التواصل تسمح بنشر سريع، أكثر من أي وقتٍ مضى، لنظريّات المُؤامرة، وتجعلُ من السهلِ على الأفراد المُتشابهين في التفكير أن يتواصلوا ويكوّنوا غرفَ صدى «echo chambers» على الإنترنت.

ونتيجة لذلك، فإن حركة الأرض المُسطحة، كما تدعي نظريّة المُؤامرة القائلة بأنّ الأرض مسطحة فعلاً، رغم تكذيب العلماء ذلك لأكثر من 500 سنة، هي الآن مجتمعٌ تتحكّم فيه مؤتمراتٌ دوريّة، بل يمكن للناس أيضاً أنْ يذهبوا إلى عطلاتٍ يهتمون أثناءها بنظريّة المُؤامرة. من ذلك مثلاً أنّ كنسبيرا سي -Con spira-Sea تقدم إجازة لمدّة أسبوع على متن سفينة سياحيّة بحريّة يتضمَّن برنامجها خطباً ونقاشات حول المُؤامرة..

في أعقابِ انتخابِ دونالد ترامب في الولاياتِ المتَّحدة، والتصويت على اتفاق البريكست في بريطانيا أصبحت نظريّاتُ المُؤامرة جزءاً طبيعيّاً من الخطابِ السياسيّ خاصّة بين مؤيدي الحركات الشعبية. فهذه الحركاتُ عادةً ما تصفُ صراعاً بين «نخب فاسدة» و«شعب نبيل». وتُسَهِّلُ العقلية الشعبيّة الاقتناعَ بنظريّة المُؤامرة بافتراضِ أنّ النخبَ توجّه ضرباتٍ إرهابيّة نحو الآخرين أو تخلق لهم أزماتٍ اقتصاديّة أو تنشر بينهم الأوبئة. يبدو كما لو أننا نعيشُ عصر المُؤامراتِ. ويبدو أنّ عددَ المواطنين الذين يعتقدون في نظريّة المُؤامرة في تزايدٍ، وأنّ مجتمعاتِنا توفر تربةً خصبةً واستثنائيةً لكيْ تزدهر هذه النظريّة.

ولكن، هل هذا هو الحالُ فعلاً؟ من المُؤكَّدِ أنّ نظريّاتِ المُؤامرة تنتشر بسرعة هذه الأيّام. ويجِدُ المؤمنون بها، المُتشابهون في التفكير، بعضُهم بعضاً بسرعةٍ عبر شبكة الإنترنت. ولكنّ هذا لا يثبتُ أنّ نسبة المُعتقدين في صحّة هذه النظريّاتِ قد زادت بالفعلِ، أو أنّ التقنياتِ الحديثةَ هي السببُ الأساسيُّ. ففي الواقع، أنّ الميلَ إلى نظريّة المُؤامرة موجودٌ طالما وُجِدَ «الإنسان العاقل».

إنّ نظريّة المُؤامرة، إذا أردنا أن نضع لها تعريفاً، هي افتراض كون مجموعة من الجهات الفاعلة قد اتّحدَت في اتفاق سريٍّ للتخطيط لأعمالِ شرّ. وهذا التعريفُ يعني ضمنياً أنّ المُؤامرة تتركّب دائماً من عددٍ من الفاعلين يعملون معاً ضمن اتّحاد أو مجموعة. فقد تخطّطُ جهاتٌ مَا لارتكابِ ضررٍ وتنفّذُ ما خطّطت له، ولكنّها لا تُعتبر متآمرةً طالما أنها لم تتآمر مع آخرين. إضافة إلى ذلك، يُشير التعريفُ إلى أنّ المُؤامراتِ يقع التخطيط

لها من قبل جماعات معادية: فـ«هم» يحاولون إيذاء «نحن». ويمكن للمرء أنْ يقول إنّ المواطنين غالباً ما يعتقدون في نظريّة المُؤامرة حول سياساتِ حكومتهم. ولكن يمكن أنْ يشعروا بالحرمان وبالعزلة عن هذه السياسات. ففي الولايات المتّحدة الأميركية قد يصدِّق الديموقراطيون نظريّاتِ المُؤامرة، خاصّة إذا كانت الإدارة بيد الجمهوريين. والعكس صحيحٌ. بمعنى آخر، فإنّ احتمالَ تصديق المواطنين لنظريّاتِ المُؤامرة يكون أكبر عندما ينظرون إلى الحكومة باعتبارها تمثِّل «هم» ولا تمثِّل «نحن».

يشير هذا التصوُّر إلى أنّ جذور فكرة المُؤامرة تكمن في غريزتنا القديمة التي تقسّم العالم الاجتماعيَّ إلى فئتين: نحن وهم. وإذا كان هذا صحيحا فإنّ المرءَ يتوقّع أنّ نظريّاتِ المُؤامرة كانت بالفعل شائعةً منذ آلاف السنين منذ كان الناسُ يعيشون صيّادين وجامعي ثمارٍ في العصر الحجريِّ.

لقد كتبتُ أنا وصديقي طبيبُ علم النفس التطوُّريّ «مارك فان فوجت - Mark van Vugt» مقالة نشرناها في مجلّة «رؤى في العلوم النفسية - Perspectives on Psychological Science» في 2018 درسنا فيها الأصولَ التطوُّريّة لنظريّات المُؤامرة.

قبل الثورة الزراعية منذ ما يقرب من 12000 سنة، كان جميعُ الناس يعيشون في مجموعاتٍ صغيرةٍ من الصيادين وملتقطي الثمار. ولم تكن لدى هذه المجموعاتِ وسائلُ إعلامٌ اجتماعيّة وحركاتٌ شعبيّة وديموقراطيون مقابل جمهوريين، ولم يكن بينهم تنوُّعٌ عرقي أو دينيّ.

غير أنّ ما حدث هو أنّ صراعاتٍ قاتلة نشبت بين المجموعاتِ. وعلى الرغم من أنّ انتشارَ الحروب القبليّة اختلف بشكلٍ كبير من عصرٍ إلى آخر ومن مكانٍ إلى آخرَ، لكنْ إجمالاً يبدو أنّ الإنسانَ القديم كان أكثر أهبة واستعداداً لردّ الأعداءِ من الإنسانِ المُعاصِر. وتشير السجلّات الأركيولوجية إلى أنه كانَ من الشائع نسبيّاً أنْ يموت أسلافُ الأجدادِ في نزاعٍ عنيفٍ في مواجهة تحالفاتٍ أو مجموعاتٍ معادية. وتُظهر أجزاءٌ كبيرة من بقايا حجريةٍ وُجِدَتْ في مواقع مختلفة في جميع أنحاء العالم الأدلّةَ على وفياتٍ عنيفة هي على الأرجحِ بسبب تحالفاتٍ عدائية...

ما هي السماتُ النفسيّة التي تزيد من احتمال النجاة من مخاطر العنفِ التي ترتكبها جماعاتٌ أخرى؟ إنّ أحدَ العوامل الهامّة تتمثّل في القدرة البشريّة على وضع افتراضاتٍ بشأن نوايا الآخرين: هل لهذه القبيلة المختلفة عنّا نوايا إيجابيّة وسلميّة أم إنّها تخطّط للهجوم علينا وقتلنا من أجل الاستحواذ على الأرضِ والمواردِ؟ من خلال مثل هذه الافتراضاتِ يقيس الناسُ مدى خطورة المجموعاتِ المختلفة قبل أنْ تهجمَ عليهم. وتمكّن هذه البصيرة التعاطفية من اتخاذِ الإجراءاتِ المناسبة المنقذة للأرواحِ في الوقت المناسب. لقد كان الأسلافُ إذا اعتقدوا أنّ مجموعةً مَا تتآمر لإيذائهم أمكنهم -على سبيل المثال- أنْ يهاجروا إلى مناطقَ أكثر أمناً وأنْ يطوِّروا نظاماً دفاعياً متيناً أو أنْ يقوموا بهجوماتٍ استباقيّة مباغتةٍ للقبض أو قتل المتآمرين المُفْتَرَضِين. وفي كلّ الحالاتِ كان يمكن للناسِ حمايةُ أنفسهم وأقاربهم من عنفٍ مميتٍ من خلال معرفة النوايا العدائية للجماعات الأخرى في مرحلةٍ مبكرة.

إنّ الافتراضاتِ يمكن أنْ تكون خاطئة. وليست كلُّ الأخطاء مكلفة بالدرجة نفسها.. ولكنْ من الخطأ الفادحِ أنْ نعطيَ الثقة في جماعاتٍ لا نعرفها وقويّة بما يكفي لتلحقَ بنا الأذى. قد يرتكب الناسُ هذه الأخطاء عند تقييم نوايا مختلف المجموعات. ولكن الأخطاء العفويّة أيضاً مُكلفة مثلها مثل الأخطاء المقصودة. فعندما يموتُ شخصٌ في قبيلة «يانمامي - Yanomami» في ظروفٍ غامضة غالباً ما يعزو أفراد قبيلته موته إلى أعمالِ الشعوذة التي يرتكبها أفرادٌ من قبيلةٍ أخرى. ومن غير المُرجَّح أن يكون هذا الادعاءُ صحيحاً، ولكنْ يمكن أنْ يسبّب صراعاً، بل قتلاً انتقاميّاً. إنّ مثل هذا الخطأ غير المقصود يسبّب نزاعات لا لزوم لها مع مجموعة يمكن أنْ تكون حليفاً مساعداً أو شريكاً تجارياً. إنها بالتأكيد فرصةٌ ضائعةٌ ومُكْلِفةٌ للغاية. ومع ذلك ففي بيئة يشيع فيها الصراعُ القاتل بين المجموعات فإنّه من المُرجَّح أن تكون كلفة الخطأ المقصود أعْلَى بكثير.

إنّ لبعض القبائل تاريخاً من الغاراتِ المتبادلة والصراع العنيفِ على الأراضِي والموارد الثمينة. وبالتالي ففي حالة وجودِ خطرٍ حقيقيٍّ لهجوم العدوّ فهناك ما يبرّر اتخاذَ بعضِ الاحتياطاتِ المُتعلّقة بالسلامة حتّى لو كان أحدهم بالغ في تقدير النوايا العدوانية للمجموعة الأخرى. فتَصَوُّرُ جماعة معادية على أنها غير مؤذية يعرِّضُ المرءَ إلى مخاطر عدوانها، ويمكن أنْ يؤدِّيَ إلى الهلاك أو السجن أو العمل القسري أو إلى الاغتصاب والموتِ. ولذلك، إذا كانتِ الأخطاءُ المقصودة بالفعل أكثر كلفةً من الأخطاء العفويّة عند محاولة تقدير نوايا الجماعات الأخرى، فإنّ نظريّاتِ التطوُّر ستتنبأ بأنَّ أسلافنا قد تطوَّرُوا ليكونوا من



منظريّ فكرة المُؤامرة التي عبَّرت عن نفسها بأشكالٍ مختلفة... بعد الثورة الزراعية بدأ الناس تدريجياً يعيشون في مناطق كبيرة، وتغيَّرت المجتمعاتُ بوتيرةٍ سريعة. ومع ذلك، كما تكشفُ لنا الأساطيرُ اليونانية القديمة، فإنّ هذا التحوُّل لم يغيّر مَيْلَ الناسِ إلى توقع وجود مؤامراتٍ. فعندما وصل «الأرغونيون - Argonauts» إلى «ليمونس - Lemnos» اكتشفوا أنّ سكّانَ الجزيرة كانوا نسوةً فقط. ووفقاً للأسطورة، بعد أنْ اكتشفت هؤلاء النسوة خيانة أزواجهنّ مع نساءِ «تراقيا - Thrace» تآمرن لقتل جميع الرجالِ في الجزيرة.

ولقد كان لروما القديمةِ أيضاً نصيبُها من نظريّاتِ المُؤامرة. فكلمة coniuratio (مؤامرة) يتكرَّر ظهورُها في كتابات المُؤرِّخين الرومان، «تاسيتس - Tacitus» و«سالوست - Sallust» و«ليفيوس Livy»، وفي خطبِ «شيشرون - Cicero».. إنهم كثيراً ما تحدَّثوا عن مؤامراتِ العبيد والنساء والأجانب ضد النخبِ الرومانية... وشاعت نظريّاتُ المُؤامرة في العصور الوسطى. لقد كان الكثير يشْتَبِهُون في أنّ جماعات سرية مثل «المستنيرون - Illuminati» التي انطلقت في الأصل في «بافاريا - Bavaria» تسيطر على العالم من خلال شبكة داخلية من الاتِّصالاتِ ومجموعاتٍ أماميّة. ونشر آخرون فكرة «فرية الدم - blood libel»... وأعطى كتابُ «Malleus Maleficarum» (مطرقة الساحرات) لـ«هاينرش كريمر - Heinrich Kramer» زخماً واسعاً لمطاردةِ السّاحراتِ على نطاقٍ واسعٍ في أوروبا، بدعوى أن الساحراتِ يتآمرن مع الشيطان...

لقد تخلّلت نظريّاتُ المُؤامرة تاريخَ البشريّة منذ عصرِ الصيادين إلى العصر الحديث. إننا اليوم أقلّ عرضة من أسلافنا للقتلِ على يد أعدائنا، بسبب اختلافاتنا، ونتمتّعُ بحمايةٍ جيّدةٍ نسبيّاً بواسطة تشريعاتٍ قانونية، ومع ذلك فإنّ حقيقة أنّ واقعنا تغيّر لا تعني أنّ دماغنا الذي ورثناه عن أسلافنا وتطوَّر، قد تغيّر. هذه هي الفكرة الأساسيّة لعدم التوافق التطوُّري. فعَلَى مدى الـ 12000 سنة الماضية تغيّرت الطريقة التي يعيش وفقها البشرُ بسرعة كبيرة، ولكنّ هذه الفترة ليست سوى جزءٍ بسيطٍ من التاريخ. ولذلك فإنّ ميولاتِنا الفطرية لم تتغيّر كثيراً. لقد تكيَّفت أدمغتُنا مع بيئة العصر الحجريّ في حين أننا نعيش في العصر الحديث...

لقد كانت تساور أسلافَنا بسهولة شكوكٌ حول قبيلةٍ مجاورةٍ مختلفةٍ يمكن أنْ تنقذَ حياتهم. فكانوا يهاجرون بحثاً عن السلامة قبل أنْ تهاجمهم هجوماً قاتلاً. كذلك الناسُ في العصر الحديث. إنهم يحذرون ويشكّون، دائماً وبسهولة، في المجموعاتِ المختلفة التي يمكن أنْ تكون مجموعة من الأطباءِ أو العلماء أو شركاتِ الأدوية حتّى إنهم يرفضون اللقاحاتِ والعلاجاتِ المنقذة للحياة. وقد تكون تلك المجموعاتُ إثنيةً، مضخمين بذلك كراهية الأجانبِ والتمييزَ وسياساتِ الإقصاء.

إنّ نظريّات المُؤامرة شائعة في جميع الثقافاتِ، في جميع أنحاء العالم... وإنّ جوهرها النفسي كلّها هو نفسه. فالناس يبنون افتراضات حول كيفية تآمر مجموعة مختلفة سرّاً لإلحاق الأذى بهم أو خداعهم. وهكذا، فإنّ نظريّات المُؤامرة الحديثة هي نظريّاتٌ متجذِّرة في غرائزنا الفطريّة القديمة التي نصنِّف في ضوئها العالمَ إلى «نحن» مقابل «هم».

يساعدنا هذا التحليل في تفسير انجذابِ الحركاتِ الشعبويّة لنظريّات المُؤامرة التي تصف الصراع الأبدي بين المواطنين العاديين المجتهدين والنخبة الفاسدة. فعلى الرغم من أنّ الشعبويّة قد تمتدّ لتشملَ الطيفَ السياسيَّ كلّه، فإنّ الحركاتِ الشعبويّة اليمينية المُتطرِّفة على وجهِ الخصوص هي التي تميل إلى شيطنة الأقلّياتِ العرقيّة أو الدينيّة وتعتبرُها مجموعاتٍ معادية. وتبيّن لنا أفكارُ تيرنر (Hal Turner) حول حريقِ نوتردام كيف تغذّي نظريّات المُؤامرة مشاعر كراهية الأجانب والأقلّيّات. قد تكون نظريّات المُؤامرة من العواملِ التي ساهمت في النجاحِ الانتخابيِّ الأخير للحركات الشعبويّة المُتزايدة في المجتمعاتِ الحديثة...

وفي حين يرى كثيرٌ من الناس التعدُّدية ظاهرةً إيجابيّة فإنَّ عدداً غير قليل من الناس يعتبرها تهديداً، فهم يشعرون أنَّ جماعتهم الخاصّة معرَّضة للتهديد من الغرباء، وهو الأمر الذي يمهِّد الطريقَ لنظريّات المُؤامرة كمحفِّز وكأداة شعبويّة.. تُغذّي هذه النظريّات إذن الخطابَ الشعبويَّ الذي يعزِّز المشاعر الرافضة للهجرة والعولمة، والذي يبشّر بإعادةِ تثبيت مجد الأمّة السابق...

إنّ الناسَ مختلفون في مدى اعتقادهم في صحّة نظريّات المُؤامرة. بعضُهم ينشط على «مواقع الويب المُتآمرة - conspiracy websites» ويفترض أنّ وراء كلّ ما يحدث في العالم مؤامرة، في حين أنّ آخرين يشكّكون في معظم نظريّات المُؤامرة ويميلون إلى رفضها.

هذا الاختلاف في الموقف يُثير سؤالاً: إذا كان هناك ميلٌ للاعتقاد في أنّ نظريّات المُؤامرة قد تطوَّرت من خلال الانتقاء الطبيعي أفلا ينبغي لنا جميعاً أن نصدقها بالقدر نفسه ؟

في الواقع، تُعَدُّ الاختلافاتُ الفرديّة شرطاً أساسيّاً لحدوث الانتخاب الطبيعيّ... ولكنَّ وعينا بأنّ نظريّاتِ المُؤامرة قد تطوَّرت لسببٍ وجيه في الماضي لا يعني أنه من المُستحسن الاعتقادُ في صحّتها في الوقت الحاضر... وبالتالي فإنّه مثلما يحثُّنا الأطباءُ اليوم على التغلُّب على شهيَّتنا المُتطوِّرة للسكر، يمكن أنْ يكون التحدِّي المستقبلي المهمّ هو التغلُّب على إرثنا التطوُّري الذي يدفعنا إلى الاعتقادِ في نظريّات المُؤامرة كلّما شعرنا بانعدامِ الأمن...

■ جان وليام فان برواجين*

□ **ترجمة:** رضا الأبيض

المصدر:

https://aeon.co/essays/how-conspiracy-theories-evolved-from-our-drive-for-survival

04-11-2019

*برواجين Jan-Willem van Prooijen أستاذ مشارك في علم النفس الاجتماعيّ والتنظيميّ بالجامعة الحرّة بأمستردام. ومحرّر مساعد في مجلّة Personality and Social Psychology Bulletin. من مؤلّفاته:

The Moral Punishment Instinct 2018، و The Psychology of Conspiracy Theories 2018..

مشروع جامعة كامبريدج

المُؤامَرة والديموقراطيّة

تعتبر النظريّات والاعتقادات حول المُؤامَرات سمةَ المجتمعاتِ الحديثة، إنها دليلٌ على حقيقةِ وجود المُؤامَرات في الماضي والحاضر. يُشير انتشار نظريّات المؤامَرة في القرن الحادي والعشرين إلى أنِ العديدَ من العوامل تعمل على إنتاجها، وأن دراستها توفر فرصاً لفهم كيف يفهمُ الناس العالمَ ويعطونه معنىً؟ وكيف تعمل المجتمعاتُ وتُحرِّك/تتحرَّك؟.. ما الذي يخبرنا به انتشار نظريّات المُؤامَرة في ما يخص الثّقة في المجتمعاتِ الديموقراطيّة، والاختلافاتِ بين الثقافات والمجتمعات؟ كيف تغيَّرت المُؤامَرات ونظريّة المُؤامَرة على مَرّ القرون؟ وما هي العلاقة بينهما إنْ وُجدت؟ هل ظهرت نظريّات المُؤامَرة في لحظاتٍ مُعيَّنة من التاريخ، ولماذا؟

على مدى خمس سنوات استكشفَ مشروعُ المُؤامَرة والديموقراطيّة[1] (C&D)، هذه الأسئلة وأسئلةً أخرى ذات الصّلة. لم يسعَ إلى كشفِ زيف نظريّات مؤامَرة مُعيَّنة، بل إلى توفير «تاريخ طبيعيّ» لنظريّة المُؤامَرة. وللقيام بذلك، جمع المشروع بين وجهات نظر المُؤرِّخين والمُنظِّرين السياسيين ومهندسيّ الإنترنت وغيرهم من التخصُّصات وأساليب التحقيق لإنتاج فهم أعمق وأكثر ثراءً لظاهرة رائعة ومحيّرة. سعت أعمالُ بحوثِ المشروع إلى تحديد طبيعةِ العلاقة بين المُؤامَرة والديموقراطيّة باعتماد تخصُّصات معرفية متعدِّدة ومبتكِرة تتناول جوانب مختلفةٍ ومتنوِّعةٍ. ولهذا الغرض تم إنشاء «مسارات بحث» لمُعالجة بعض الأسئلة الخاصّة بالضوابط والسماح بإجراء نقاشٍ مبتكر ومتعدِّد التخصُّصات في ما بين المُشاركين. نورد تلك المسارات كالآتي:

أوّلاً، تعريف ودراسة نظريّات المُؤامَرة والمُؤامَرات التي حدثت والترابط بينها، خاصّة منذ القرن الثامن عشر، في بريطانيا وأوروبا والولايات المتَّحدة الأميركية. يتساءل مسار البحث التاريخي عمّا إذا كان توسّع الفضاء العمومي وصعود الديموقراطيّة الجماهيرية منذ القرن الثامن عشر قد شجعا التحوُّل من ارتياب الحكومة في المُؤامَرات الشعبيّة إلى الشكّ الشعبيّ في مؤامَرات الحكومة، وإذا كان الأمر كذلك، فما السبب. تكلّف بهذا المبحث «ريتشارد إيفانز - Richard Evans»، الباحث الرئيسي (PI)، والباحثان: «راشيل ج. هوفمان - Rachel G. Hoffman» و«أندرو ماكنزي-ماكارج - Andrew McKenzie-McHarg».

ثانياً، يبحث مسار البحث النظريّ السياسيّ إسهام الفلاسفة في تحليل نظريّات المُؤامَرة وعلاقتها بالديموقراطيّة. بناءً على التساؤل إنْ كان يمكن الدفاع، من حيث المبدأ، عن نظريّات المُؤامَرة من الناحية الفلسفيّة. أنجز هذا البحث المدير الثاني لمشروع المُؤامَرة والديموقراطيّة «ديفيد رانسيمان - David Runciman»، «ألفريد مور - Alfred Moore» و«هوجو دروشون - Hugo Drochon».

ثالثاً، يتعلَّق هذا المسار ببحث نظريّة الإنترنت، إذ ينظر في تأثير الإنترنت على نظريّات المُؤامَرة. فيتساءل عن استحالة التحكُّم في الإنترنت وتوسيع/ إزالة جميع الضوابط الخاصّة بالتكاثر الهائل لنظريّات المُؤامَرة. إذا كان هذا هو الحال، ما هي الجهات الفاعلة المعنية وكيف تنتشر نظريّات المُؤامَرة في عالم الإنترنت؟ تكلَّف بالبحث المدير المساعد «جون نوتون - John Naughton» و«ثيودور هونج - Theodore Hong».

رابعاً، يهدف مسار أبحاث الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة إلى توسيع النطاقِ الجغرافيّ لعلاقة المُؤامَرة بالديموقراطيّة، ويغني مقاربتها المنهجية. يتساءل عمّا يمكن أن نتعلَّمه من الإثنوغرافيا المُفصَّلة لنظريّات المُؤامَرة المُحدّدة والمتداولة في الفترة المُعاصِرة. انخرط في هذا البحث «نانيكا ماثور - Nayanika Mathur» الذي يدرس نظريّات المُؤامَرة الناشئة عن إدخال بطاقات الهويّة الوطنيّة في الهند والمملكة المتَّحدة.

اجتذبت أحداث المشروع اهتماماً بالغاً من الأكاديميين ووسائل الإعلام وعامّة الناس، إذ تمَّت دعوة مدرائه إلى مجموعة من فعاليات التوعية العامّة لمناقشة المشروع من خلال وسائل الإعلام السمعيّة والبصريّة وخلال «مهرجان الأفكار»



اجتذبت أحداث المشروع اهتماماً بالغاً من الأكاديميين ووسائل الإعلام وعامّة الناس، إذ تمَّت دعوة مدرائه إلى مجموعة من فعاليات التوعية العامّة لمناقشة المشروع من خلال وسائل الإعلام السمعيّة والبصريّة وخلال «مهرجان الأفكار - The Festival of Ideas». أثارت جميع أنشطة المُشاركة العامّة اهتماماً واسعاً تراوح بين التعليقات من قِبل منظِّريّ نظريّة المُؤامَرة والدعوة إلى البرامج التليفزيونيّة(2). فمنذ بدايته أثار المشروع اهتمام الناس، إذ دأب الصحافيون والزوار والزملاء الأكاديميون والجمهور بانتظامٍ على وضع أسئلة مثل: ما تعريف نظريّة المُؤامَرة؟ ماذا اكتَشف الباحثون في المشروع؟ هل نظريّات المُؤامَرة سيئة للديموقراطيّة؟ هل تصرَّف لي هارفي أوزوالد بمفرده؟ ما الفرق بين المُؤامَرة وغيرها من أشكالِ العمل الجماعي مثل التواطؤ؟ ما الذي يجعل مؤامرة ناجحة؟...

خُصِّصَتْ الفترة ما بين 2013 و2015 لتعريف وتحديد نظريّة المُؤامَرة وتحليل بعض المُؤامَرات، ولم يتم تناول العلاقة بين المُؤامَرة والديموقراطيّة إلّا ابتداءً من شهر نوفمبر/تشرين الثاني 2015. خصّت المناقشات في البداية عبور الحدود الغامضة بين المُؤامَرة والخداع، أو بين قمع الحرّيّة من قِبل ديكتاتورية قد تكون أعمالها الداخلية سريّة لكن نواياها الفعلية واضحة للجميع، أياً كان ما تعلنه على الملأ (فالوعد «باستعادة الديموقراطيّة في أقرب وقتٍ ممكن» الذي قدّمه قادة الانقلابات العسكرية نادراً ما يخدع أيّ شخص). ثم شُرِعَ في النظر في أنواعٍ مختلفة من المُؤامَرات ومتغيِّرات فرعية لها.

يمكن تعريف المُؤامَرة قانونياً باعتبارها: «اتفاق بين شخصين أو أكثر على ارتكاب جريمة في المستقبل. قد يشترط القانون الجنائي في بعض البلدان، أو في بعض المُؤامَرات أن يكون هناك فعلٌ علنيٌّ واحدٌ على الأقلّ قد تحقَّق لتعزيز هذا الاتفاق ليشكِّل جريمة. لا يوجد حَدٌّ لعدد المُشتركين في المُؤامَرة، ولا يشترط، في معظم البلدان، اتخاذ أي خطوات لتنفيذ الخطة». وتعرَّف مدنياً: (يُشار إليها أحياناً بالتواطؤ) باعتبارها اتفاقاً بين أشخاص لخداع غيرهم، أو تضليلهم، أو الاحتيال على حقوقهم القانونيّة، أو للحصول على ميزة غير عادلة. أمّا سياسيّاً فتعني: تحدِّي مجموعة من الأشخاص بهدف الانقلاب أو الإطاحة بسُلطة سياسيّة قائمة.

وتعتبر نظريّة المُؤامَرة محاولةً لتفسير حدث أو سلسلة من الأحداث أو ظاهرة من نوع ما، كنتيجة لمؤامرة سريّة تهدف إلى حرمان الأشخاص من المالِ أو الحرّيّة أو السُّلطة أو المعرفة بشكلٍ غير قانوني. إنها شكلٌ من أشكالِ المعرفة البديلة التي تعتبر المعرفة التي ينتجها الخبراء في شأن أحداث غير موثوقة؛ تفترض نظريّات المُؤامَرة «مؤسَّسة» تنتج المعرفة «الرَّسميّة»، وغالباً ما يكون الدافع وراء ذلك هو إخفاء «الحقيقة» حول شيءٍ ما. غالباً ما يؤكِّد أولئك الذين يستنبطون نظريّات المُؤامَرة أن الأشخاص العاديين غافلون عن المعرفة «الرَّسميّة»، وأن المُنظِّرين وحدهم لديهم الحَقُّ في الوصولِ إلى الحقيقة.

هكذا تمثِّل نظريّة المُؤامَرة وسيلةً لفهم العالم، أي «تفسير مقترح لبعض الأحداث التاريخيّة (أو الأحداث) بلغة سببية دالة لمجموعةٍ صغيرةٍ من الأشخاص -المتآمرين- الذين يتصرَّفون سرًّا... تُوسم نظريّة المُؤامَرة بكونها «نظريّة»، لأنها تقدِّم تفسيراً للحدث المعني. إنها تقترح أسباباً لوقوع الحدث... (لا يلزم أن تدعي أن المُتآمرين جميعهم أقوياء، بل فقط أنهم لعبوا دوراً محورياً في وقوع هذا الحدث... في الواقع، نظراً لأن المُتآمرين ليسوا قادرين تماماً، فعليهم فعل ذلك سرًّا، فإذا تصرَّفوا في الأماكن العامّة، سيمنعهم الآخرون... [و] يجب أن تكون مجموعة المُتآمرين صغيرة، على الرغم من أن الحدود القصوى غامضةٌ بالضرورة».

عموماً يمكن تصنيف مواضيع جلسات النقاش والموائد المستديرة والمحاضرات المفتوحة التي تمّت خلال مشروع المُؤامَرة والديموقراطيّة إلى ثلاثة أنواع، يتعلّق النوع الأوّل بتعريف المُؤامَرة من خلال النظريّات المُتناولة وتحديد أوصافها ومميزاتها الإيجابية والسلبية؛ في حين يتعلّق النوع الثاني بعلاقات المُؤامَرة ونظريّات المُؤامَرة بالميادين المعرفية المُختلفة كعلم النفس، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، والفلسفة، والإعلام والإعلاميات، والأيديولوجيا، والعلم والأنظمة السياسيّة؛ ويتضمّن النوع الثالث الأمثلة التوضيحية أو التحليلية لنظريّة المُؤامَرة في مختلف أبعادها الإنسانيّة. وعليه تدخل ضمن النوع الأوّل العناوين البحثيّة الآتية:

1) التعريف: ما هي المُؤامَرة؟ ظهور «نظريّة المُؤامَرة»؛ المُؤامَرات الخام؟ مناخ المُؤامَرة؛ تدهور نظريّات المُؤامَرة، هل هذا صحيح؟ حول رذائل وفضائل نظريّات المُؤامَرة؛ ما هي مشكلة نظريّات المُؤامَرة؟ هل يجب أن تصعد المُؤامَرة دائماً مباشرةً إلى القمّة؟ نظريّات المُؤامَرة القديمة لا تموت أبداً، بل تتغيّر فقط مع العصر؛ تكافؤ فرص نظريّات مؤامرة؟ التآمر باعتباره حكامة؛ هل نظريّات المُؤامَرة للخاسرين تماماً؟ جماليات نظريّات المُؤامَرة؛ إدراك جمالية «مناهضة للحكومة»؛ مُنظّر المُؤامَرة يدخل صدمة الحكومة! بعد فواتِ الأوان وعيوبها (المحدثة)؛ هل يمكننا التمييز بين المُؤامَرات وأشكال العمل الجماعيّ الأخرى؟ قائمة الانتظار التآمرية؟ المُتهكمون ومنظرو المُؤامَرة؛ دليل الدمى لنظريّة المُؤامَرة؛ الكأس المسمومة لنظريّة المُؤامَرة المضادة للثورة؛ نظريّات المُؤامَرة بين الشكوك العَلمانية + الخلاص الديني؛ فجوات المعرفة: الأسس الحديثة المُبكِّرة؛ ظهور المذنب فيلا الغريب «يغطي» على بزوغ نظريّات مؤامَرة؛ نظريّات المُؤامَرة الأوروبيّة؛ مَنْ يؤمِنُ بنظريّات المُؤامَرة؟ كيف تدعم نظريّات المُؤامَرة ادّعاء الحقيقة؛ نهج حسابي للجدارة بالثقة؛ هل أنت جاد؟: قياس الاعتقاد في نظريّات المُؤامَرة؛ المُراقبة والتحقُّق من الحقائق؛ خريطة مؤشِّرات ترابط التعاليق؛ «الكذب في الظلام: القصص التي نرويها لإبقاء أنفسنا عقلانيين»؛ «الإنكار»: كيفية التعامل مع نظريّة المُؤامَرة في عصر «ما بعد الحقيقة».

2) العلاقات مع نظريّة المُؤامَرة: هل تهدّد نظريّات المُؤامَرة الديموقراطيّة؟ هل تتآمر الديموقراطيّة؟ نظريّات المُؤامَرة والمفاجآت والديموقراطيّة؛ كيف ترتبط نظريّات المُؤامَرة بالأنظمة غير الديموقراطيّة؟ الشيوعيّة والتآمر والمُراقبة؛ الدين ونظريّات المُؤامَرة؛ العلم والتآمر؛ العلم والتصوير المُعاد تدويره في نظريّات المُؤامَرة بعد 11 سبتمبر؛ المُؤامَرات التكنولوجيّة؛ كيف تنتشر الشائعات على الشبكات الإلكترونية؛ الصدف ونظريّات المُؤامَرة؛ علم نفس نظريّات المُؤامَرة؛ السلام مؤطّر في شكل مؤامرة؟ الشعوبيّة والحقيقة.

3) أمثلة توضيحية: منها: أكل البشر؛ ما حقّقه إدوارد سنودن حتى الآن؛ متى لا يكون الانقلاب انقلاباً؟ كلّ (نساء) رجال الرئيس؟؛ وفاة الدكتور ديفيد كيلي؛ رواية دون ديليلو «الميزان»؛ أغرب من الخيال: رجل المظلة واغتيال جون كنيدي؛ الأنطولوجيا المتوازية: حالة المبنى 7؛ 9/11 والأوساط الأكاديمية؛ «أسطورة الطعن في الظهر - Dolchstosslegende» البريطانية الجديدة؟ جون كنيدي وتراجع نظريّات المُؤامَرة؛ المُؤامَرات والتغطية والفشل: صيغة ووترغيت؛ وحيد القرن أو البنغلاديشي؟ نمط جنون العظمة لدى اليمين الهندوسي؛ لماذا نظريّات المُؤامَرة في أميركا ليست في تزايد رغم كلّ شيء؛ تغيُّر المناخ ونظريّة المُؤامَرة؛ المحافظون الأنجلو أميركيين والتهديد عبر الأطلسي؛ نظريّات المُؤامَرة الأميركية؛ إنكار الهولوكوست: نظريّة الأرض المسطّحة؟ نظريّات المُؤامَرة في فرنسا وإيطاليا؛ فيلم «المافيا والتآمر»؛ الأصوات المسروقة، الأشباح السريّة والنفط المخفي؛ بروتوكولات حكماء صهيون: الحقائق المحيطة بالخيال؛ بارانويا نظريّة المُؤامَرة في رواية مارك توين؛ «غثيان في نيويورك: مكتب الأبحاث الفيدرالي وجهاز الاستخبارات الأميركيين ضد ألبير كامي وسارتر»؛ أكبر قضية أرجنتينية؟ إذن ما الذي يكمن وراء هوس تخفيض العجز؟؛ السينما: عن الحكايات البرية والغضب والتآمر؛ المُؤامَرات الحقيقية والمُتخيَّلة في الثورة الفرنسيّة؛ «الشعبويين والتقنوقراط: الخصومة المفتوحة، الانتماءات الخفيّة»؛ كان هتلر والنازيون يحتلون مكاناً بارزاً في المخدرات - نظريّة عصر «الحقائق البديلة»؛ نظريّات المُؤامَرة ومُعاداة السامية...

■ يوسف تيبس

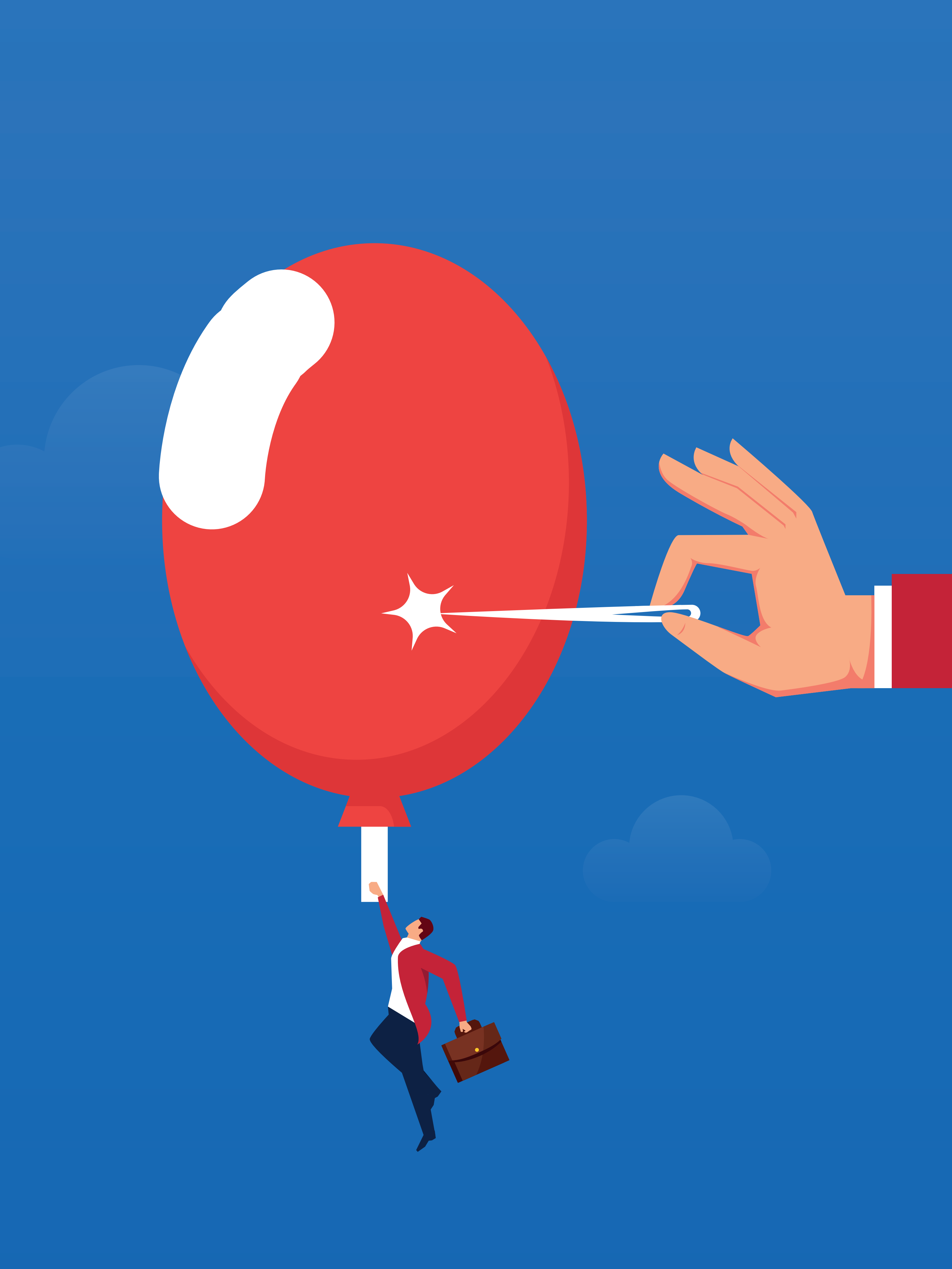


الهوامش:

1 - احتضنه مركز الأبحاث في الفنون والعلوم الاجتماعيّة والإنسانيّات (CRASSH) بجامعة كامبريدج ما بين 1 يناير 2013 ويونيو 2018، بدعم من منظّمة ليفيرهوم تراست (Trust Leverhulme).

2 - يمكن الاطلاع على مختلف الأنشطة التي أنجزها المُشاركون في المشروع على المُدوّنة الخاصة به من خلال الرابط:

http://www.conspiracyanddemocracy.org/blog/



تصوُّر المُؤامَرة العالميّة

أسطورة حديثة في مواجهة اللايقين

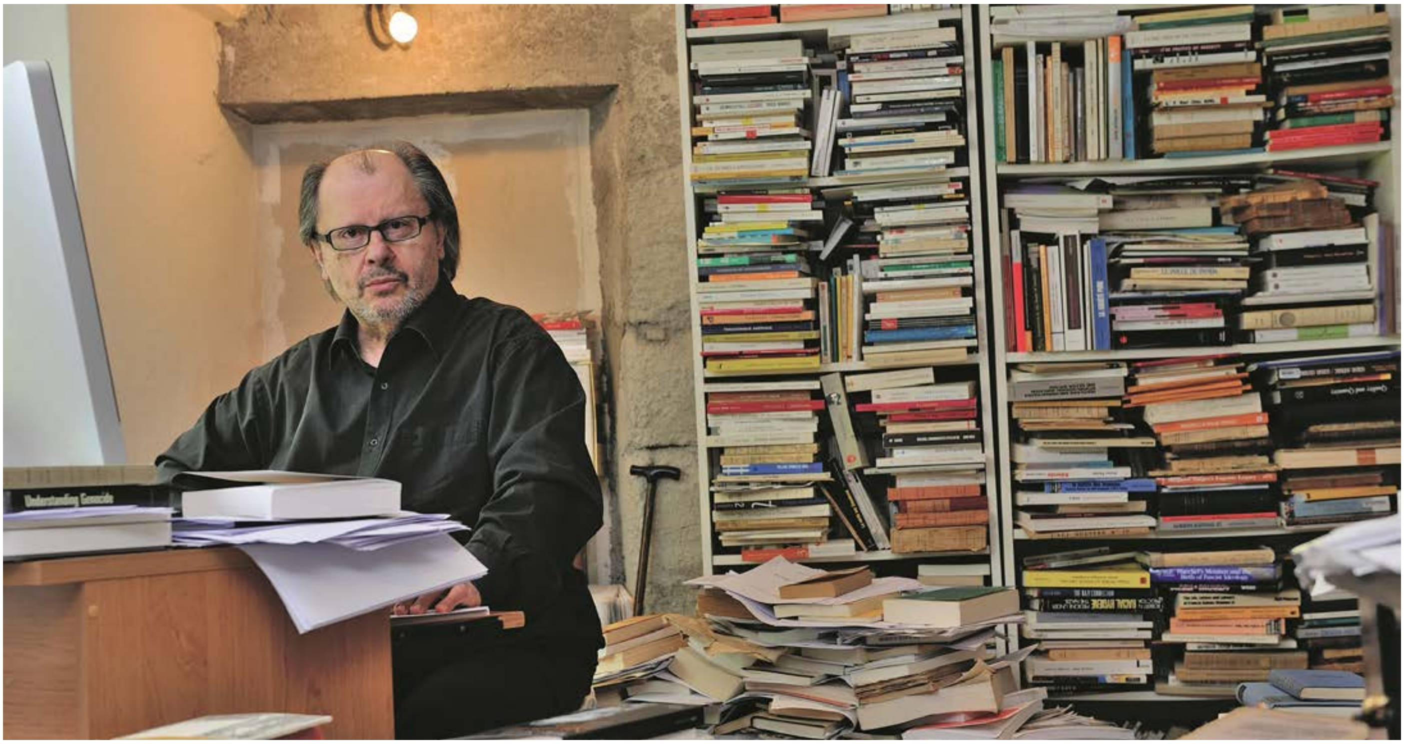
يمثِّل كتاب «تصوُّر المُؤامَرة العالميّة: عناصر أسطورة حديثة»[1] للمُؤرِّخ وعالم السياسة الفرنسيّ «بيير أندريه تغاييف - Pierre-André Taguieff» واحداً من أبرز الكتب الحديثة التي حلَّلت فكر المُؤامَرة في أبعاده السياسيّة، النفسيّة والاجتماعيّة ونظَّرت إليه كأسطورةٍ مُعاصرة مرتبطة بانهيار السرديّات الكبرى ضمن شرط ما بعد الحداثة وملاذاً «سهلاً» للانهزامية والمظلوميّة خلالَ العصر الرأسماليّ. فما هي الشروط الذاتيّة والموضوعيّة التي حوَّلت نظريّة المُؤامَرة إلى أسطورةٍ سياسيّة واجتماعيّة مُعاصرة؟ وأيّ انعكاسٍ لنسق أسطرة العالم على تطوُّر الفكر النقديّ؟ وما هي العوامل والسياقات المغذية لفَكر المُؤامَرة وفقاً لبيير أندريه تغاييف؟

في مقالٍ صدر لهما سنة 2011 بمجلّة «مجتمعات - Sociétés» الفرنسية[2]، أشار عالما الاجتماع الكوريان «بارك يونغ هو - Park Jung Ho» و«تشون سانج جين - Chun Sang Jin» إلى إمكانية انجرار علم الاجتماع النقديّ، المُمارَس منذ النصف الثاني من القرن الماضي، نحو فكر المُؤامَرة بالشكل الذي جعل النظريّة الاجتماعيّة محاكاة لنظريّة المُؤامَرة أو حول النظريّة السوسيولوجيّة إلى نظريّة سوسيولوجيّة للمؤامَرة[3] في ثوب نقد الهيمنة والمهيمنين. في الواقع، ووفقاً لمنطق اشتغال المعرفة العلميّة، تقترن نظريّة المُؤامَرة بمنطق الحسّ المشترك، إلّا أن سيطرة ما يسمِّيه بيير أندريه تغاييف «اليسارية الثقافيّة -[4] Le gauchisme culturel» على مجال إنتاج المعرفة السوسيولوجية قد نقل الممارسة العلميّة من مستوى تفسير واقع الهيمنة السياسيّة والاقتصاديّة إلى رهان الكشف عن القوى المهيمنة وفضحها، وبالتالي السقوط في فخ المعرفة العامّية[5] وتفسير النسق العام لإنتاج العالم الاجتماعيّ والاقتصاديّ من منظور نظريّة المُؤامَرة.



يدين علم الاجتماع النقديّ في شقٍّ كبيرٍ من ممارسته للنسق الماركسي الذي يربط الهيمنة بطبيعة البنيات السياسيّة والاقتصادية المُتحكِّمة في إنتاج العالم الاجتماعيّ، الأمر الذين جعله موضع نقاش كبير طيلة العقود الثلاثة الأخيرة. يشتغل علم الاجتماع النقديّ وفقاً لروح يسارية تربط إنتاج المعرفة بالرغبة في تغيير العالم الاجتماعيّ لصالح المهيمن عليهم والمضطهدين ما يسقطه في منطق القول بوجود أيادٍ خفيّة تحرِّك البنيات الفوقية. بما أن حقول العالم الاجتماعيّ تقوم على مبدأ الصِّراع الاجتماعيّ حول الرساميل والمصالح المختلفة، فإن الفاعلين في إنتاجها يلجؤون إلى استراتيجيات متنوِّعة لضمان الهيمنة الجماعية على المستويات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والفكريّة... تقوم على فكرة الجهل (التجهيل) بوجود قوة محرِّكة. بالنسبة لعالم الاجتماع الفرنسيّ «بيير بورديو - Pierre Bourdieu»، تكمن مهمَّة علم الاجتماع في إزعاج وفضح منطق لعب هذه الفئة المهيمنة. وبالتالي، لا يمكن تمثّل العالم الاجتماعيّ إلّا من خلال الوعي بالقوى المحرّكة؛ أي تمثّل الواقع الاجتماعيّ من خلال المُؤامَرة[6]!

لقد أفقد التركيز على منطق الحتمية، وهيمنة البنيات والارتهان بالنقد، معظم علوم الاجتماع



بيير أندريه تغاييف ▲

النقديّة شرعيتها العلمية والموضوعية من خلال تجاوز الدراسة العلمية لفكر المُؤامَرة إلى «الإيمان» بمركزيته في إنتاج العالم الاجتماعيّ، فيما يشبه عودة سحر المُؤامَرة والأسطورة ليهيمن على منطق الممارسة العلميّة. وأكثر من ذلك، ظلّت هذه التخصُّصات تسبح في فلك مطاردة الخيال والأشباح الماورائية للعالم الاجتماعيّ وغابت عنها النتائج العملية المركّزة على منطق فعل الفاعل وعقلنة السلوكات والتنظيمات الاجتماعيّة، ما حولها إلى تقليد لنظريّة المُؤامَرة في ثوبٍ أكاديمي ونقديّ بلغة بيير أندريه تغاييف[7]... وكأن الدفاع عن المظلومين والمُضطهدين مبرِّرٌ كافٍ للشرعنة العلمية للمؤامرات والأساطير المُعاصِرة.

في سنة 2006، أظهر مؤرِّخ الأفكار وعالم السياسة الفرنسيّ «بيير أندريه تغاييف» في كتابه المميّز «تصوُّر المُؤامَرة العالميّة: عناصر أسطورة حديثة» أن فكر المُؤامَرة تحوَّل إلى ما يُشبه عقيدة الخاسر والمُضطهد خلال العصر الحالي، وأضحت نظريّة المُؤامَرة تتغذّى على اللايقين لتطال مختلف جوانب الحياة الإنسانيّة بحثاً عن تفسير الأحداث والوقائع العصية على الفهم (دون العودة إلى المعرفة العلميّة). بهذا المعنى، نكون أمام أسطورة مُعاصِرة لازمت تحوُّلات شرط ما بعد الحداثة وسيادة اللايقين والتشكيك في الذات، العقل، المؤسَّسات والعالم. في حقيقة الأمر، يرفض تغاييف القول بمصطلح «نظريّة المُؤامَرة» (معرفياً)، لأننا أمام طريقة تفكير وعقلية قريبة إلى البارانويا الجمعية تُنسب إلى موضوع يريد الفرد استبعاده ونوع من القص المفسّر والمضلّل في الآن نفسه لأحداثٍ صادمة أو غير مفسّرة وغير مقبولة[8]. وفقاً لهذا المنظور، يمكن إدراج فكر المُؤامَرة في خانة الأساطير وتاريخ الأفكار الملازمة لتاريخ البشريّة أكثر من القول بكونه نظريّة قائمة على أسس عقلية أو موضوعية.

بالإضافة إلى نقده لوهن الممارسة السياسية المُعاصِرة وتربّص فكر المُؤامَرة بشروط إنتاجها، انجرار الفكر النقديّ نحو الدفاع عن فكر المُؤامَرة ونقله من مجال الحسّ المشترك نحو مجال الممارسة العلميّة وإيجاد بعض كبار مفكِّري العصر في المُؤامَرة مناسبة لتفسير نظريّاتهم وأفكارهم المختلفة حول الهيمنة والسيطرة العالميّة (بورديو، تشومسكي...)، يقدِّم بيير أندريه تغاييف خمسة سياقات وعوامل ووضعيات مفسّرة لتحوُّل المُؤامَرة إلى أسطورةٍ سياسيّة خلال العصر الراهن[9]:

- أوّلاً، تعدُّدية المجال العام والانفتاح على آراء الأَقلّيّات، المعتقدات المُهمّشة، الأوهام والأساطير وما يفرضه ذلك من قبول للاختلاف وتنوُّع في الآراء وانفتاح على الآخر. بطبيعة الحال، يتعلَّق الأمر هنا بقيم سياسيّة وإنسانيّة سامية تتماشى ورهان التنوير وعقلنة الحياة العامّة، لكن حينما نتحدَّث عن منطق قبول واحترامِ أي قول كيفما كان وفقاً لمبدأ «لما لا» فذلك سيقودنا حتماً نحو سيادة منطق الشعبوية وانبعاث فكر المُؤامَرة.

- ثانياً، إغراءات النسبية الراديكالية والانخراط في عصر الشكّ واللايقين الكوني. في سياق انهيار السرديّات الكبرى، انتشرت «عدمية معرفيّة تجرِّد مفهوم الحقيقة من معانيه»، بلغة تغاييف، في شكل ثقافة شعبيّة كونية تستند إلى الثورة الرَّقميّة ومقولات النسبية من أجل تبرير فكر المُؤامَرة بإيعاز من العلوم الاجتماعيّة. لقد انتقلت البشرية خلال العقود الأربعة الأخيرة نحو منطق القول بالتفسيرات عوض التركيز على الحقائق وتحوَّلت هذه الأخيرة إلى ما يشبه المُعتقدات النسبية القابلة للتزوير والتلاعب في أي زمانٍ ومكانٍ؛ وكأن لكلّ

واحد حقيقته الخاصّة، الأمر الذي يفتح المجال أمام مناخٍ جديدة من العدمية تعزِّز فكر المُؤامَرة في اتِّجاهٍ كوني.

- ثالثاً، تأثير الثورة الرَّقميّة والمعلوماتيّة في سرعة انتشار وتداول الأفكار والمعلومات. أضحت المعلومات والأخبار الزائفة أو الحقيقيّة تنتشر بسرعةٍ كبيرة تسبق الحدث نفسه، في حين أن تحديد الحقائق والتأكّد منها يتطلَّب وقتاً كبيراً. نتيجة لهذا، تأتي عملية النقد متأخِّرة عن الحقيقة ولا يتم اللجوء إليها إلّا بعد انتشار الأخبار الزائفة والخاطئة والتسليم بها على نطاقٍ واسع، الأمر الذي يحوِّل الثورة الرَّقميّة إلى عامل مساعد على أسطرة فكر المُؤامَرة وشعبويّة الحقيقة في عالم الأنفوسفير.

- رابعاً، انتشار المعلومات غير المُنظَّمة أو المُتسلسلة. من الطبيعي أن يترافق التضخم في المعلومات والأخبار مع القلق واللايقين إزاء معاني ودلالات وحدود الحقيقة. يقترح تغاييف المعادلة التالية لتفسير هذا الوضع: كلّما قدَّمت وسائل الإعلام مزيداً من المعلومات، زاد عدد المستهلكين الذين «يفترضون» أن المهيمنين يخفون عنهم المعلومات «الحقيقية». بهذا المعنى، يشتغل فكر المُؤامَرة في نطاق «المناطق الرمادية» (أي الأسئلة والقضايا التي لم يتم الإجابة عنها) والرغبة في الشفافية والبحث عن الحقيقة، من خلال مناشدة طريق الغموض وإطلاق العنان للخيال الجمعيّ والشعبويّ الذي يتغذَّى على الخوف الجماهيري من الخديعة وغياب الحقيقة.

- خامساً، التوافق بين منطق اشتغال الإعلام المُعاصِر والرهانات السياسيّة والاقتصاديّة العامّة. يميل دعاة المُؤامَرة إلى الاعتقاد بأن المعلومات الحقيقيّة لم تعد مرتبطة بالإعلام «الرَّسميّ» بقدر ما أضحت مقترنة بالعالم الرَّقميّ المفتوح والحرّ، بالشكل الذي حوَّل بعض رموز فكر المُؤامَرة إلى «مقاومين شعبيين» للتضليل العام، وباحثين عن الحقيقة الغائبة وأبطالٍ في مغامرةٍ عظيمة هي بالضرورة إحياء للأسطورة في صورتها العصريّة.

لذلك، يجب الانتباه إلى أن فكر المُؤامَرة هو صناعة فكريّة وأيديولوجيّة مرتبطة بالنخب المُثقَّفة، أكثر ممّا هو نتيجة تاريخيّة لتحوُّلات الحسّ المشترك، التي وجدت في هذه الأسطورة ملاذاً لتفسير ما لا يقبل التفسير ونصّبت نفسها وصية على المعنى والوجود والحقيقة في العصر الرَّقميّ.

كما أن هناك مَنْ يسعى لخداع الناس، هناك مَنْ هم على استعداد للانخداع بسهولة، يذكرنا نيكولا ماكيافيل. لقد تحوَّل الشكّ من أجل بلوغ الحقيقة إلى شكّ من أجل الشكّ يهدِّد قروناً وقروناً من التراكمات الفكريّة والعلميّة لصالح أساطير تتغذَّى على شكّنا وخوفنا ومشاعرنا الإنسانيّة واللايقين الذي نعايشه في عصر الثورة الحضريّة والصناعيّة. لهذا، أصبح الاعتقاد بأن «الحقيقة موجودة في مكانٍ آخر وخفي» دليلاً واضحاً على الانجرار نحو المُؤامَرة والتضليل والتشكيك في الحقيقة نفسها.

ختاماً، إننا في هذا الصدد لا ننفي إمكانية وجود مؤامَرات ملازمة لتاريخ البشريّة (فاشلة أو ناجحة)، كما يذكّرنا بيير أندريه تغاييف نفسه، لكننا نرفض كذلك إدراج المُؤامَرة في خانة النظريّات العلمويّة والأيدولوجيّة المؤطرة لمنطق تفاعلنا مع حقيقة ذواتنا، الآخرين، الطبيعة والعالم. بالإضافة إلى هذا، لا يعني ربط فكر المُؤامَرة بالعلوم الاجتماعيّة النقديّة أن هذه الأخيرة تتوافق ونظريّة المُؤامَرة، وإنما يمثِّل دليلاً على كون المنحى الذي اتخذه علم الاجتماع النقديّ للكشف عن الشروط الموضوعيّة لإنتاج الهيمنة وعملها قد أسقطه في إعادة السحر إلى هذه الأسطورة عوضاً عن دراسة الشروط الموضوعية لعملها. لهذا، ما مِن حلّ لهذه الوضعية سوى الاعتراف باختراق فكر المُؤامَرة للحقل الأكاديمي كما مجال الحسّ المشترك، البحث عن الشروط الكفيلة بالحدِّ من الظاهرة بتغليب كفّة العلمية على مختلف الحسابات الأيديولوجية وتعزيز آليات التربية النقديّة الموضوعية الهادفة إلى حماية الأفراد والجماعات من خطر انتشار فكر المُؤامَرة ضمن عالم الأنفوسفير.

■ محمد الإدريسي

الهوامش:

1 - Pierre-André Taguieff, L'imaginaire du complot mondial, Aspects d'un mythe moderne, Paris, Mille et Une Nuits, 2006.

2 - Ho Park Jung, Jin Chun Sang, «La théorie du complot comme un simulacre de sciences sociales?», Sociétés, vol. 112, no. 2, 2011, pp. 147-161.

3 - ibid, p : 150.

4 - ibid.

5 - ibid, p : 151.

6 - ibid.

7 - Pierre-André Taguieff, L'imaginaire du complot mondial, ibid, pp : 12-19.

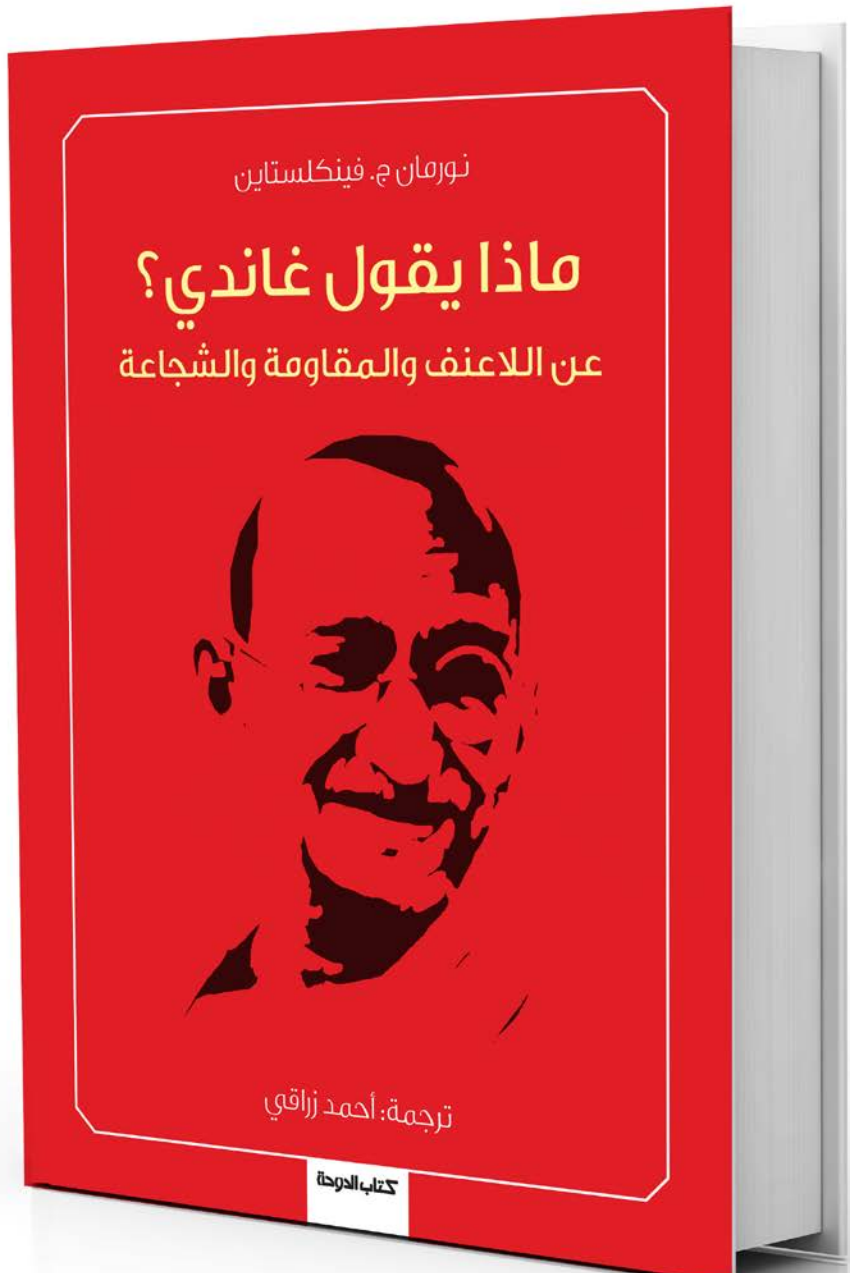
8 - Pierre-André Taguieff, Réflexions sur la pensée conspirationniste, revue raison pratique, 2016.

9 - ibid.



صدر في

كتاب الدوحة

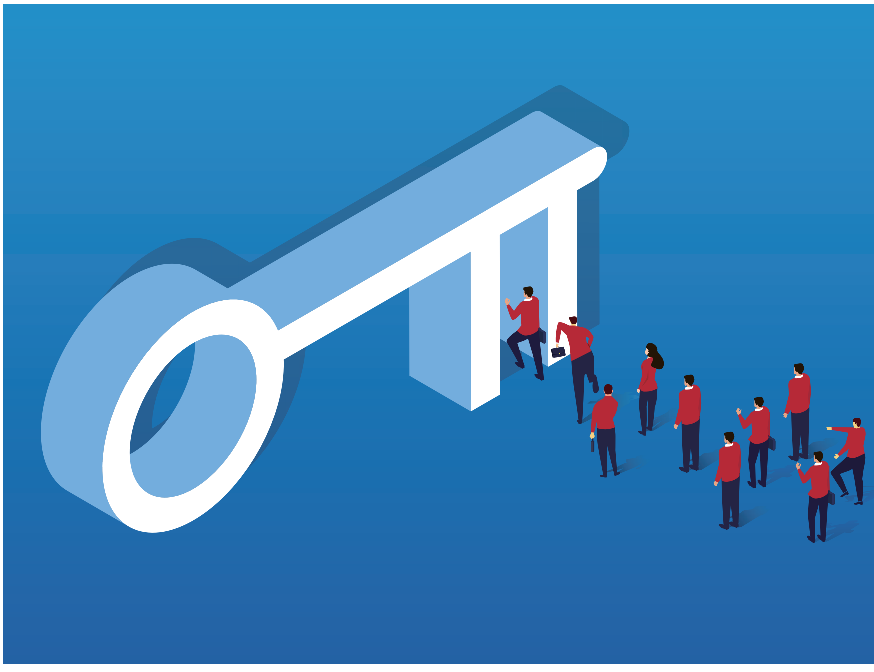


المسكوت عنه في سردية التآمر

أدخلت المجتمعات العربيّة في متاهات وأنفاقٍ مُرْعِبَة. وهي متاهات تروم توقيف طموحات النهضة العربيّة، وهي في تصوُّرنا ليست مجرَّد نتيجة لمُؤامَرات خارجية، قدر ما تعتبر فِعلاً نساهم جميعاً في منحه الملامح العامّة التي يتَّسم بها..

مَنْ يتآمر على مَنْ؟

يجري في كثير من مقالات الرأي في الإعلام العربيّ، التي تتَّجه لتشخيص أنماط الصِّراع السياسيّ القائمة في عالمنا العربيّ وفي العالم أجمع، كثير من الإعلاء من نظريّة المُؤامَرة ومنحها القدرة على تفسير مختلف أشكال الصِّراع الدائرة في العالم. كما تقوم بعض الأبحاث والدراسات السياسيّة والاستراتيجيّة المُتعلِّقة بالعالم العربيّ، بتعميم منطق المُؤامَرة، منطلقة من أن الظواهر والأحداث الجارية اليوم، تُعَدُّ نتيجة لسلسلة من المُؤامَرات التي تروم تفجير المجتمع العربيّ والإطاحة بأنظمته



السياسيّة. ويقوم الذين يستخدمون مفردة المُؤامَرة كمفتاح للفهم والتفسير بالسكوت مقابل ذلك، عن الأسماء الكاملة للمُتآمرين والسكوت أيضاً، عن أسماء مَنْ تآمروا معهم، والاكتفاء بآليات في التعميم دون سند أو إثبات. فيتحوَّل التاريخ والصِّراع السياسيّ داخله إلى مجموعة من الألغاز.

تتخذ نظريّة المُؤامَرة في بعض الكتابات والتقارير صفة الشرط القادر على تفسير كلّ ما هو معقَّد وغامض، في مختلف أوجه آليات الصِّراع الجارية في المنطقة العربيّة، حيث يرى أصحاب التاريخ المُؤامَراتي أن كلّ ما حصل ويحصل بالأمس واليوم في عالمنا، يُعَدُّ نتيجة حتمية لتدبير مُقَدَّرٍ ومرتَّب سلفاً. إن انفجارات الميادين العربيّة مثلاً، وقد شملت سنة 2011 مجموعة من البلدان العربيّة، تُعَدُّ في نظرهم نتيجة تدبير جهاتٍ أجنبية. وقد حصلت ويتواصل حضورها مستهدفة تخريب المجتمع والدولة وإشاعة الفتنة. لا يلتفت راوي سردية المُؤامَرة إلى سياقات وشروط الحدث في أبعادها المُعقَّدة والمُركَّبة، ولا إلى مختلف التداعيات والدروس المستفادة من كلّ ما حصل، بل يكتفي بترديد حكاية المُؤامَرة متصوِّراً أنه وضع أصبعه على السرِّ المكنون.

يمكن أن نشير إلى أن نظريّة المُؤامَرة تُخْفِي مواقف وأسئلة أخرى، حيث يتم السكوت عن الأطراف المُتواطئة في فعل وأفعال التآمر، كما يتم السكوت عن التحوُّلات التي تقع بعد حصول التآمر، ويتم السكوت كذلك عن السياقات التي تلت الأفعال التي نُظِر إليها كأفعالٍ تآمرية، بحكم أن الذين يتحدَّثون عن المُؤامَرة يكتفون بالبدايات، أمّا الامتدادات



لا يلتفت راوي سردية المُؤامَرة إلى سياقات وشروط الحدث في أبعادها المُعقَّدة والمُركَّبة، ولا إلى مختلف التداعيات والدروس المستفادة من كلّ ما حصل، بل يكتفي بترديد حكاية المُؤامَرة متصوّراً أنه وضع أصبعه على السرّ المكنون

والتداعيات فلا تعود في ملكية المُدَبِّر الأوّل، بل تسقط في أيدي مدبرين آخرين! والمُؤامَرات في التاريخ لا تظلّ في ملكية مَنْ يدبِّرُها عند انطلاقها، بل تتحوَّل ضمن عمليّات تنفيذها إلى أحداثٍ بمواصفاتٍ أخرى تتجاوز ترتيبات التدبير الأوّل، لتصنع مساراتها الخاصّة في تفاعلٍ مع شروطها والشروط المحيطة بها.

نجحت الثورات المُضادَّة في المجتمعات العربيّة خلال السنوات الماضية في تعميم منطق المُؤامَرة، حيث عَمِلَتْ بقايا قِوَى الاستبداد والفساد في مجتمعاتنا على إشاعة جملةٍ من المعطيات في الإعلامين المرئي والمكتوب، وفي الوسائط الاجتماعيّة، مُدَّعِيَّة أن ما حصل ويحصل في السنوات الأخيرة في بلدان عربيّةٍ كثيرة يُعَدُّ نتيجة لمسلسل من التآمر الهادف إلى إنجاز عمليات انفراط لمُقوِّمات الاندماج الاجتماعيّ، فنصبح أمام مجتمعات تتحدَّث لغة المِلَل والنِّحَل، وتحلم بدولة الخلافة وفتوحاتها.

التآمر آلية من آليات الصِّراع

لا ننظر إلى المُؤامَرة والتآمر في التاريخ من زاوية أخلاقيّة، بل إننا ندرجها ضمن الآليات المُستخدَمة في أزمنة الصِّراع المتواصلة بين المجتمعات في التاريخ. ونعتبر أنها توظّف بصيغ وأشكال عديدة في أزمنة الحروب، إضافة إلى ذلك، نتصوَّر أن التآمر في التاريخ لا يتم كما أشرنا إلّا بحصول أشكالٍ من التواطؤ المُمَهِّدَة له، ومن هنا، الطابع المُركَّب للمُؤامَرة ومدبريها، ولمَنْ انطلت عليهم خيوطها.

إن التحوُّلات العالمية الطارئة في أشكال الصِّراع والحروب الجارية في أكثر من قارة وأكثر من جبهة في العالم، تبرز أن أنماط الحروب التي عرفها التاريخ تغيَّرت وتتغيَّر باستمرار. وأن أنماط الحرب بالوكالة وقد أصبحت اليوم علامة بارزة في كثيرٍ من بؤر الحرب والصِّراع الدائرة هنا وهناك، تقوم بتوظيف آليات ووسائط جديدة من قبيل ما نلاحظه في مسألة استخدام ميليشيات الإرهاب من طرف مختلف أطراف الصِّراع لترجيح خيارات سياسيّة وأخرى عسكريّة، بهدف إلحاق الضرر بالخصوم. وتُبَيِّن جوانب ممّا أشرنا إليه في صور الاتساع والتوسُّع الذي عرفته تداعيات الثورات العربيّة في المشرق العربيّ، انتعاش منطق الإرهاب في المستويين الإقليميّ والدوليّ وفي المحيط العربيّ، وذلك بعد التوسُّع الذي ارتبط بموضوع «داعش» في كلٍّ من العراق وسوريا وليبيا، والتدخُّل السوفياتي، ثم المواقف الإيرانية والتركية في كلّ ما حصل في سوريا، ثم مواقف التيار السعودي الإماراتي في مواجهة الحوثيين



في اليمن، وحزب الله، وكلّ الأحداث التي تلاحقت بعد ذلك، أدخلت المجتمعات العربيّة في متاهات وأنفاقٍ مُرْعِبَة. وهي متاهات تروم توقيف طموحات النهضة العربيّة وهي في تصوُّرنا ليست مجرَّد نتيجة لمُؤامَرات خارجية، قدر ما تعتبر فعلاً نساهم جميعاً في منحه الملامح العامّة التي يتَّسم بها.

التآمر والمتاهات العربيّة

لم يكتفِ الذين ابتكروا المحتوى الجديد لمفهوم المُؤامَرة وعملوا على تعميمه بتحديد وضبط العناصر التي أشرنا إليها، بل ذهبوا أبعد من ذلك، حيث تحوَّلت النَّزعات الطائفية والنُّزوعَات الجهادية إلى مجموعة من البُؤَر الْمُعدَّة في إطار برنامج تآمري شامل، يتوخَّى في نظر الفئات المُدبِّرة لِمَا حصل، نشر الخراب في الحواضر العربيّة ثم الاستيلاء عليها وعلى خيراتها، وتقسيمها بعد ذلك بين قِوَى الشَّرّ العالمية، القادمة من عالم لا علاقة له بأخلاق الرحمة التي يؤمنون بها. وقد اتخذ الموقف التآمُري في البداية، صورة موقف رافض لكلّ ما حصل في الميادين العربيّة، حيث خرج الشباب العربيّ لتلتحق به بعد ذلك الفئات المُهَمَّشَة في المدن العربيّة، كما يحصل عادةً في كثير من الثورات التي عرفها التاريخ. إلّا أن أصحاب التاريخ المُؤامَراتي، يرون أن كلّ ما حصل يُعَدُّ نتيجة حتمية لتدبير مُقَدَّر ومُرَتَّب سلفاً.

وإذا كان حدث الانفجارات التي عَمَّت العديد من البلدان العربيّة سنة 2011 قد اتخذ ملامح جديدة، مُوَاكِبة لمختلف صور تطوُّره ومختلف التفاعلات التي صاحبته إقليميّاً ودوليّاً، الأمر الذي ساهم في تحويل جوانب من مساراته وانعكس على موضوع المُؤامَرة، لِيَتَّخِذ ملامح مختلطة يصعب فرزها، فأصبح لغط المُؤامَرة وسط كلّ الصعوبات والعوائق التي تولَّدت في قلب الحدث، مقترناً بالموقف من الثورات وما خلَّفته من نتائج في مختلف البلدان العربيّة. تواطأت أنظمة وبقايا أنظمة وقِوَى إقليميّة ودوليّة لإقرار مبدأ المُؤامَرة، والسكوت عن الآفاق التي فتحها المشروع الثوريّ أمام المجتمعات العربيّة. وبحكم التعثُّر الناشئ في قلب التداعيات التي حصلت، والناشئ أيضاً لنقصٍ ملحوظٍ في تمرس نخبنا السياسيّة بآليات التوافق الديموقراطيّ في الأطوار الانتقاليّة في التاريخ، فإن مَنْ يُنَظِّرُون اليوم للفعل المُؤامَراتيّ يتَّجهون لمزيد من محاصرة ما لا يمكن محاصرتُه، نقصد بذلك، الفعل الثوريّ ومآثره حتى عندما يحاصر.

يمكن أن نستعمل مجازات أخرى لتوصيف الحال العربيّ، من قبيل إبراز صور تلاطم الأمواج مشرقاً ومغرباً، حيث تهب الريح لتدفع الأشقاء في اتجاهات متناقضة، تدفعهم إلى علاقات غير محسوبة العواقب مع القِوَى الدوليّة والإقليميّة، كما تدفعهم إلى حروب بالوكالة وإلى تخندقات تنسيهم مآلاتهم المُوجعة، في العراق وسوريا واليمن وليبيا وفي فلسطين قبل ذلك وبعده، حيث تحصل العجائب والغرائب باسم المصلحة والتاريخ، باسم التَّبَعِيَّة والوَهَن، وباسم المُؤامَرات والتآمر وعَمَى البصر والبصيرة. فمتى نوقف هبوب الرياح العاتية؟ بل مَنْ يملك اليوم القدرة على إيقافها؟

■ كمال عبد اللطيف



▲طه حسين

طه حسين عن قرب..
ذكريات شخصيّة

كانت هذه هي المرّة الأولى التي أدخل فيها بيت أديب كبير، باستثناء شقّة يحيى حقّي التي كانت جميلة وبسيطة، ولكنها مليئة بالكتب، أيضاً، وشقّة يوسف إدريس المترفة، والتي لم يكن فيها كثير من الكتب. أمّا بيت طه حسين، فهو (فيلّا) باذخة ذات حديقة واسعة، لاحظت جمالها والاعتناء بها، وأنا أدور حول البيت قبل دخوله، ذكّرتني بالقصور التي كنّا نراها في الأفلام السينمائية لأحمد بدرخان.



صبري حافظ

بمناسبة حلول الذكرى الثلاثين بعد المئة، لميلاد عميد الأدب العربي (15 نوفمبر، 1889 -28 أكتوبر، 1973) في الشهر الماضي، دون أن يحتفل الواقع الثقافي بهذه الذكرى المهمّة، احتفالاً يليق بها، أعود، هنا، إلى الذكريات الشخصية التي جمعتني بتلك القامة العملاقة، التي أحسب، الآن وقد مَرَّ بنا كلّ ما مَرّ، أنني كنت محظوظاً حينما حظيت بتلك اللقاءات القليلة معه. خاصّة وأنني التقيت به ثلاث مرّات، لاتزال كلّ منها محفورة في ذاكرتي وكأنها حدثت بالأمس. والواقع أنني، حينما أستعيد سنوات الشباب الأولى في الستّينيات، أشعر بأنني كنت محظوظاً، حينما تعرَّفت، في شرخ الشباب، على جلّ كُتّاب مصر الكبار، وقتها؛ من توفيق الحكيم، ويحيى حقّي، حتى نجيب محفوظ، ويوسف إدريس، وفتحي غانم، ومحمود البدوي، وسعد مكّاوي، وغيرهم، وتعلّمت منهم الكثير. وتعدَّدت لقاءاتي بهم عشرات، بل مئات المرّات. لكنني لم ألتقِ بطه حسين إلّا ثلاث مرّات.

فقد قدمت من قريتي، بعد إكمال الثانوية العامّة في مدرسة قويسنا الثانوية، إلى القاهرة، لأتوجَّه -مباشرةً- إلى ندوة نجيب محفوظ التي كانت تعقد في «كازينو أوبرا»، صباح كلّ جمعة. كنت قد اكتشفت أعمال محفوظ الأولى، في مكتبة المدرسة الثانوية، التي كان نهمي للقراءة فيها، قد دفع المدرّس المسؤول عنها إلى تكليفي بدور في تنظيمها والإشراف عليها. وكان لمكتبة المدرسة تلك فضل تخريجي من مدرسة كلٍّ من أرسين لوبين، وشرلوك هولمز، والروايات البوليسية، إلى مدرسة محمود كامل ومحمود تيمور. لكن اكتشافي لـ (زقاق المدق) وأعمال نجيب محفوظ الثلاثة التي كانت في مكتبة المدرسة، فتنني وجعلني أبحث عن أعماله، وأتتبّع أخباره، فعرفت بنبأ ندوته الأسبوعية المفتوحة. كان محفوظ قد فرغ من الثلاثية، وأنفق سنوات عديدة في تأمُّل التغيُّرات الجديدة، قبل أن يكتب (أولاد حارتنا) التي تابعتها في عامي الأوَّل من التردُّد على ندوته.. أقول كان اكتشافي له، هو الذي دفعني إلى التوجُّه لندوته، قبل أن أتوجَّه إلى قاعات دراستي الجامعية.

وقد فتحت هذه الندوة عالماً كاملاً وساحراً لشابّ طُلعة، لم يبلغ العشرين بعد. فيها تعرَّفت إلى أكثر أبناء جيلي من الذين عُرِفوا، فيما بعد، باسم جيل الستينيات، من كتّاب وشعراء، وعلى غيرهم ممَّن سبقونا إلى الكتابة بجيل أو جيلين، وكان عدد كبير منهم يتردَّد على ندوة نجيب محفوظ تلك. وصحبني عدد منهم إلى ندوات أخرى، كانت تعجّ بها القاهرة في ذلك الوقت، من مطالع الستينيات، وتنظّم ندواتها الأسبوعية في أمسيات مختلفة. كانت هناك «رابطة الأدب الحديث»، التي كانت تتردَّد في قاعاتها، أصداء صولات محمود أمين العالم وجولاته فيها، قبل اختفائه القسري وراء القضبان، عام 1959، وكان هناك «نادي القصّة»، الذي سعى يوسف السباعي لاستقطاب أعلام جيله من الكتّاب فيه، وكانت هناك «الجمعية الأدبية المصرية» التي تضمّ جيلاً أكثر شباباً من الناشطين في الرابطة والنادي، وكان أبرز أعلامها صلاح عبدالصبور، كما كانت هناك «جمعية الأمناء» التي تمحورت حول

شخصية أمين الخولي الآسرة، بالصورة التي كانت تجعل القاهرة، لشابّ قادم من أعماق ريف المنوفية، تبدو وكأنها محفل أدبي يوميّ مترع بالمعارف، وتنوُّع المشارب والاتِّجاهات، ولا يكفّ عن الجدل والنقاش اليومي حولها. بل إنني، وبعد حياة طويلة في المؤسَّسة الجامعية الغربية، بمحاضراتها ومؤتمراتها، أستطيع القول بأن ما كان يدور في تلك المحافل، كلّ أسبوع، لا يقلّ جدِّيةً وعمقاً عمّا تنظِّمه كثير من تلك الجامعات، وإن تفوق عليها بأن من كانوا يتردَّدون عليها كانوا يفعلون ذلك بدافع فردي حقيقي للمعرفة، وليس من أجل الحصول على مؤهَّل دراسي.



وما إن بدأت الكتابة في الصفحة الأدبية لجريدة (المساء)، وملحقها الأسبوعي، وكان يشرف عليهما رائد كبير ذو بصيرة ثاقبة، هو عبدالفتاح الجمل، ثم بعدها في مجلّة (الآداب) البيروتية التي كان يرأس تحريرها سهيل إدريس، حتى استقطبني كبير آخر، هو يحيى حقّي، للعمل معه في مجلّة (المجلّة)، منذ عام 1963. لهذا كلّه، أتيح لي أن أتعرَّف، شخصياً، سواء في ندوة نجيب محفوظ، أو في الصفحة الأدبية بـ(المساء)، ومكتب عبدالفتّاح الجمل المفتوح في صالة دورها العلوي الفسيحة، أو فيما أودّ أن أسمّيه (صالون يحيى حقّي)، في مكتبه بمجلّة (المجلّة)، كلّ كتّابنا؛ الكبار منهم والشبّان. وحينما شاركت، عام 1970، عام ترك يحيى حقّي لمجلّة (المجلّة) مُكرهاً، في تأسيس الملحق الأدبي لمجلّة (الطليعة) التي كانت تصدر من مؤسَّسة (الأهرام)، أتاح لي العمل فيها التردُّد، يوميّاً، على صالون أدبي آخر هو مكتب توفيق الحكيم في الدور السادس في مبنى (الأهرام). وهكذا، اكتملت معرفتي الحميمة بكلّ كُتّاب مصر الذين قرأت جلّ أعمالهم، وأنا لازلت في بداية الشباب، باستثناء طه حسين، وعبّاس محمود العقّاد.



كان أوَّلهما قد اعتزل العمل العام وحتى التدريس في الجامعة، حينما وفدت إلى القاهرة، وكان ثانيهما لايزال يعقد صالونه الشهير، صباح كلّ جمعة، وفي الوقت نفسه الذي كانت تنعقد فيه ندوة نجيب محفوظ. وكان هناك، من أصدقاء الشباب، شاعر تقليدي من جيلنا، هو الحسّاني حسن عبدالله، من المقرَّبين ليحيى حقّي في (المجلّة)، من مريدي العقّاد والمتردِّدين على صالونه، بانتظام. وقد حاول أكثر من مرّة إغرائي بالذهاب معه، ولكن لم تكن لديّ أيّ رغبة، بعد كلّ ما قرأت للعقّاد، وسمعت عنه، في الذهاب إليه أو حضور صالونه، برغم إغراءات الحسّاني، والغياب عن ندوة نجيب محفوظ التي تعُقَد في الوقت نفسه؛ لأنني كنت فكرياً وموقفياً ضد ما آل إليه أمر العقاد في تلك المرحلة. ولم تطل مقاومتي التي لم تستغرق أكثر من عام بعد معرفتي بالحسّاني، إذ سرعان ما غادر العقّاد نفسه عالمنا، وإن كان الحسّاني قد أخذني إلى بيته، قبل أن تتبدَّد مكتبته.

لكن ظلّت لديَّ رغبة حقيقية في التعرَّف، عن قرب، إلى طه حسين، ولم يكن هذا بالأمر اليسير. وحينما انتقلت، قُبَيل النكسة، عام 1966، للعمل موظَّفاً في «المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية»، منَّيْت النفس بأنني سأراه، عن كثب، في الاجتماع السنوي للمجلس، والذي كنت أسمع، من الزملاء، عن صولاته وجولاته فيه. لكن ضربة النكسة المصريّة ألغت هذا الاجتماع، وما إن عاد للانعقاد، بعدها، حتى كان طه حسين قد أقعده المرض، وقرَّر الاكتفاء



منزل طه حسين▲

برئاسة لجنة واحدة من لجان المجلس كانت تجتمع مرّة أو مرَّتَيْن في السنة، في بيته «رامتان»، في حيّ الهرم. عندها، قرَّرت العمل، بدأب وإصرار، على الانتقال من الإدارة التي أعمل فيها في المجلس، إلى تلك التي تنظِّم أعمال اللجان، وخاصّةً اللجنة التي يرأسها طه حسين، والقيام بدور سكرتير تلك اللجنة؛ كي تتاح لي، ليس -فقط- فرصة رؤيته، بل فرصة زيارة بيته، أيضاً.

وكان «المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية»، وقتها، هيئة مستقلّة تابعة لرئاسة الجمهورية، ولم يكن مجرَّد مؤسَّسة تابعة لوزارة الثّقافة، كما أصبح الآن، خلفه، «المجلس الأعلى للثّقافة»، والذي أحالته فترة سيطرة فاروق حسني على مقدرات الثّقافة المصريّة، وإدارة جابر عصفور له، إلى أداة لتدجين المثقّفين، وإدخالهم إلى الحظيرة، بحسب تعبيره الأثير. وكان أعضاء المجلس، وقتها، من كبار مثقّفي مصر، المشهود لهم بالمصداقية والنزاهة واستقلال الرأي مثل طه حسين، وعباس محمود العقّاد، ويحيى حقّي، ونجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، ومحمود تيمور، وزكي نجيب محمود، وعبدالرحمن الشرقاوي، وحسين فوزي، وسليمان حزين، ومحمد عوض محمد، وعائشة عبدالرحمن، وأضرابهم. وكان هذا المجلس يجتمع، مرّةً أو مرَّتَيْن في العام. وكان الموظفون الذين سبقوني للعمل - والذين يقومون بوظائف السكرتارية المختلفة لتلك الاجتماعات - يروون الكثير عن صولات هؤلاء الكبار، ومقاومتهم لمحاولات الدولة المختلفة (وكانت، وقتها، دولة عبدالناصر) للتدخُّل في أمور الثّقافة أو التأثير عليها.

ولمّا انتقلت، عام 1966، للعمل في سكرتارية «المجلس» الدائمة، والتي كان يرأسها السكرتير العامّ للمجلس، وقتها، يوسف السباعي، مَنَّيت نفسي بأنه ستتاح لي فرصة رؤية طه حسين، وهو يمارس دوره الثّقافي في اجتماع المجلس القادم. لكن الظروف السيِّئة أدَّت إلى اعتقالي، في أكتوبر، 1966، وقبل اجتماع «المجلس الأعلى» السنوي بأسابيع، فحُرِمت من رؤية طه حسين في آخر اجتماع حضره في مقرّ مبنى السكرتارية الدائمة للمجلس، لأن النكسة وقعت بعد شهرين من الإفراج عني، وعودتي للعمل، عام 1967، وتوقَّف بعدها المجلس عن الانعقاد، لأكثر من عامين، تدهورت فيهما صحّة طه حسين، فلم يحضر جلساته حينما عاد المجلس للانعقاد، عام 1970. ومع أنه لم يعد قادراً على الحضور إلى مبنى سكرتارية المجلس، بحيّ الزمالك، وسط القاهرة، في جلساته السنوية العامّة، لم يتخَلَّ عن رئاسته لواحدة من لجانه المهمّة، وهي لجنة جوائز الدولة التي تجتمع مرّة واحدة في السنة، لتقرِّر ما هي الفروع التي ستُقَدَّم فيها جوائز الدولة التشجيعية، كلّ

عام، في مجالاتها الثلاثة: من الآداب، والفنون، والعلوم الاجتماعية؛ حيث لم يكن يعلن عن جميع الجوائز، كلّ عام. وكانت اللجنة تنعقد في بيته، ولابدّ أن يحضرها أحد موظّفي سكرتارية «المجلس» ليسجّل المحضر، ويجلبه إلى الإدارة، في اليوم التالي، وكأن اللجنة انعقدت في مبنى المجلس، وبحضور أحد موظّفيه كبقيّة اللجان الأخرى.

وكان رئيس إدارة اللجان، هو من يقوم بسكرتارية هذه اللجنة، ليس لأهمِّيّتها، فحسب، ولكن، أيضاً، لأهمِّيّة رئيسها، وما يترتَّب على ما تقرِّره من إجراءات. وحاولت إقناع رئيس إدارة اللجان بأن يترك لي سكرتارية هذه اللجنة، مع أنني كنت أرفض القيام بهذا العمل، بالنسبة إلى لجان المجلس المختلفة. ووافق بعد إلحاح شديد، لأنه وجد في حماسي الشديد للقيام بهذا العمل تخفُّفاً من عبأين: عبء العمل في المساء، لأنها كانت تجتمع مساءً، وعبء الذهاب إلى حَيّ الهرم البعيد، حيث بيت طه حسين الشهير (رامتان) الذي تجتمع فيه.

لكنه كان حريصاً على أن ينبهني إلى عدّة أمور: أوَّلها أهمِّيّة هذه اللجنة، وأهمِّيّة رئيسها طه حسين، وهو أمر لم أكن في حاجة إلى من ينبِّهني إليه، فوعيي بأهمِّيّته هو دافعي الأوَّل كي أقترب منه، وأتعلَّم منه. وثانيها ضرورة الذهاب، مبكِّراً، وقبل موعد الاجتماع بربع ساعة، على الأقلّ. وثالثها أن آخذ معي جدول أعمال الجلسة، الذي دُعِي الأعضاء، وفقاً له، إلى هذا الاجتماع، ومحضر اجتماع الجلسة السابقة. والواقع أنني درست الأمر جيِّداً، وقرأت محاضر اجتماعات السنوات السابقة، لا محضر الجلسة السابقة وحدها، فاكتشفت أنها مصاغة بعناية بالغة، ومكتوبة بلغة صافية سلسة، ضاعفت من إحساسي بفداحة المسؤولية التي سعيت تطوُّعاً إلى تحمُّلها.

ومع أنني كنت أسكن في حَيّ المنيل، ولم تكن الرحلة إلى حَيّ الهرم بأتوبيس النقل العامّ، وقتها، تستغرق أكثر من عشرين دقيقة، فقد خرجت قبل الموعد بساعة. ووصلت إلى الشارع الذي يقع فيه البيت الجميل مبكِّراً جدّاً، وكانت المنطقة شديدة الاختلاف عمّا هي عليه الآن. منطقة هادئة مليئة ببيوت تحيطها حدائق واسعة كبيرة مليئة بالأشجار. وكان أهمّ ما يشغلني، وقتها، هو كيف سأخاطب طه حسين: هل أقول له: «يا سيادة الدكتور»، أم «يا سعادة البك»؟. وكنت أسمع، وقتها، وطوال سنوات من عملي، إلى جوار أستاذنا الكبير يحيى حقّي، أنه يستخدم لقب «البك»، حينما يريد التبجيل، فقرَّرت استخدامهما معه. وقبل الموعد بعشرين دقيقة، اقتربت من البيت، وضغطت على الجرس، ففتح لي سكرتيره، فريد شحاتة، فعرّفته بنفسي، وكان ينتظرني، وينتظر هذا الاجتماع، فأدخلني إلى غرفة مكتب فسيحة ومحاطة جدرانها، جميعاً، بالكتب.

كانت هذه هي المرّة الأولى التي أدخل فيها بيت أديب كبير، باستثناء شقّة يحيى حقّي التي كانت جميلة وبسيطة، ولكنها مليئة بالكتب، أيضاً، وشقّة يوسف إدريس المترفة، والتي لم يكن فيها كثير من الكتب. أمّا بيت طه حسين، فهو (فيلّا) باذخة، ذات حديقة واسعة، لاحظت جمالها والاعتناء بها وأنا أدور حول البيت، قبل دخوله،

كانت هذه هي المرّة الأولى التي أدخل فيها بيت أديب كبير، باستثناء شقّة يحيى حقّي التي كانت جميلة وبسيطة، ولكنها مليئة بالكتب، أيضاً، وشقّة يوسف إدريس المترفة، والتي لم يكن فيها كثير من الكتب. أمّا بيت طه حسين، فهو (فيلّا) باذخة، ذات حديقة واسعة، لاحظت جمالها والاعتناء بها وأنا أدور حول البيت، قبل دخوله، ذكَّرتني بالقصور التي كنّا نراها في الأفلام السينمائية لأحمد بدرخان



طه حسين بجوار مكتبته في المنزل

ذكَّرتني بالقصور التي كنّا نراها في الأفلام السينمائية لأحمد بدرخان. فإذا كانت شقّة يحيى حقّي تتميّز بالتوازن الجميل بين المكتبات المليئة بالكتب، ولوحات كبار الفنّانين المصريين المعروضة على الجدران، فإن بيت طه حسين كان مختلفاً، ينطق بالبذخ والثراء والذوق الأوروبي الرفيع. أخذت أدير نظراتي في حجرة جلوسه الواسعة، وجدرانه المكسوّة بالمكتبات والصور، وأرضه المغطّاة بالسجاجيد الفاخرة والأرائك الوثيرة، بينما كانت النافذة المفتوحة على الحديقة تتيح، لخضرتها، أن تكون جزءاً من المشهد، قبل أن يوشّحها الظلام. وعرض عليّ فريد شحاتة القهوة أو السجائر، فرفضتهما بأدب، شاكراً، ولكنه أصرَّ، وجاءني بقهوة.

وما هي إلّا دقائق قليلة، وقُبَيل ربع ساعة من موعد الاجتماع، حتى جاءت السيِّدة «سوزان»، زوجة الدكتور طه حسين، به، وكان يتَّكئ عليها في طريقه إلينا، فوقف فريد شحاته، ووقفتُ معه، وقد هلّ علينا الرجل الذي طالما تمنَّيت رؤيته. كان -برغم انحناء ظهره- قليلاً طويلاً مهيباً، وبلا «كرش»، مع تقدُّمه في العمر. وكان في كامل أناقته، بحلّة كاملة، وربطة عنق أنيقة، وإن كان يتَّكئ عليها، وهي تقوده إلى كرسي بعينه، أجلسته عليه، وغطَّت ساقيه ببطّانية صغيرة أنيقة، مع أن الجوّ لم يكن بارداً. ووضعت يديه فوقها، فلاحظت بدايات تشنُّج أصابع يديه، وقتها. وما إن جلس حتى هرعت إليه مسلِّماً عليه، ومقدِّماً له نفسي، منادياً إيّاه بـ«يا سعادة البك»، ثم تركته زوجته، وانصرفت. وبادر الدكتور طه حسين فريد، بالعربيّة الفصحى: هل قدَّمت قهوة للأستاذ، يا فريد؟، فأجاب بنعم، فعاجله: وهل قدَّمت سجائر للأستاذ، يا فريد؟ فردَّ عليه بأنني لا أدخن. بعدها، طلب منّي طه حسين أن أقرأ عليه جدول أعمال الجلسة التي جئت من أجلها، ففعلت. وما إن انتهيت منه حتى طلب منّي ألّا أدوّن شيئاً في أثناء الجلسة، وقال إنه سوف يملي عليّ محضر الجلسة بعد نهايتها، وانصراف أعضاء اللجنة. فتنهَّدت الصعداء، وأدركت، في سريرتي، السرّ في بلاغة محاضر الجلسات السابقة التي قرأتها قبل حضوري، وإن حرصت على أن أدوّن بعض الملاحظات في ركني البعيد، لعلّي أحتاجها، مطمئناً نفسي بأن الدكتور طه حسين لن يراني. وكان أوَّل مَنْ قَدِم، من أعضاء اللجنة، الدكتور مهدي علّام الذي توجَّه إليه بـ«يا معالي الباشا»، فأحسست بالخجل الشديد لأنني تصوَّرت، في غفلتي، أن سعادة «البك» التي بادرته بها، هي أرفع لقب ممكن. وسَلَّم عليه، وقبّل يده، فازددت ارتباكاً، وانزواءً في مقعدي البعيد. وأعقبته الدكتورة سهير القلماوي التي نادته باللقب نفسه «يا معالي الباشا»، وقبّلت هي الأخرى يده، واستبقى الدكتور طه يدها بين يديه، وهو يتحسَّسها بودّ، فقد كانت ابنته، بأكثر من معيار. وكان تقبيلها ليده قد جعلني أزداد ارتباكاً. لكن ما خفَّف شيئاً من ارتباكي، بعدها، أن الدكتور محمَّد عوض محمَّد، والدكتور سليمان حزين -برغم أنهما ناداه، أيضاً



طه حسين وزوجته سوزان▲

بـ«معالي الباشا»- لم يقبِّلا يده. ومع أنني نشأت في الريف، حيث يقبِّل الأدنى يد من هو أعلى منه سنّاً أو مقاماً، فقد ربّاني أبي على ألّا أقبِّل يد أحد سواه، لكنه حرَّرني من واجب تقبيل يده، قبل أن أشبّ عن الطوق.

وسرعان ما تحوَّل اللقاء، ودائرته تزداد اتِّساعاً، حتى اكتمل أعضاء اللجنة، إلى لقاء للجدل فيما يدور في الواقع الثّقافي، وقتها، من أخبار، وكانت ثمّة أنباء عن محنة تبديد مكتبة عبّاس محمود العقاد، وبيعها، والتصرُّف في شقَّته التي أراد مالكها استردادها؛ وهو الأمر الذي انزعج منه طه حسين كثيراً، وذكّر المشاركين بالكثير من التفاصيل حول حياة العقّاد، ومَنْ ربَّاهم من أسرته، ثم عجزوا عن الحفاظ على مكتبته. أكان يشعر أو يحدس بما سيجري لمكتبته هو، بعد عقد واحد من الزمان؟ وكان أكثر ما لفت انتباهي هو أن طه حسين، وهو من جيل جدّي الذي وُلِد، هو الآخر، في عام ميلاد طه حسين (1889)، يتحدَّث مثله، ويموضع كلّ شخص في قلب خريطة علاقاته الاجتماعية الواسعة: مَنْ تزوَّجَ؟ ومَنْ صاهر؟ وماذا جرى لأبنائه؟ ومن أخلص له؟ ومن تنكَّر له؟... إلى آخر هذه الشبكة الاجتماعية، التي يرتدّ، عبرها، الشخص وكأنه يتجسَّد، أمام المستمع، حيَّاً وعارياً من كلّ زخارفه.

وطال هذا الحديث العذب، الذي لم أكن أريد له أن ينتهي، مع أنه استغرق أكثر من ساعة. فقد كان يفتح أمامي أبواباً من المعرفة، لم تُتَح لي في الندوات الثّقافيّة، ولا حتى في القراءات المختلفة لأعمال طه حسين، أو حتى لأعمال عدد من تلامذته الذين كانوا أعضاء في هذه اللجنة. فماذا جرى للاجتماع، ومحضره؟ هذا ما سنعرفه في المقال القادم. (يتبع)

الأدب الجنوبسوداني المكتوب باللّغة العربيّة

ذهبوا كأجساد..

عندما غادر الجنوبيون دولة السودان في العام 2011، إثر الاستفتاء الذي أنهى حرباً حامية الوطيس طويلة، استمرَّت زهاء ربع القرن من الزمان، كان ضحيَّتها الآلاف من أبناء الوطن الواحد، حملوا معهم ذاكرتهم المشحونة باللّغة والأرض والقيم والجمال، المشحونة، أيضاً، بمأساة الحرب الطويلة والنزوح والموت والدمار، المشحونة بليل البلاد الكبيرة، ونهاراتها. ذهبوا، كأجساد، فقط، و بقيت الفكرة في وعاء اللّغات؛ ذلك الوسيط ذي المواعين الشاسعة، الذي يحوي الشعر والرواية والقصّة.

عندما خامرتني فكرة تقديم ملف عن الأدب في جنوب السودان، كنت أفكِّر في تلك الوشائج التي لا يكمن أن تنقطع مابين الشعبين، التي تتمثَّل في الوجدان المشترك. وبالاستعانة بتجربة الصحافي والشاعر أتيم سايمون، استطعنا أن نقدِّم لقراء مجلّة «الدوحة» هذه القطرات من بحار السرد والشعر في الجنوب، التي يصعب سبر أغوارها.

■ عبد العزيز بركة ساكن



■ الأعمال الفنيّةفي هذا الملف: راشد دياب (السودان)

الخروج من منطقة الظلّ

تبقى الكتابة بالعربيّة، اختيار جيل تلقّى تعليمه بالعربيّة، ولا يعرف لغة أخرى غيرها، جيل مهموم بالتواصل مع قرّاء العربيّة، وبإيصال رسالته الثقافية، خاصّة أنه بسبب غياب المنابر الأدبية والدراسات النقدية المهتمة بمتابعة المنجز الإبداعي، تبقى العديد من تجارب السرد الجديدة في جنوب السودان في منطقة الظلّ.

تمثِّل تجربة الكتابة الإبداعية والأدبية، في جنوب السودان، واحدة من الدروب الشائكة والصعبة؛ ذلك للتباين الكبير في تجربة مختلف الأجيال، بجانب شحّ الكتابات النقدية والتوثيقية التي تعقب المنتوج الأدبي بأجياله المختلفة، والتي تعود، في بداياتها، إلى جيل الروّاد الأوائل من الذين كتبوا بالإنجليزية، وتركَّزَ اهتمامهم، في الكتابة، على الحرب وما ترتَّب عليها من ويلات سياسية، أبرزهم الشاعر والأديب البروفيسور «تعبان لوليون» المولود في العام 1938، حيث صدرت له أكثر من تسعة أعمال، تتراوح بين الشعر والقصّة القصيرة، أوَّلها ديوان «الكلمة الأخيرة» الصادر سنة 1969. يليه القاصّ «جونسون ميان» (1942)، الذي صدرت له مجموعة شعرية من مطبعة النيل في جوبا، سنة 1981، وله قصّة قصيرة مستلهمة من الحكاية الشعبية للدينكا، تَمَّ تحويلها إلى مسرحية مشهورة حملت اسم «محاكمة السمكة الكبرى»، وكذلك الشاعر «سر أناي كليولجانق» (1999-1954) صاحب ديوان «وهم الحرِّيّة وقصائد أخرى» الصادر سنة 1985. وظهر من بعدهم الدكتور «فرانسيس مدينق دينق» (1938)، الذي صدرت له روايتان مشهورتان: الأولى بعنوان «طائر الشؤم»، والثانية «بذرة الخلاص» وقد تمَّت ترجمتهما إلى العربيّة، بواسطة مركز الدراسات السودانية، كما ظهرت أسماء منها «أتيم ياك أتيم»، و«أقنيس فوني لاكو»، و«جاكوب جيل أكول»، في مجال كتابة القصّة القصيرة، حيث نُشِرت أعمالهم في العديد من الدوريّات والمجلّات، أبرزها مجلّة «سودان ناو» التي كانت تصدر في الخرطوم في ثمانينيّات القرن الماضي. وخلال تلك الفترة، صدرت في الخرطوم المجموعات الشعرية: «قرع طبول السلام» لـ«فكتور لوقالا»، «خمسة دقائق» لـ«سلفاتور إبراهيم»، «ضحايا الحماقات» و«الحفريات»، والمجموعة القصصية «مغامرات كينجي»، لـ«إزاريا قيلو ايميليو»، كما صدرت لـ«جوزيف ابوك» مجموعة شعرية.

وخلال فترة الحرب الأهلية الثانية (1983 - 2005)، برزت مجموعة من الأعمال الشعرية لكتّاب، منهم «باقان أموم أوكيج»، و«لورنس كوربندي»، الذين صدرت أعمالهم باللّغة الإسبانية، كما أصدر «إدوارد لينو» ديوانه الأوّل بعنوان «عاشت القرود» عن دار «رفيقي للنشر» بالعاصمة جوبا، والدكتور «جون قاي يوه» الذي صدرت له ثلاث مجموعات شعرية، إلى جانب القاصّ والشاعر «موسس أكول أجاوين» الذي نشرت له مجموعة من الأعمال في الصحف السيّارة، والمجلّات الإلكترونية .

فيما يتعلَّق بالأدب الجنوبسوداني المكتوب باللّغة العربيّة، يمثِّل ذلك الأدب تجربة للجيل الذي عاش في المدن السودانية، وترعرع فيها خلال فترة الحرب الأهلية السودانية التي امتدَّت لأكثر من العقدين من الزمان، وقد برزت أصوات جديدة من جيل الشباب، تحكي أوجاع الحرب والهجرة والنزوح كما عاشها جيل الآباء والأمّهات، من بينهم «آرثر قبريال ياك»، وهو قاصّ وروائي، صدرت له مجموعة قصصية بعنوان «لا يهمّ فأنت من هناك» ، كما صدرت له روايتان: الأولى بعنوان «يوم انتحار عزرائيل» عن دار «العين»، وهي رواية فائزة بجائزة «آفاق» للكتابة، كما صدرت له مؤخَّراً روايته الثانية «سبرانو القيامة» عن دار «مسكلياني» في تونس، في هذا العام. وهناك، أيضاً، «إستيلا قايتانو»، وهي كاتبة قصّة قصيرة وروائية، صدرت لها ثلاث مجموعات قصصية: «زهور ذابلة»، و«العودة»، و«الطائر الجميل المتواضع» وهي عبارة عن قصص قصيرة للاطفال، ولها رواية صادرة عن دار «رفيقي»، بعنوان «أرواح ادو». وعن سبب اختيارها للعربيّة لغةً للكتابة، تقول «قايتانو»: «لأن اللّغة العربيّة هي اللغة الرسمية في الدولة؛ لذا وجدنا أنفسنا ننهل منها في مراحل التعليم العديدة العامّة.. من ثَمَّ أصبحت

يمثّل الأدب الجنوبسوداني المكتوب باللّغة العربيّة تجربة للجيل الذي عاش في المدن السودانية، وترعرع فيها خلال فترة الحرب الأهلية السودانية التي امتدّت لأكثر من العقدين من الزمان

هي لغة الاطّلاع، وتلقّي المعرفة، ولم يكن متاحاً لي معرفة لغة أخرى إلّا في المراحل الجامعية، وهذا يكفي لأتّخذها لغة كتابة، على الأقلّ، حتى الآن».

وترى «قايتانو» أن الكتابة باللّغة العربيّة، في جنوب السودان، قد تعيق انتشار المنتوج الإبداعي، رغم أن أغلب الأجيال الشبابية تتحدَّث بالعربيّة وتقرأ بها، وتكتب بها، وقد فطنت لذلك بأن ترجمت جميع أعمالها إلى اللّغة الإنجليزية التي أصبحت منافسة للعربيّة، بوصفها لغة تلقّي بالنسبة إلى الاجيال الناشئة.

خلال تلك الحقبة، ظهرت، أيضاً، كتابات القاصّ والشاعر والروائي «بوي جون أوانق»، الذي صدرت له روايتان: الأولى بعنوان «جنّة الخفافيش» عن دار «الساقي»، وهي رواية فائزة بمنحة «آفاق» للكتابة، كما صدرت روايته الثانية «كوميان» عن دار «رفيقي للنشر»، في العام 2017، وله مجموعة قصصية بعنوان «مرافعة الثعلب»، صدرت عن دار «الجزائر تقرأ».

وحول اختيار العربيّة كلغة للكتابة يقول بوي جون: «إن الجغرافيا التي جعلت السودان الكبير على تخوم لغة الضادّ، هي التي جعلت أمثالنا من أهل تلك التخوم يكتبون بها. والتاريخ الذي جعل من السودان، ذات يوم، دولة واحدة بحروب لا تنتهي إلّا لتبدأ.. هو الذي جعل أمثالنا نحن - ضحايا تلك الحروب- نكتب باللّغة العربيّة. إذن، هو أمر قرَّره التاريخ، فمَنْ أنا لأبدِّل أحكامه؟». وإشكالات الكتابة بالعربيّة، عند الأديب «بوي جون»، تأتي، دائماً، من الافتراض؛ من افتراض كون «الكاتب يحمل رسالة ما، من افتراض أنه يريد أن يقول شيئاً ليسمعه الأخرون، ومن أنه حدَّد لنفسه قرّاءً مفترضين». ويضيف في تبريره: «أنا لم أواجه، أبداً، إشكالات؛ لأنني لم أفترض أيّاً ممّا سبق. مع ذلك، أقول إن الكتابة في بلدٍ مثل الجنوب متعدِّد الألسن، مع حالة تكاد تكون فريدة، وهي عدم استخدام أيّ منها كوسيط للكتابة، مسألة إشكالية وشائكة في حَدّ ذاتها».

ومن أوائل الأسماء التي ظهرت في مجال الكتابة الشعرية باللّغة العربيّة، في جنوب السودان، نجد الشاعر «قرنق توماس ضل»، الذي صدرت له مجموعتان شعريَّتان عن دار مدارك للنشر في العاصمة السودانية الخرطوم، هما: «سفر المرايا وسيرة القبلات»، وله مجموعة شعرية جديدة بعنوان «اليهم في النقر الحميم»، تحت الطبع.

في مرافعته عن الأسباب التي قادته للكتابة باللّغة العربيّة، يقول الشاعر «قرنق توماس ضل»: «أكتب باللّغة العربيّة لأنها اللّغة التي تشافهت عليها مع العوالم حولي، وأنا صغير، وهي التي تلقَّيت بها تعليمي الابتدائي، والمتوسِّط، والعالي.. وهي اللّغة السائدة، لاحقاً، في نزوحنا العظيم إلى بلادنا الشمالية.. أكتب بالعربيّة لأن أولى العلاقات الإبداعية الكتابية كانت بالعربيّة، وحتى تلك التي كتبتها باللغات العالمية الأخرى كانت مترجمة إلى العربيّة، فالأساس المعرفي الإبداعي والكتابي الخاصّ بي، كان بالعربيّة، حيث لا مهرب من الكتابة بها». ويرى «توماس ضل» أن ضبابية تكتنف مستقبل اللّغة العربيّة، في جنوب السودان، وأن العربيّة، بعدما خرجت من المناهج، ومن دواوين الدولة التي تستخدم الإنجليزية، بصفتها لغة رسمية، أصبحت متداولة، فقط، في الأسواق وفي صدور الأجيال التي تلقَّت تعليمها في الخرطوم وفي الجنوب القديم وفي مصر، وليبيا، وسوريا...

برزت، أيضاً، أصوات شعرية جديدة، من بينها «نيالاو حسن ايول»، صاحبة ديوان «قرابين نيكانغ» الصادر عن دار «رفيقي للنشر»، عام 2017، و«ريجويس أستانسلاوس»، و«الدو ديمو»، و«سايمون أبراهام» الذي يكتب القصّة القصيرة، أيضاً، و«أكول ميان» كوال صاحب ديوان «انتظار» الصادر في القاهرة، في العام 2017.

■ **اتيم سايمون**



سياق: مسرح كواتو

بين العربيّة والعامِّيّة

ظلّ الأدب الجنوب سوداني يُنتج، لوقت طويل، باللغات المحلِّية، (ولايزال)، ثم بعد دخول الإنجليز للسودان، في العام 1898، وبعد سنوات من إعلان الجنوب منطقة مقفولة، في العام 1922، بدأ الأدب الجنوب سوداني المكتوب باللّغة الإنجليزية في الظهور. في مرحلة تاريخية لاحقة، وبسبب الحرب والنزوح نحو الشمال، ظهر أدب جنوب سوداني مكتوب باللّغة العربيّة.

يُعَرِّف هذا المقال بـ«مسرح كواتو»، بوصفه أنموذجاً للأدب الجنوب سوداني الذي اتَّخَذ من اللّغة العربيّة وسيطاً للتعبير والإبداع الأدبيَّيْن، كما يمثِّل ترجمة حرّة وانتقائية لأجزاء تتعلَّق بموضوعنا، من دراسة طويلة للسيِّدة «كاثرين ميلر»، وهي باحثة فرنسية مختصّة في علم اللّغة الاجتماعي للُّغة العربيّة، في السودان ومصر، نشرتها تحت اسم «بعض ملامح الإبداع الفنّي والأدبي الجنوب السوداني في جوبا، وفي الدياسبورا»، في العدد (28) من مجلّة «الدراسات الأدبية الإفريقية» (باللّغة الفرنسية).

عقب انهيار اتِّفاقية أديس أبابا للسلام، في جنوب السودان، اندلعت الحرب الأهلية، مرّةً أخرى، في العام 1983؛ ما دفع بأكثر من مليونَيْ جنوبي للنزوح شمالاً، واستقرار معظمهم في العاصمة الخرطوم. ورغم الظروف الاجتماعية، والاقتصادية القاسية التي كان يعيش تحت كنفها هؤلاء الجنوبيون، بدأت أصوات أدبية وفنِّية في البروز من بينهم، على سطح المشهد الثقافي السوداني.

تمثِّل «جماعة كواتو» المسرحية الصوت الأدبي والفنّي الأبرز للمسرح الجنوب السوداني، خلال الفترة الممتدّة من العام 1984 إلى العام 2011. أنشئت هذه الجماعة المسرحية في العام 1994، في الخرطوم، بواسطة السماني لوال، وألفريد ديريك، وهما من المتخرِّجين في معهد الموسيقى والدراما في الخرطوم، وستيفن أوشالا، ونيكولا فرانسيس، وضمَّت الفرقة خمسةً وأربعين ممثِّلًا يمثِّلون ثماني عشرة إثنيّة جنوبية. تختلط في عروض كواتو، الأغنيات المكتوبة باللُّغات الجنوبية المحلّيّة والمسرحيّات المكتوبة باللّغة العربيّة السائدة في جنوب السودان (عربي جوبا)، وباللّغة العربيّة المستخدمة في شمال السودان (عامِّيّة الخرطوم)، وكانت أنشطة الجماعة تتوزَّع بين الأنشطة الفنِّيّة والأنشطة الاجتماعية، والسياسية؛ بهدف ترقية الوحدة الوطنية في جنوب السودان، ورفع الوعي الثقافي بين النازحين الجنوبيِّين، ومحاربة الانقسامات القبلية وسط الجنوبيين، وتقديم عروض مسرحية قصيرة لتوعية النازحين بمخاطر مرض الإيدز، مثلاً.

كانت العروض الفنِّيّة لكواتو، تقتصر، عند بداية تأسيسها، على معسكرات النازحين الجنوبيين الواقعة على أطراف الخرطوم بتمويل من الكنيسة، ولكن منذ العام 1998 أصبحت كواتو تحظى بشهرة واسعة في الخرطوم، وأصبحت تُدعى للاحتفالات الرسمية السودانية، وللفاعليّات التي تنظِّمها الأمم المتِّحدة والسفارات الأجنبية. وابتداءً من العام 2002، أنشأت الجماعة مركزاً ثقافياً يحمل اسمها، وبسبب التزامها بقضية النازحين حصلت الفرقة على دعم كبير من المؤسَّسات الدولية الناشطة وسط مجموعات النازحين؛ ما مكَّن الفرقة من استثمار الطاقات الفنِّية والإبداعية لأعضائها، على الوجه الأمثل، ونقل عروضها إلى المسارح العالمية حيث شاركت، مثلاً، في مهرجان قرطاج للمسرح، وقدَّمت عروضاً في كل من دبي، وبيروت، وشاركت في عروض في نيفاشا بكينيا، خلال

كانت العروض الفنّيّة لكواتو، تقتصر، عند بداية تأسيسها، على معسكرات النازحين الجنوبيين الواقعة على أطراف الخرطوم بتمويل من الكنيسة، ولكن منذ العام ١٩٩٨ أصبحت كواتو تحظى بشهرة واسعة في الخرطوم، وأصبحت تُدعى للاحتفالات الرسمية السودانية، وللفاعليّات التي تنظّمها الأمم المتّحدة والسفارات الأجنبية



تمثّل «جماعة كواتو» المسرحية الصوت الأدبي والفنّي الأبرز للمسرح الجنوب السوداني، خلال الفترة الممتدّة من العام 1984 إلى العام 2011. أنشئت هذه الجماعة المسرحية في العام 1994، في الخرطوم، بواسطة السماني لوال، وألفريد ديريك، وهما من المتخرّجين في معهد الموسيقى والدراما في الخرطوم، وستيفن أوشالا، ونيكولا فرانسيس، وضمَّت الفرقة خمسةً وأربعين ممثّلاً يمثّلون ثماني عشرة إثنيّة جنوبية

احتفالات توقيع اتّفاقية السلام الشامل في السودان، في العام 2005.

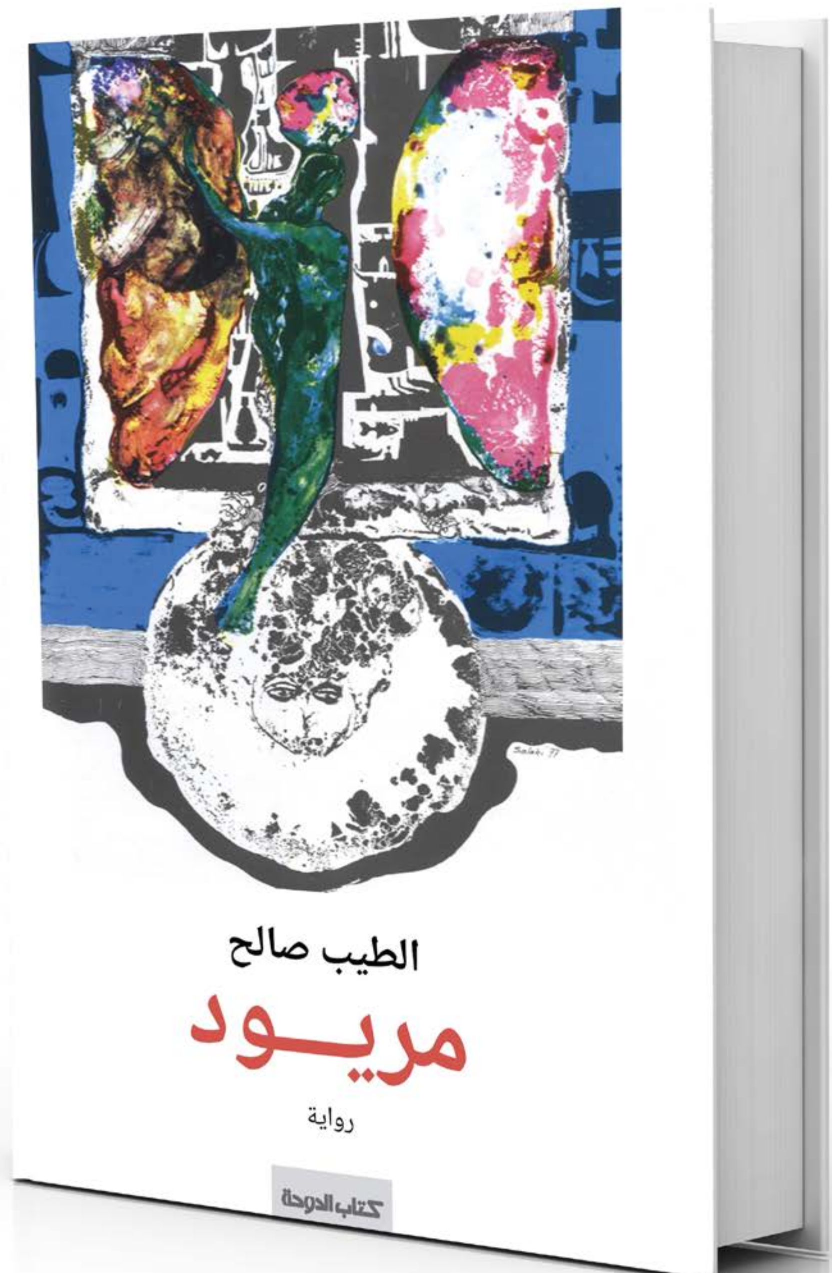
استخدمت جماعة كواتو (عاصمة جنوب السودان)، «عربي جوبا» لكتابة نصوصها المسرحية، فارتقت بها؛ كونها اللّغة الوسيطة الوحيدة في جنوب السودان، من لغة وسيطة (Lingua Franca) يستخدمها الجنوبيون من مجموعات لغوية مختلفة للتواصل اليومي، في أماكن التقائهم وتسوُّقهم وتداخلهم، إلى لغة تعبير أدبي وفنّي. وقد سبقها، في هذا الأمر، راديو مجلس الكنائس السوداني الذي كان يبثّ مسرحيّات إذاعية قصيرة من مقرِّه في جوبا، حيث «عربي جوبا». ربَّما مثَّلَ استخدام كواتو لـ«عربي جوبا»، لكتابة مسرحياتها وعرضها في الخرطوم، حيث تسود عامِّية الخرطوم العربيّة، أمراً رمزياً وبراغماتياً في ذات الوقت، وتكمن رمزيَّته في أنه يعبِّر عن الهويّة الجنوب سودانية الجامعة.

مسرحية «منو ياهو جوا؟! مَن الذي بالداخل؟!» هي مسرحية قصيرة، كتبها السماني لوال، مستلهماً حكاية إفريقية، بـ«عربي جوبا» مستخدماً الحرف العربي، على أن ينطق الممثِّلون الأصوات على طريقة «عربي جوبا». عالج نصّ المسرحية ستيفن أوشيلا، وأخرجها ألفريد ديريك. صُمِّمت المسرحية لتُعرَض أمام جمهور من الأطفال، فهي تحكي عن أرنب يرغب في العودة إلى منزله، لكن حيواناً غريباً يعترض طريقه ويمنعه من العودة. كما كتب ستيفن أوشالا، كذلك، مسرحية قصيرة اسمها «قمارا - القمر» مستخدماً «عربي جوبا»، تتخلَّله بعض العبارات الفصيحة. تحكي المسرحية أن القمر اختفى، ذات مرّة؛ ما دعا القرويِّين لمناجاته لكي يعود، كما عالجت المسرحية موضوعات كالحرِّية وحقوق الإنسان الأساسية. ويبقى «ورنيش - تلميع الأحذية» النصّ المسرحي الأطول الذي قامت جماعة كواتو المسرحية بمعالجته. كتب نصّ المسرحية ستيفن أوشالا، بلغة هي أقرب إلى عامِّيّة الخرطوم العربيّة، وشاركت كواتو بهذه المسرحية في مهرجان قرطاج الدولي للمسرح، في تونس في العام 1998، وامتازت هذه المسرحية بأنها أكثر تعقيداً من سابقاتها؛ حيث تناولت مسألة أطفال الشوارع في الخرطوم، ومسألة استهلاكهم للمخدّرات، وبحثهم المضني عن روابط أسرية مفقودة.

■ **د. عاطف الحاج سعيد**

صدر في

كتاب الدوحة





في فناء الوزارة

■ **قصة:** ملوال دينق

كان عليه التوقيع على عدد من الأوراق، إلى حين وصول الوزير الجديد، بعد أن حلّ السيِّد الحاكم طاقم الحكومة بمرسوم مفاجئ.

في فناء الوزارة الفسيح، تحلَّق نفر من الموظَّفين حول موقد الشاي، تحت ظلال أشجار المانجو، يتجاذبون أطراف الحديث، ويتهامسون بقلق وتوجُّس؛ بغية الإمساك بأيّ معلومة قد تفيد في فكّ غموض سيرة المسؤول الجديد الذي سيتولَّى إدارة الوزارة، فقد اكتفى المرسوم بإيراد شذرات عن الرجل، لم تشبع الفضول.

قال أحدهم، وكان يجلس مُتكوِّراً على مقعد خشبي قديم، يحرص على اختياره، بدقّة، من بين طقم من المقاعد الخشبية المُبعثرة في الأنحاء، كلّما انضم إلى الحلقة، فكان يمسك بيده اليمنى كوب قهوة، وبيسراه سيجارته المفضَّلة «سوبر ماتش» .. يمتصّها امتصاصاً بعد كلّ رشفةٍ من القهوة، نافثاً دخاناً كثيفاً في الهواء: «سمعت أنه جاء من الدياسبورا.. حيث كان ناشطاً وسياسياً، ورئيساً للمُجتمع هناك».

اعتدل في الجلسة: «ذاع صيته عندما تطوّع لحشد الدعم للحملة الانتخابية للرئيس، وسط أبناء الجالية.. لكنه غاب عن الأنظار، منذ ذلك الحين».

هذا الحديث زاد الوضع إثارةً وغموضاً. انبرى آخر، وقد بدا الانزعاج جليّاً على ملامحه، وكان مُنشغلاً بهشّ الذُباب الذي كان يقيم مهرجاناً تحت الأشجار، يقول: «قيل، أيضاً، إنه صعد سريعاً في صفوف الثورة، ولم يفشل في أيّة مهمّة كُلِّف بها».

كان «السوّاق» العضو الأكبر سنّاً في المجموعة، عاصر كلّ الحكومات، يتابع مسار النقاش باهتمام، ومن مسافة تتيح له الاستماع إلى المُجادلات، وطلب الشاي والقهوة حسب المزاج. يرتشف الشاي الأخضر الذي يفضّله؛ اعتقاداً بقدرته على شفاء الأمراض المستعصية، فقد سمع، ذات مرّة، عن قدرة الشاي الأخضر على خفض مخاطر الإصابة بالسرطان وضغط الدم والخرف المبكِّر، ومنذ ذلك الحين ظلّ يحتسيه، باستمرار. قال بكلمة مقتضبة: «انتو مالكم ومالو؟ إن شاء الله يكون جاي من آخر الدنيا .. المهمّ يشوف لينا حلول لمشاكلنا دي».

كنت أنصت، وأتابع مسار النقاش، دون تدخُّل، وكنت قد تعلّمت هذه العادة من جدَّتي المتوفّاة، التي كانت، قبل رحيلها المرير، من أشهر العرّافات في المدينة، تقصدها النساء من المدن والقرى البعيدة لتقرأ لهنّ الطالع، وكان معظمهنّ يعتبرنها سليلة الأنبياء الذين هبطوا إلى بلدتنا، في تلك الحقبة الغابرة من التاريخ. ماتت المسكينة جدَّتي قبل ستّ سنوات، بعد معاناة مع مرض الجذام المتفشّي في منطقتنا، وأشيع، وقتها، بين نسوة الحيّ، أنها مصابة بمسّ شيطاني. كنت أشاهدها، منذ صغري، كيف تؤدِّي طقوسها، وتعلَّمت منها قراءة الفنجان، وقراءة الكفّ، والتنبُّؤ بالمستقبل ... آه .. كم كانت جدَّتي طيِّبة وحنونة!.. اشتقت إليها.

انتصفت شمس الظهيرة، فتسلَّلت أشعَّتها الحارقة عبر الأفرع المتدلِّية.. تلاشت الغيوم والسحب التي غطَّت السماء، وتبدَّد المطر الذي كان ينذر بالهطول. وفي الحلقة، كان النقاش قد بلغ مبلغه؛ حكايات وأحاديث لم تستطع فكّ الغموض عن سيرة الوزير الجديد، وروايات متعدِّدة تنتهي، كما بدأت، إلى ظنون واستفهامات عريضة. كانوا يلتقطون الأنفاس، فقط، حينما ينادي أحدهم: «جيبي شاي مظبوط، سكَّر خفيف».. أو يسترسل آخر: «كدي أعملي جبنة جنزبيل خفيف».. ثم ينهمكون، مرّة أخرى، في النقاش.. كأنما يبرزون قدراتهم في التحليل والإقناع. استمرّوا على هذا الحال إلى أن ارتفع صوت السكرتيرة التي ولجت الحلقة، فجأةً، مخاطبةً إيّاهم: «السيِّد المدير يدعو الجميع لاجتماع مهمّ.. احرصوا على الحضور في القاعة، بعد ثلث ساعة»، فانفضت بعد ذلك النقاش.

انتظم الاجتماع في القاعة الصغرى المحاذية لمكتب الوزير، بمشاركة كبار المسؤولين. كانت الأجندة واضحة؛ لذا انتهت بعد نقاش قليل، وخلصت إلى تكوين لجنة لاستقبال الوزير الجديد، يشرف عليها المدير العامّ شخصيّاً، وحددت مطلعَ الأسبوع التالي موعداً للمناسبة.

في مبنى الوزارة، وسط المدينة القديمة، على ضفاف النهر، في المنطقة المأهولة بالأشجار والزهور، وعلى بعد بضع كيلومترات من مكتب الحاكم (كان، في السابق، مقرّ المفتِّش الإنجليزي) المشيَّد بالطوب الأحمر والأحجار الجبلية، بسقوف من خشب التيك وصفائح الزنك المصبوبة بالإسمنت، في مخروط هندسي أقرب إلى بيوت السكّة الحديد، وبفنائه الفسيح حيث تتناثر أشجار المانجو المحمَّلة بالثمار وبعض الجوّافة والقشطة، مرّت عطلة نهاية الإسبوع سريعاً، دون ضجيج، وجاء موعد الحفل، اعتلى المدير العام المنصّة ببطء، متّكئاً على سنّي عمره التي شارفت الستِّين، وقد بانت عليه آثار السنين الطوال، فبدا مثل ثور كهل، أنهكته غارات ناهبي الأبقار. كانت ملامحه تنبئ عن ضجر وقلق.

انتصب بقامته الطويلة، وبدأ في يخطب: «السادة الحضور.. دعونا نرحِّب جميعاً بسعادة الوزير الجديد، الذي يعد من أبناء المنطقة البارزين والمُخلصين، المشهود لهم بالكفاءةِ والخِبرة».

ضجَّ المكان بالتصفيق الحارّ.

تابع: «سيِّدي الوزير، نحن سعداء جدّاً بنبأ تعيينكم على رأس هذه الوزارة العريقة، لما هو معروف عنكم من تفانٍ وإخلاص في كلّ المناصب التي تقلدتموها».

ثم أضاف: «تكليفكم بهذه المهمّة يعني أن الوزارة ستعيش مرحلة انتقالية جديدة من العمل والإنجاز.. تتطلَّب ضخّ دماء وأفكار جديدة».

كان المدير يخطب كمن أُجبر على ذلك، فبدا متحسِّراً على شيء ما.. تمنَّى لو أنه لم يشارك في هذه المسرحية السخيفة الذي يتوجَّب عليه أداؤها، فهو لم يرغب في ذلك، أبداً.. عليه التحلّي بالقليل من الذكاء والفطنة أمام التحوُّلات الجديدة.. قال ماضياً في خطابه: « نؤكِّد لكم، أننا سنتعاون معاً لمواجهة التحدِّيات التي تواجه الوزارة».. هذه الفقرة، تحديداً، قالها بصعوبة، فلا تعاون كان، أو سيكون بعد ذلك.

اعتلى السيِّد الوزير المنصّة، وسط دويّ التصفيقات ودندنات أغنية مرتجلة، تَمَّ إعدادها خصوصاً لهذه المناسبة.. ظلّ البعض يرقصون في نشوة وحبور، وآخرون تملَّكهم الامتعاض والرغبة في عدم المواصلة. كانت السكرتيرة الشابّة ترقص، بغنج ودلال، رقصة أشبه برقصة «السالسا»، وكانت تولول مثل الراقصات في حلقات «الزار».. وهكذا، لاحظ الوزير التناقضات، منذ يومه الأوَّل في الوزارة.

كان الوزير رجلاً في بدايات العقد الخامس من عمره، ممتلئ الجسم، داكن البشرة، ذا وجه دائري، ولكنه ليس وسيماً: عيناه ضيِّقتان تكادان تختفيان عندما يشرع في الحديث.. أفطس الأنف.. شعر رأسه حليق دائماً، وكذا ذقنه.. ملامحه توحي شيء من غموض، يرتدي زيّاً إفريقيّاً مخطَّطاً بلون حمار الزرد، يمشي في خطوات منتظمة ومحسوبة كأنه في عرض عسكري مهيب، و- مع ذلك- لا ينسى، في كلّ خطاباته، أن يذكِّر الناس بأن أوان النضال العسكري قد مضى، وحان وقت النضال المدني.

ساد صمت تامّ، عندما بدأ في الخطاب: «اسمحوا لي أن أحيِّيكم جميعاً في هذا الصباح المبارك، باسم السيِّد الحاكم الذي منحني ثقته الغالية».

أعاد ترتيب وقفته: «إن هدف تكليفي بهذه المهمّة هو مواصلة خطّة التنمية التي أطلقها سيادته، بما يتماشى مع رؤية حزبنا الثوري».

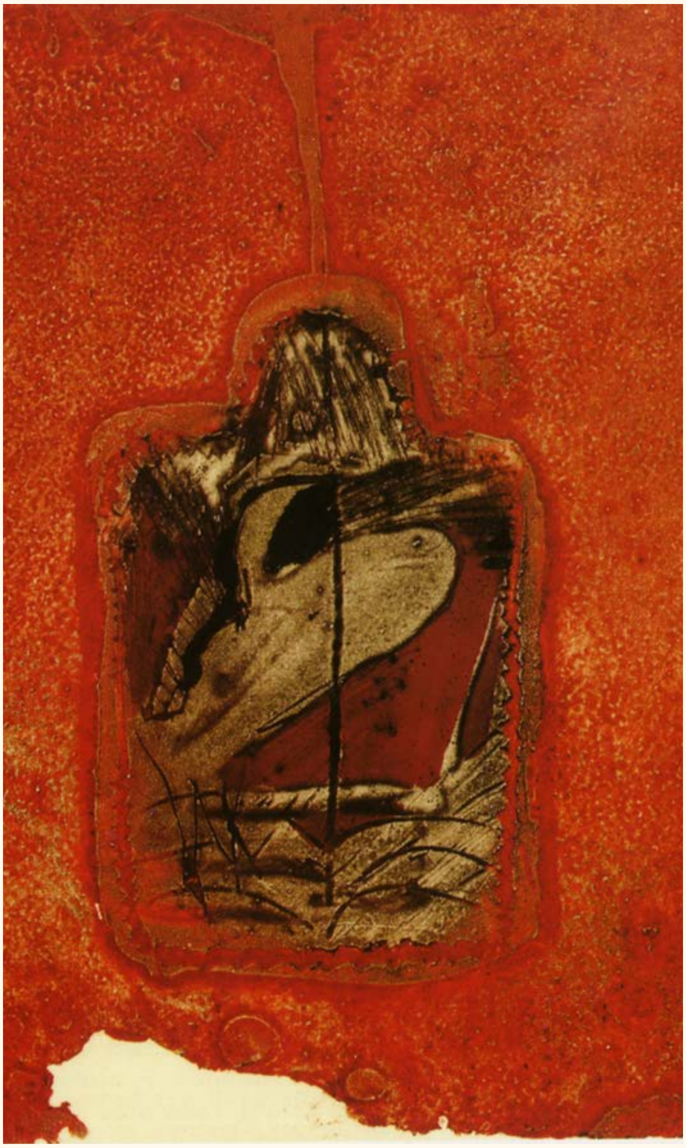
كان الجميع ينصتون، باهتمام وترقُّب، لمعرفة ما يحمله لهم المسؤول الجديد، وتباينت درجة مشاعرهم وتفاعلهم مع الخطاب. كانت ظلال أشجار المانجو، التي أقيمت تحتها المناسبة، تغلي مثل ساحة حرب.

وسط هذه الأجواء الاستثنائية، شقَّ صوت جَهْوَري الصمت: «يعيش السيِّد الحاكم.. يعيش السيِّد الوزير.. يعيش حزبنا الثوري.. تعيش ولايتنا الحبيبة»..

قابل الوزير الهتاف بابتسامة عريضة تنمّ عن رضى وإعجاب.

ومضى في حديثه: «نعاهد أنفسنا، أمامكم، بالعمل بشفافية ونزاهة، ومحاربة الفساد».

كلمات كانت كافية لتأكيد ما ظلَّ يساور المدير من شكوك، وكان عليه التفكير في تدابير تقيه شرّ الرجُل.
كان دولاب العمل يسير كيفما اتّفق؛ لا خُطط أو استراتيجيات تمَّ إنزالها على أرض الواقع، ولا خدمات تمَّ تقديمها للمواطن، واصطدمت طموحات وأحلام الوزير الذي لم يعد جديداً، بعد أن أمضى ستّة أشهر على رأس الوزارة، بحقائق واقعية ماثلة، ولم يعد أمامه مفرّ سوى القبول بالمواجهة. «عليك الصبر على مخطَّطات أعدائك، إذا أردت أن تربح المعركة»، طمأن نفسه بهذه الجملة، التي كان يردِّدها أيّام الثورة.
تذكَّر ما قاله له أحد الموظَّفين الناقمين، الذي تسلل إليه قبل يوم من حفل استقباله، بأن المدير يمارس الفساد والقبلية في الوزارة، بمباركة بعض زملائه.



ازدحمت أسئلة كثيرة في رأسه.. كان يفكِّر بما قصده الموظَّف بهذا الحديث الخطير:
مثلاً لماذا يتخوَّف المدير حين يأمر موظَّفيه بتفادي الالتقاء بالوزير؟
ماذا سيحدث إذا نقل كلّ هذه التفاصيل إلى السيِّد الحاكم؟!
هل سيتدخَّل، شخصياً، في المسألة؟!
هكذا، بدت الأمور معقَّدة على الوزير؛ إذ وجد نفسه أمام تقاطعات عجيبة: صراع النفوذ، وحسابات المناطق، فلم يكن أحد، في الحقيقة، يهتمّ بمسألة الخدمات، حتى الوزير نفسه لم يكن ذلك همّه الأوّل، كان عليه فعل شيء ما، قبل فوات الأوان.
في ذلك النهار من نهارات المدينة الطويلة والمرهقة، وقد حجبت الغيوم أشعّة الشمس، وفصلت المدينة إلى قسمين مثل كتاب مفتوح، جاء المدير إلى مكتب الوزير بقائمة أسماء، قال إنهم مَنْ وقع عليهم الترشيح للترقية. رفض الوزير القائمة، بحجّة أنه لم يطَّلع على ملفَّاتهم، وأمر بتكوين لجنة لهذا الغرض.
لم يُبدِ المدير أيّ اعتراض، حينها، بل غادر في صمت، وقد شعر بإهانة بالغة لنفوذه وكبريائه.. هذه النقطة، تحديداً، تَمَّ تسجيلها، بعد ذلك، لصالح الوزير، وفسّرها البعض بأنها بداية النهاية لإمبراطورية هذا المدير المُتسلِّط.
بدأت الخلافات تطفو على السطح، وقصص المؤامرات تصل إلى كلّ الأطراف، ولم يعد أحد يخشى الجهر برغبتهِ في القضاء على الآخر، وإبعاده من الوزارة.
الموظَّفون الذين أدمنوا النميمة والوشاية، تطوَّعوا بنقل الأخبار يميناً ويساراً.. وبالتأكيد، كانت تصل، أيضاً، إلى مكتب الحاكم.. وكما هو متوقَّع، تمَّت إقالة الوزير بمرسوم من السيِّد الحاكم، وغادر كرسي الوزارة، دون أن ينجز شيئاً من وعوده التي قطعها، إذ قضى جلّ وقته في مواجهة صراع العصبيات والنفوذ داخل الوزارة، بينما بقي المدير الذي ضرب بوعود التعاون عرضَ الحائط، وسخّر وقته في التخطيط للإطاحة بالوزير، ليواصل بسط سيطرته.. هكذا، استطاع الحاكم احتواء الخلاف بين الوزير والمدير العامّ، بإبعاده الأوَّل، لكن المُشكل ظلَّ قائماً.
مضى على تلك الأحداث شهر كامل، ولاتزال أصداؤها تسيطر على مجالس المدينة.. كنت أتنبّأ بكلّ هذا، لكن لا أحد كان يصدِّقني. المدير، في بعض الأحيان، يصيخ السمع إليَّ، إذا توافق حديثي مع أهوائه، فيدسّ مظروفاً صغيراً بين يديّ، وفي أحيان أخرى كان يقول: «هذا شطط وخرافة. كيف لسيِّدة شاي أن تعرف كلّ هذه التفاصيل؟».

انتحار

■ **قصة:** بوي جون

(1)

الذين يقدمون على الانتحار، في أكثر الأحوال، هم أشخاص لم يفكّروا مرّتين، لكن لهم- (اقصد بعضهم) ما يستحقّون الثناء عليه، وهو أنهم قد يتركون رسالة تفصِّل أسباب الانتحار، وإذا كان المنتحر رقيق الحسّ فسوف ترى بقايا الدموع تبلِّل كلماتٍ تحضّ على الصبر والسلوى.

عندما كنتُ صغيراً، كان الموت عندي يعني التغيّب من المدرسة، التي قلَّما يدخل المعلِّمون فصولها من غير أن يلوّحوا بسياطهم، وما زلتُ أتذكَّر أنه كان دائم الحضور إلى مدرستنا، وكنّا نراه- حسب أدمغتنا الصغيرة، حينها- موفَّقاً في اختياراته، ولن أنسى (وإنْ كنتُ أشعر، الآن، بالعار لذلك) كيف استبدّ بنا الفرح ونحن في الصف الثاني، لأن الموت خطف مرشد فصلنا، وكان من طراز الآباء الذين يوصلونك إلى المجد عبر دربٍ من الآلام والدموع.

مات الكثيرون ممّن أعرف، لكن واحداً من أولئك الموتى التصق بذاكرتي، فظلّ يتراءى لي كأني ساعدته ليقتل نفسه: كان قويّ البدن، فارع الطول، في قامته انحناءة خفيفة حتى ليبدو معه مثل قوس هائل عندما تنظر اليه من بعيد، وكانت طباعه الهادئة تظهر في وجهه البريء القسمات، فتجعله طفوليّ الملامح، أو هكذا رأيته عندما التقيته، لأول مرّة، في ظهيرة يوم من أيّام مايو، الذي لا تُحتَمل حرارته.

كان تيّار الكهرباء يخاصم حيِّنا كثيراً، فينقطع أيّاماً وأسابيع؛ ما جعل الذين يملكون أشجاراً في منازلهم في مصافّ مَنْ ابتسم الحظّ في وجوههم، مثلما كنّا نحن: كانت تقف شامخة شجرة نيمة ضخمة أمام منزلنا القديم، ولسبب ما صارت ملاذاً للفتيان، عندما يلهب حَرّ الصيف كلّ الأماكن التي يتسكَّعون فيها. كانوا يجلسون لساعات، وهم يلعبون الورق، ويتضاحكون بصوتٍ عالٍ، لا يمكن أن يُحتمل إلّا منّا نحن؛ لذلك غدت شجرتنا خيارهم الوحيد، حيث يجلسون تحتها كما يشاؤون، دون أن يرشَّهم أحد بماء الغسيل أو يزعجهم بالشتائم والهمسات الجارحة.

عندما حَلَّ عصر ذلك اليوم تفرَّق الجميع، وبقي هو، وكنتُ قد لاحظتُ أنه لا يضحك إلّا بتكلُّف فَشِل في إخفائه. بادرته بالسؤال:

-تبدو جديداً.

-كم يبقى المرء عندكم حتى يُعَدّ قديماً؟

-إذن، فقد مكثت كثيراً؟

-بعض الشيء.

(2)

مضى شهران منذ أن عرفتُ (توم)، لكن محاولاتي المتكرِّرة لجعل الخرطوم جميلة في عينيه ذهبت جميعها أدراج الرياح. كان حنينه إلى جوبا جنوناً لا ينقطع، وقد سمعته يناجي نفسه ذات يوم، هامساً كأنه يبكي: هذه المدينة غاب ضميرها، فصولها تمرّ، في يوم واحد، كشريط سينمائي، أطفالها لا يغنّون للمطر والبجع... حفظ الله أطفالك، يا جوبا، وهم ينشدون للمطر: «بجة بجة خالي، أديني بياضي شيل الأحمر، أديني الأبيض أنا ما داير أسود».

عندما انتبه إلى أن همسه قد انكشف، وأنني كنتُ أستمع إليه، توجَّه إليّ بالكلام، وقد امتلأ صوته بالشجن: العجيب، يا تعبان، أن أطفال جوبا، عندما يستيقظون يجدون البياض قد زيَّنت رؤوس أظافرهم.

عندما كان يتحدَّث بدا المشهد فوضوياً: أسراب من طيور بيضاء تعبر السماء، وأطفال فزعين يتسابقون لبلوغ منازلهم فيما كانت البروق تلمع وتجري كخيول مجنونة على السحب الداكنة التي تراكم بعضها فوق بعض، حتى صارت مثل سهوب لا نهائية المدى.

جلوسنا تحت النيمة، مكنَّنا من أن نعرف جميع بنات الحيّ، وكنّا نتبارى في معاكستهنّ، فيسيطر علينا الزهوّ، جراء ذلك، حتى أننا نعتقد، في بعض الأحيان، أنهن يتنافسن في إبداء رشاقتهنّ لأجلنا، لكن فتاة واحدة كانت لا تلقي، ولو رمشة عين تجاهنا، وعندما تنتبه إلى وجودنا، كان ذلك كي تمطرنا سباباً وشتماً، دون أن تدري أنها كانت، بذلك، تزيد من إصرارنا على ملاحقتها ومعاكستها أكثر.

نادراً ما كان الإسعاف يدخل حيَّنا؛ وذلك لأن أهلنا يفقدون صوابهم في الحالات التي تتطلَّب الاتِّصال بخدمة الطوارئ، كما أنهم طيّبون إلى درجة الاستعداد الدائم لتقبُّل أيّ حادث على أنه قضاء وقدر، لذلك تملّكنا الفضول عندما رأينا سيّارة تخرج من بين المنازل، بسرعة فائقة، مطلقةً صافرات حادّة أيقظت كلّ مَنْ كان في قيلولة نهار ذلك اليوم اللاهب.

- مَنْ داخل السيارة؟.. ما الذي حدث؟.. كنّا نتجادل عندما أسكَتَنا أحدهم قائلاً:

- يا شباب ما سمعتو بالحصل؟

- كيف نسمع وأحنا هنا من صباح الرحمن؟

- الله يلعنكم.. تقعدو زي الحجارة هنا.. لا تحسّو بشيء.. تقعدو متبلِّدي الشعور في وقت الآنسة (كيجي) قع تنتحر.

- ما تكمِّل.. أتقصد أن الآنسة ماتت؟! قاطعنا الرجل بصوت واحد، سكنته الصدمة.
لكنه تابع ببرودٍ، أزعجَنا:
أيوة.. انتحرت الآنسة، لكنها ما ماتت..
قاطعناه متنفِّسين الصعداء:
- وكيف دا؟!
- بطريقة مفاجئة.
- كيف يا..؟
- الحبل انقطع، وسقطت.
تحوَّل المشهد من الوجوم إلى ضحك صاخب، عندما علَّق أحدنا قائلاً:
-مسكينة.. شكلها ما قعد تشاهد التلفزيون.
ثبَّت آخر الصورة المهتزة بقوله:
- المنتحر محتاج إلى شغل واجتهاد حتى ينجح.
لم يكن المتحدّث إلّا (توم)

(3)

شيءٌ واحد ظلّ يميِّزني، على الدوام، هو أن أمِّي لا توجِّهني في مَنْ أصادق أو لا أصادق، وتقديري الشديد لوالدتي يعود إلى ذلك، لكن ذينك الشيئَيْن اهتزّا دون سابق إنذار: ذات صباح، كان الجوّ بارداً وقت دعتني إلى غرفتها. صُدمت، في الداخل، بجدّي يحملق فيّ كأنه يريد الخروج من صورته المعلَّقة على الحائط. أمّا هي فألقت كلامها، كعادتها، دفعة واحدة:
-(توم) دا شابّ لطيف، لكني دايرك ما تصادقو.
رغبت في الردّ، لكن لساني تثاقل، وأنا أبحث عن كلمة مناسبة ألقت بجملة ثقيلة في وجهي:
- وأعرف إنو جدّو متورِّط في قتل جدّك.
كتمتُ تساؤلاً فحواه: كيف لحدث وقع قبل ستِّين عاماً أن يحرِّك المستقبل، ويرسم له خطوط التحرُّك والسكون؟ لم أردّ على أمّي.. وهكذا، حسب كلانا أنه قد وضع النقاش جانباً، وتخلَّص منه.
بعد أشهر، عادت الآنسة (كيجي) لتمرّ أمام مجلسنا، كسابق عهدها، لكن دون أن نمسّها ولو بكلمة. بالمقابل، امتنعت هي عن الشتم وكَيْل السباب لنا، وكانت مسحة من الحزن والشحوب من تلك التي تكسو وجوه الموتى، قد أصبحت تطفو على وجهها، حتى أن أحدنا صرخ:
- يا جماعة، البت دي ميِّتة.
لم يعرف أحد لماذا أرادت الانتحار، أو لم يعرف ذلك أحدنا، على الأقل.
ذات يوم، عدت إلى الحيّ لأتفاجأ بسرداق منصوبة، وموسيقى تصدح، فدخلتُ ممنِّياً نفسي بسهرة سعيدة.
لكن، بعد ذلك بساعات، أي عندما حَلّ الليل، تعالت الصيحات والصراخ، دون أن أستطيع استيعاب ما يحدث، وظللتُ في تلك الحيرة، واقفاً أمام المنزل، حتى صرخ فيّ أحد العجائز:
انت واقف والناس كلّها بتفتّش في (كيجي).
جمدت في مكاني، قبل أن أستوعب أنها هربت يوم عرسها.



(4)

عندما تقترب نهاية مايو، يجتاح سكّان الخرطوم ضجر لا تفسير له سوى الغبار والأتربة التي توقظهم من رقادهم ليلاً، وتمنعهم من زيارة أحبابهم ظهراً، والأمر السيِّئ أنك لا تستطيع الفرار إلّا إلى نفسك لتتكوَّر حولها، كقنفذ باغته مصباح سيّارة.

كنتُ أهرب إلى الأزرق، فأعبر جسر الجيش سيراً، لأحدِّق في مائه وهو يزبد ويرغي. لم أدع أحداً يشاركني تلك المتعة، أبداً، فكان الشيء الوحيد الذي احتفظت به لنفسي. كانت كلّ ممتلكاتي، من دفاتر وقمصان وسراويل، حتى أحذيتي، ملكاً لأصدقائي.

ذات يوم، وبينما كنتُ أسير على الجسر، أحسستُ بأحدهم يتبعني.. التفتُّ لأجد (توم) يقول مبتسماً:

يا لك من ماكر! تتركنا للغبار، وتهرب وحدك إلى هذا الخَضار؟ لقد رأيتك أكثر من مرّة، وأنا قادمٌ من الخرطوم.

صمتُّ ولم أعلق بشيء؛ لا كلمة ترحيب، ولا كلمات صدّ. لم يكن فيه ما يستحقّ التعليق سوى ضخامة حذائه التي جعلتني أقول له:

- الريح تعصف بقوّة. لا تنسَ أن الفيزياء تعلِّمنا أن الجسم يقلّ وزنه كلّما ارتفع إلى الأعلى. مَنْ يدري؟ قد تسقطك الريح، وأنت غارق بهذا الحذاء، لا محالة، لأن...

قاطعني ساخراً.

- ألم تدرس في الفيزياء، أيضاً، أن أولاد جوبا يتعلَّمون السباحة قبل التماسيح؟

لم أنطق بكلمة، حتى وصلنا إلى منتصف الجسر. هناك، توقّفتُ لأُخرج منظاراً وبعض الحصى من حقيبتي، وبعد أن أشبعتُ قلبي بروعة المنظر أخذت- كعادتي- أرمي بالحجارة إلى الأسفل. أمّا هو فصار يحدِّق بالآلة، لكنه لم يكن يحدِّق مثلي.. كان يحاول التحديق تحت الجسر، مباشرةً.

- لن ترى شيئاً.

قلتُ:

-رأيتُ ما أريد.

ردّ هو:

-لستُ أدري كم من الوقت قد مضى، عندما بدأت تتوافد الطيور المائيّة جماعاتٍ جماعات، فيما الماء يتلوَّن بحدائق من الألوان!. إنه زمن العودة كما خمَّنت من كلّ ذلك التلوّن. فقلت له، وأنا مُنحنٍ على حقيبتي:

-أرجو أن تكون قد استمتعت.

لم يجبني، فأعدت السؤال، بطريقة أخرى، لكنه لم يجبني، أيضاً؛ ما جعلني أنهض وأرفع رأسي غاضباً لأشتمه حيث لم أنسَ، بعد، أنه تطفَّل على خلوتي، لكني بدل ذلك - سمَّرتُ عيني على جمهرة من الناس مفتوحي الشفاه من الخوف، ينظرون إلى الأسفل، وقد أمسكوا بالحاجز الحديدي للجسر، بأيديهم. أردتُ القفز، لكن يدين قويَّتين أمسكتا بي من جذعي.

(5)

كان الحضور أجمعهم صامتين، ينظرون بعيون منكسرة إلى الضابط الشابّ الذي أخذ يتلو حيثيّات الحكم. لم أنشغل كثيراً بما كان يقرؤه من الورقة المرتجفة بين يديه، لكن شدَّني وصفه للجريمة بالثأر، قبل أن يطوي الورقة، ويلتفت نحوي قائلاً:

ألديك ما تقوله؟

لم أجبه. فقط، أخذت أجول بنظري بين الحاضرين، وأتأمّل خلفهم الفراغ الذي لا ينتهي من الذكريات. كانت وجوههم رمادية وأجسادهم ضبابية مثل أيّام الطفولة البعيدة. قطع شرودي أحد الحرّاس، عندما اقترب مني.. وعندها، أطلقت صرخة هائلة...

«كأنه كابوس! اطرد الشيطان، يا بنيّ!»، قالت أمّي، ثم أخذت تهدهدني كأني رضيع.

إذن، لن يقتلوني.. إذن، سأعيش، قلت بصوت خائف.

اطرد الكوابيس.. لقد اتَّهموك، لكن الشرطة قالت كلمتها.. يا للمسكين! كانت رسالة انتحاره طوال الوقت في جيبه.

عطستُ عطسةً قويةً، فأسرعت أمّي إليّ بكوب ماء، قبل أن تعود لتواصل حديثها:

لقد حاول الانتحار ثلاث مرّات: فشل مرَّتين، في المرّة الأولى انقطع الحبل فسقط، وفي المرّة الثانية أنقذه لصٌ طيِّب، كان يتفقَّد المنزل.

أطرقتُ أمّي قليلاً، ثم تابعت:

لكنه كان بارعاً في المرّة الأخيرة؛ لقد سقط على إحدى قواعد الجسر.

كان النعاس يغمر جفوني، بينما أمّي تعدّ وتسرد محاولات صديقي الكثيرة في الانتحار، قبل ينجح في ذلك.

(6)

مضت ثمانية أشهر على انتحار (توم)، حتى كدت أنسى أمره، لكن حياتي لم تعد تسير كما هي. لم يعد الأصدقاء يجلسون تحت شجرة النيمة، كعادتهم. أمّا أنا فداومت على الجلوس عندها، كلّ ظهيرة، محاولاً لملمة الذكريات الجميلة قدر ما أستطيع، لكن الأيّام ما انفكت تخبرني بأن ذلك ضرباً من العبث.

كنتُ جالساً، كعادتي، في ظهيرة مثل غيرها، حيث أصبحت كلّ أيّامي نسخاً مكرَّرة، عندما وقف رجل يحمل بين يديه طفلاً، وخالجني شعورٌ غريب بأنني قد رأيته من قبل. عرضتُ المساعدة قائلاً:

- بماذا أخدمك؟

- كوب من الماء، يا بنيّ!

خُيل إليّ، والرجل يلتهم الماء، أنه ظلَّ تائهاً على وجهه في الصحاري، لأيّام. وأخيراً، عندما أفرغ كلّ الماء في جوفه تجشَّأ، ثم قال في نبرة اعتذار:

آسف لأني أتعبتك، يا بنيّ! هل بإمكانك أن تدلَّني على منزل أسرة الآنسة (كيجي)؟ لقد أوصتني، وهي تحتضر، أن أوصل الطفل إلى والدها؛ حتى..

سقط الكوب من يدي، ودون أن أنطق بكلمة، حملتُ كرسيَّ، فانغلق الباب خلفي.

مختارات شعرية

(مقاطع)

أَعِدُّوا القرابين

(سايمون أبراهام)

الزَّاجِلَةُ البَيْضَاءُ، أَجْهَزَتْ عَلَى غُصْنِ الزَّيْتُون.
قُوْلُوا لِشَعْبِي: هُبُّوا..
لِتَنْفَجِرْ مِزَارِيْب الابْتِهَاج..
وَالأَفْئِدَةُ السَّبْخَةُ ارْتَوَتْ بِوَابِلِ السَّلام.
هَاتُوا القِيْثَار..
دَاعِبُوا الأَوْتَار..
فَالْوَقْتُ، يَا خَلِيْلِي، لِلْرَقْصِ وَالغِنَاء..
لا لِلشِّجَار.
أَيْنَ أَنْتِ أَيَّتُهَا المُتَمَرِّدَة؟
هُوَّذَا الشِّتَاءُ قَدْ أَتَى
وَالقَرُّ زُنْبُورٌ حَانِق
يَلْسَعُنِي بِقُسْوَة.
وَرُوْحَي المَقْرُوْرَة..
تَرْتَجِفُ فِي قَاعِ الحَنِيْن
تَكَبِّلَهَا أَصْفَادُ الأَنِيْن.
أَيْنَ أَنْتِ أَيَّتُهَا المُتَمَرِّدَة؟
كَاهِنَتِي المُتَّقِدَة،
لا تُقَتِّري..
هَا أَوَانُ الطُّقُوس
وَامْتِزَاجُ تَرَاتِيْلِك بِنَفَحَاتِ المَجَامِر
وَشَذْو الكُؤوس..
وَتَجَلِّي النَّامُوْس.

صلاة

(أتيم سايمون)

سوادٌ مترامٍ
بين الصمتِ
وحلكةِ الليلِ،
لا يعدو القمرُ
أن يكونَ
سوى إشارةٍ
غامضةٍ
مثل رصاصاتِ
«المنيرة»
التي أطلقها
الجنودُ
المختبئون
في سواد
الليلِ والصمت،
بعد أن أجهزوا

على النهار
فوق «تربيزة رمل»
شيَّدتها
نسوةٌ أراملُ
أسفلَ جبلِ كجور
من حياكةِ
الأحجار.
لقمة مستساغة
ومصروفٌ لطفلٍ
أبكاهُ جرسُ المدرسةِ
الذي ذكَّره برعدةٍ
تخطَّفت آماله،
وتركتْ لديه
أثراً هناك.
صورةُ والده
في قلب
كرّاسته،
دافئةٌ
كحضنِ أمّهِ
العابق بدروس
المطرقةِ العبوس
وهي تكفيهم
شرَّ المدينة،
بنهاراتِها
القصيرة
المشتهاةِ،
وليلِها
الذي يولدُ
فيه بعضُ
الناس،
من جديد،
ويغيبُ في
مخاضِه
مَنْ أفلتَ
من يدِ
القدِّيسين
لينضمّ إلى ركبِ
الشهداء.
...

الغيبُ
عصافيرُ تحلِّق
في نهايةِ الأفق.
كفّي تُمسكُ
باليقين
مراهناً على الغدِ
غيرَ مكترثٍ
لوعيدِ العطاشى،
والضمائرِ المطروحةِ
على مائدةِ الكفاف.
أجادلُ المطرَ
عن هبوط أسلافي
وطلوعِهم في الحقول..
تلتقي أرواحهُم،
وهي تتهادى
كالسنابلِ،
في غمرةِ
«القالا والا».
...
«الموغاي»
يتقنُ حرفَتَه
على «الفيس بوك».
يقتاتُ العبثَ
والصعودَ
على ظهرِ الحقيقةِ
الذي كَسَرته
موجةُ الزيف.
التُصَفِّقُ



لموالٍ هامس.
قلْ للصفوفِ
إنا قد مللنا
الارتحال.
يَئسْنا من هذا
الزحفِ السرمديّ..
فأوّل صفّ أدليت فيه بصوتي،
لصالحِ الوطنِ
ظننتُه الأخيرَ المفضيَ
إلى خلوديَ المرجوّ
والفرحِ العظيم.
لكنهم أحالوني
إلى صفّي الجديد.

تلاوة

(ألدو ديمو)

«من أجل حبيبتي، وصديقاتها»
المجدُ لكِ ولي..
الحبُّ والسلطةُ..
بلادُ الجنوب وهبتها لك...
بأشجارها وجبالِها وكنوزِها.
تعالي نحتفلْ في ضواحي مونيكي
مسقط حبّي..
ولنتذكّرِ الرجالَ
والنساء،
الشباب
صانعِي المجدِ
في أرضِ الجنوب.
تعالي، وصديقاتكِ،
لنحكي
ونصلّي،
بإيمانٍ، للحياة ...
مَنْ سيوقف عشقي
وروحي الممتدّة
إلي روحكِ؟

سوف أتأمّل
خلفَ الخيوطِ المتشابكة،
وأدعو الأطفال لحصد الأرزّ في براري أويل.

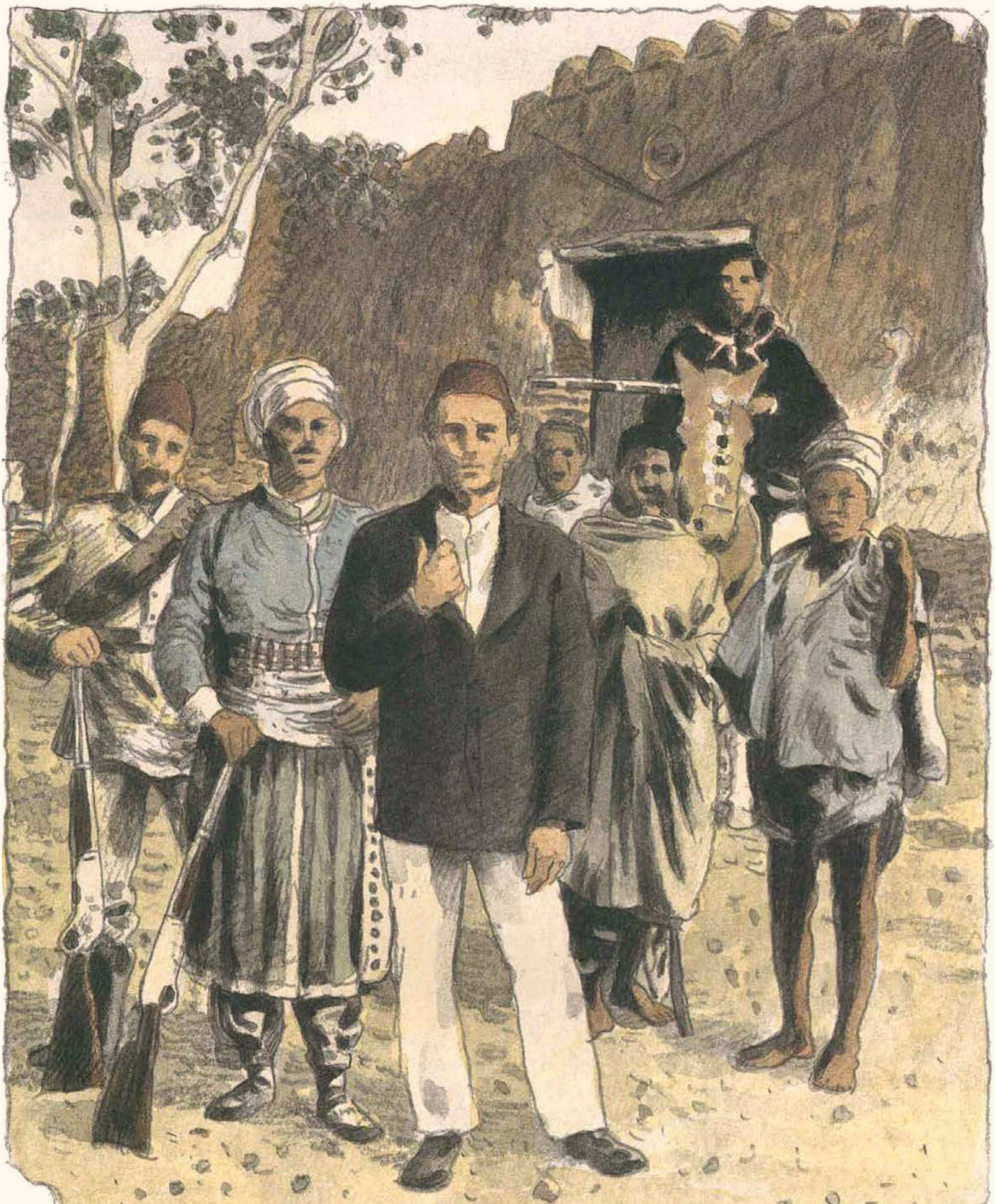
أشاركُ الجميلات...
أرنِّمُ، بلا حراك،
مُكلّفاً بأن أكون ذبيحةً للحبِّ..
والمطرِ
والجمالْ.

لا تبتعدي في التلال البعيدة...
أحرارٌ، أخيراً ...
في أرض الأمجاد.

صمتٌ يذكّرني
كلماتَ الجنرال ماساكا
عن «اطلع برّا»
و... واو...

أنا أبي
في الحرب وفي السلمِ.
الشدّةِ والصبرِ
الظلمِ والقتل.
أنا أبي..
فحبيبتي تشبه أبي
في الكرامةِ
والألم.

سأبكي بأعلى صوتي
لأُسمَع في ضواحي «افدا»..
لأُسمَع في «نيالاط»
لأُسمَع في الأقاصي،
في «الرنك».



▲ آرثر رامبو (Illustrated by Norman Macdonald)

رامبو في عدن

من الشعر إلى الأسلحة!

عمل «آرثر رامبو» على التكيّف مع المجتمع العدني، فلَبِس اللباس اليمني، وتسمّى باسم عربي، ويقال إنّه كان يُشاهَد في شوارع عدن، حاملاً في يدٍ مسبحة، وفي الأخرى مسواكاً. كما أنكبّ على دراسة القرآن الكريم، حتى أنّه طلب من أخته أن ترسل إليه نسخة منه، مترجمةً إلى اللّغة الفرنسيّة، ذيّلها والده، الضابط الفرنسي في الجزائر، بالكثير من الشروح.. ولم يقتصر «رامبو» على تجارة البنّ والعاج والتوابل، بل أضاف إليها، في أثناء إقامته في هرر، تجارة الأسلحة التي كانت منتشرة، خلال القرن التاسع عشر، في القرن الإفريقي.

قال «رامبو»، في رسالة بعث بها إلى أستاذه «ايزامبار»: «إنّما الأمر يتعلّق بالوصول إلى المجهول، وذلك بتشويش الحواسّ جميعها. إنّه لعذاب هائل، ولكن على المرء أن يتحلّى بالقوّة، ولن يتسنّى له ذلك إلاّ إذا كان شاعراً بالفطرة.» لا شكّ في أنّ «رامبو» كان يتحدّث عن الشعر، لكنّ المتمعّن في سيرة الرجل يلحظ أنّ هذا الكلام ينطبق، أيضاً، على حياته؛ فحياة «رامبو» كلُّها لم تكن إلّا نشداناً للمجهول: مجهول اللّغة، ومجهول الثقافات، ومجهول الحضارات.

هذا الشاعر الذي غيّر، على نحو عميق، الشعر الفرنسي، ولمّا يتجاوزْ مرحلة المراهقة، قرّر -فجأةً، وهو في العشرين من عمره- أن يهجر الشعر، ويختار سبيلاً جديدة في الحياة، هي سبيل المغامرة أو السّير على حافّة الهاوية.

كتب «رامبو» حياته في قصائده، قبل أن يعيشها، كما أفصح عن مشاريعه قبل أن ينجزها، فالهدف الذي كان يروم الوصول اليه هو الذهاب بعيداً، حتى التّخوم، وربّما إلى ماوراء التخوم؛ من أجل سبر المجهول (بحسب عبارته)، وتسمية اللامسمّى.

لم يستطع أن يقاوم جحيم أوروبّا إلا بالشعر. أمّا الآن، وقد انقطع عن كتابته، فعليه أن يتركها، ويمضي إلى أفق آخر مختلف. فاستبدّت بالشاعر رغبة جامحة في الذهاب بعيداً إلى الشرق: الشرق الذي عرف أقصاه، حين عمل بحّاراً في ميناء باتافيا (جاكرتا، حاليّاً)، ثمّ عرف، بعد ذلك، أدناه حين نزل بالإسكندرية، ومنها سافر إلى مدن كثيرة.

قال في قصيدته «فصل في الجحيم»، في مقطع عنوانه «الوداع الأخير»: «إنّه وداع، لا لقاء بعده.».. هكذا، كان وداعه لأوروبّا، فقد أدار إليها ظهره، ومضى باحثاً عن أرض جديدة.

كان «رامبو» يسعى إلى قطع كلّ العلائق التي كانت تشدّه إلى ماضيه وإلى طفولته الجريحة: علائقه بالشعر والأسرة والوطن والأخلاق المسيحيّة، ليؤسِّس لنفسه حياة جديدة مختلفة، بل -ربَّما- ليبتكر نفسه من جديد.

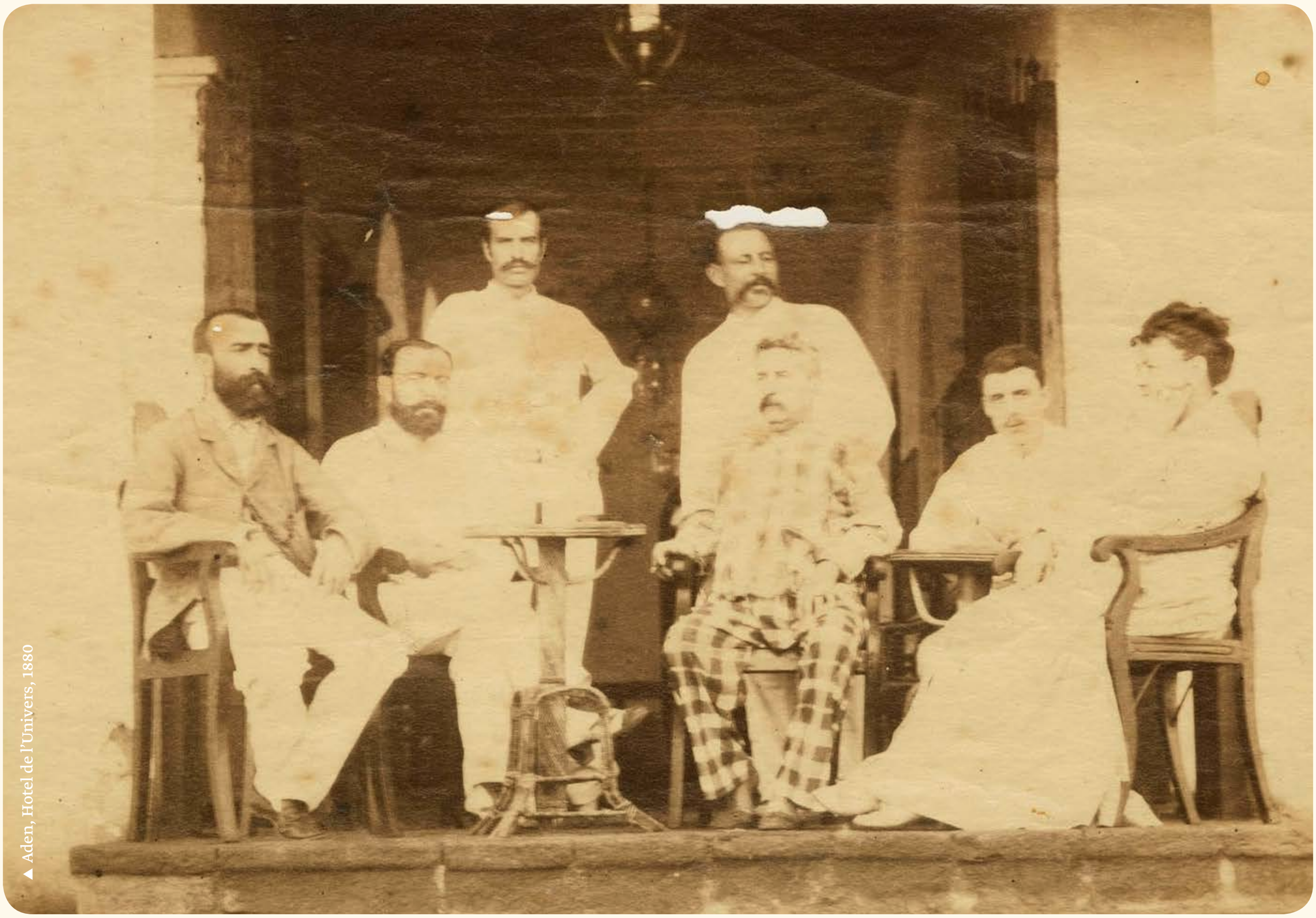
في 20 أكتوبر، 1878، غادر «رامبو» مسقط رأسه «شارلفيل»، ومضى إلى الإسكندرية، فقبرص.. لكنه، بعد إقامة قصيرة في الجزيرة، عاد -مكرهاً- إلى فرنسا، بعد إصابته بحمّى التيفويد. وما إن استعاد عافيته حتّى ركب البحر، من جديد، ورجع إلى الإسكندرية، فقبرص. في 30 يوليو 1880 غادر الجزيرة منحدراً إلى الجنوب، ليزور عدداً من المدن مثل جدّة والحديدة، باحثاً، دون جدوى، عن عمل يؤمّن له حياة كريمة. في أثناء رحلته، تعرّف إلى تاجر فرنسي دعاه إلى الذهاب إلى عدن، التي ازدهرت تجارتها بعد أن أعلنها الإنجليز منطقة حرّة. وبعد قطع مسافات طويلة، يصل إلى مدينة عدن مرهقاً، وقد دبغت أشعّة الشمس وجهه الطفوليّ.

هكذا، اختفت، شيئاً فشيئاً، لدى رامبو، صورة الشرق بوصفه مصدراً من مصادر الفكر الذي يمدّ جذع الثّقافة الغربية اليابس بماء الروح والإبداع، وبات الشرق لديه سوقاً كبيرة، تُعقد فيها الصفقات من

أشار، في إحدى رسائله، إلى أنه لا يشتري من مدينة «لياج» البلجيكية إلاّ الأسلحة المستعملة، وهي الأسلحة التي تخلّت عنها الجيوش الأوربية لضعف أدائها، فيبيعها إلى الأفارقة بخمسة أضعاف ثمنها

تقول شقيقته «إيزابيلا»: إن رامبو كان يردّد، في اللحظات الأخيرة من حياته، باللّغة العربيّة: «اللّه كريم.. اللّه كريم»، مسترفداً رحمة السماء، بعد أن أرهقه البحث عن المجهول

أجل الحصول على الربح السريع.
دخل «رامبو» عدن، في 7 أغسطس، 1885، ليكتشف المدينة التي تربض في قلب بركان خامد، فيكتب لأمّه، بتاريخ 28 سبتمبر، 1885، متذمّراً من ارتفاع حرارتها وجفاف أرضها وندرة أمطارها:
«عدن قائمة على فُوَّهة بركان خامد يدفنه ماء البحر والرمال.. لا نرى هنا، ولا نلمس سوى الحمم والرمال التي لا تنبت شيئاً.. كلّ ما يحيط بالمكان محض صحراء جافّة... المرتفعات، هنا، تمنع انتشار الهواء، فنُشوى في قاع هذه الحفرة كما لو كنّا داخل فرن لشيّ الطين... على المرء أن يكون مكرهاً على العمل من أجل خبز يومه، لكي يشتغل في جحيم كهذا...»
لكن رامبو قد تمكّن، بعد ذلك، من عقد وشائج قويّة مع هذه المدينة، حتى أنه تمنّى أن يُدفَن في مقبرتها البحرية، وكتب في إحدى رسائله إلى أهله أنّه لم يعد قادراً على مغادرة هذه المناطق، بعد أن أصبح معروفا فيها، ولو قُدِّر له أن يعود إلى فرنسا لأصبح «غريباً فيها.. بل عدّ حرارة عدن التي كان يتذمّر منها، في رسائله، أقلّ وطأةً من شتاء فرنسا البارد.
أمّا البيت الذي أقام فيه، فقد كان يرتفع في قلب المدينة البحرية (حيّ كريتر حاليّاً) قريباً من الساحل، حيث يجتمع خليط من الأجناس: عرب وهنود وصوماليّون وأفارقة وصينيّون، يتبادلون البضائع والمصالح.
كانت عدن، خلال القرن التاسع عشر، «محميّة» أو مستوطَنة بريطانية»، كما تصفها كتب التاريخ الإنجليزية، خاضعةً للإدارة البريطانية الهندية، اجتمع فيها، بعد إعلان «ستافورد هاينز» المدينة منطقةً حرّة، عددٌ كبير من التجار قدِموا إليها من كلّ جهات الأرض، حالمين بالثراء السريع.
عمل «رامبو» على التكيّف مع المجتمع العدني، فلبس اللباس اليمني، وتسمّى باسم عربي، ويقال إنّه كان يُشاهد في شوارع عدن حاملاً، في يد، مسبحة، وفي الأخرى مسواكاً. كما انكبّ على دراسة القرآن الكريم، حتى أنّه طلب من أخته أن ترسل إليه نسخة منه، مترجَمةً إلى اللّغة الفرنسيّة، ذيّلها والده، الضابط الفرنسي



▲ Aden, Hotel de l'Univers, 1880

في الجزائر، بالكثير من الشروح.

تمكّن «رامبو»، في وقت وجيز، من الحصول على وظيفة في شركة «باردي» لتجارة البنّ، يراقب -بمقتضاها- حسن أداء النساء الهنديّات العاملات في الشركة. ويصف «رامبو» صاحب الشركة، في مذكّراته الموسومة بـ «برّ العجم»: «كان رجلاً غريب الأطوار، لا يخالط الأوربيّين، قريباً من اليمنيين، وقد تمكّن من تعلُّم لهجاتهم... يبحث -بإلحاح- عن عمل.. تبدو عليه علامات الإرهاق..»

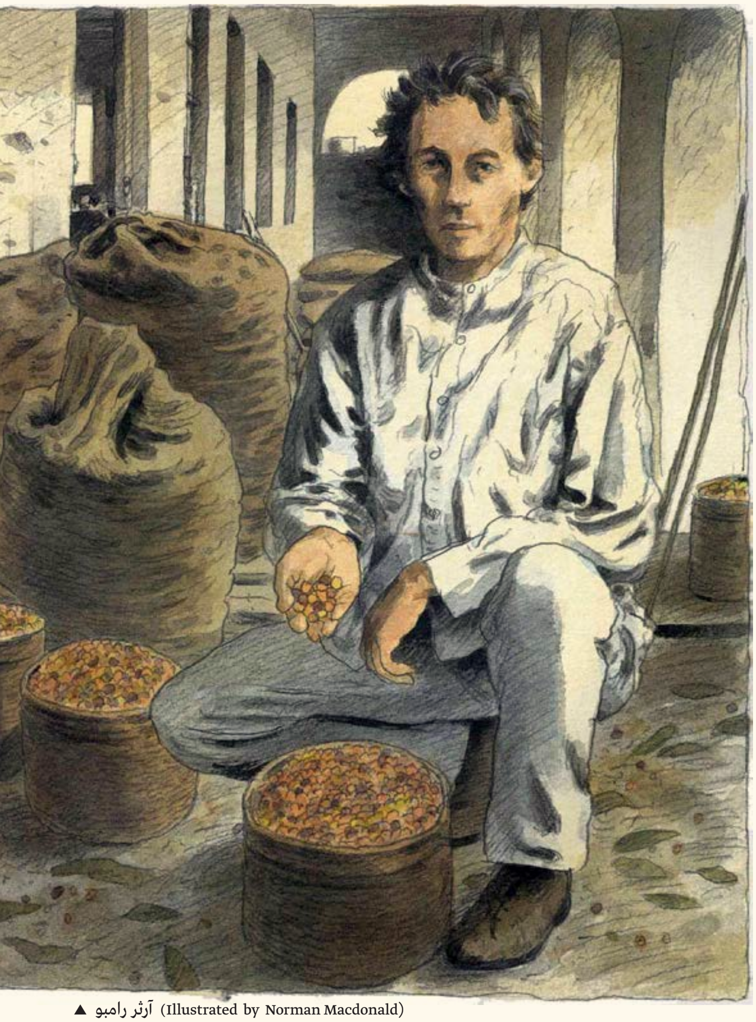
استمرّ عمل «رامبو» في هذه الشركة أربع سنوات، تنقّل، خلالها بين مدينتَيْ عدن، وهرر الأثيوبية، ينجز أعمالاً شتّى. وحين تخلّت الشركة عن خدماته، في عام 1884، أسّس لنفسه نشاطاً تجاريّاً في مدينة هرر، في مجال البنّ، وقد أسهمت علاقته بالأسرة الإمبراطورية في الحبشة، في ازدهار تجارته ومضاعفة أرباحه، ويقال إنّه كان من الأوربيّين القلائل الذين كانوا يصدِّرون القهوة من موطنها الأصلي إلى البلاد الأوربيّة..

كانت هرر الأثيوبيّة، في تلك الحقبة، خاضعة للسلطة المصريّة، يؤمّها الأجانب لاقتناء العاج والمسك وجلود الحيوانات، كما كانت من أهمّ الحواضر الإسلاميّة في شرق إفريقيا، يختلف إلى مدارسها الدينية الطلّابُ الأفارقة والمصريّون. وقد أتاحت هذه المدينة المزدهرة لـ«رامبو» مضاعفة أرباحه، حيث راجت تجارته، ونفقت بضاعته، وأصبح ينافس كبار التجّار الأوربيين والهنود والصينيّين، كما أتاحت له الاقتراب من الدوائر السياسية الأثيوبيّة، والتأثير في قراراتها.

لم يقتصر «رامبو» على تجارة البنّ والعاج والتوابل، بل أضاف إليها، في هرر، تجارة الأسلحة التي كانت منتشرة، خلال القرن التاسع عشر، في القرن الإفريقي.. ويقرّ «رامبو» في رسائله بأنّ هذه التجارة كانت محفوفة بالكثير من المخاطر، إذ حظرتها بعض الجهات الأجنبيّة التي كانت تنوي التسلُّل إلى القرن الإفريقي، لبسط هيمنتها عليه. وقد وصف «رامبو»، في رسائله، ما كان قد تكبّدَه من أتعاب من أجل اقتناء الأسلحة، وما كان قد أقدم عليه من مغامرات من أجل تهريبها إلى إفريقيا.

ولا شكّ في أنّ هذه التجارة قد درّت عليه مالاً وفيراً، حتى أن كُتّاب سيرته يجمعون على أنه أصبح، في تلك الحقبة، «من كبار الأثرياء»، وقد ترك «رامبو» بعض الوثائق التي تضمّنت الأرباح التي جناها من هذه التجارة. فهو -كما أشار في إحدى رسائله- لا يشتري من مدينة «لياج» البلجيكية إلاّ الأسلحة المستعملة، وهي الأسلحة التي تخلّت عنها الجيوش الأوربية، لضعف أدائها، فيبيعها إلى الأفارقة بخمسة أضعاف ثمنها.

واللافت للانتباه أنّ كلّ الرسائل التي بعث بها، في تلك المرحلة، إلى أفراد أسرته، لم تتضمن أيّة إشارة إلى الشعر أو الأدب. فـ«رامبو» الشاعر، الذي فتح أمام اللّغة الفرنسية آفاقاً استعارية جديدة، قد توارى، إلى الأبد، وترك وراءه تاجراً مغامراً، يقطع مئات الأميال على قدميه، مقتحماً مفازاتٍ وجبالاً تتعاوى فيها الأوابد، من أجل ترويج بضاعته، واكتشاف أسواق جديدة. كلّ


▲ آرثر رامبو (Illustrated by Norman Macdonald)

رسائله كانت تدور حول مشاريعه التجارية، وخساراته، وأرباحه، و-ربَّما- عرّج، أحياناً، على رغبته في الزواج والاستقرار، لكنه لم يُشِر إلى منجزه الشعري الذي بدأ ينتشر في فرنسا، ويقتحم أسوار الجامعات، ليصبح عنواناً للحداثة في أنصع صورها. لقد انطفأ ذلك البركان الذي ملأ هديره فرنسا، وتناثرت شظاياه في كلّ البلاد الأوربيّة.

أحسّ «رامبو»، خلال رحلاته الطويلة، بآلام في ركبته، ما فتئت تزداد وتيرتها. كلّ الأدوية المتوفِّرة في هرر بدت غير ناجعة، فالآلام قد تفاقمت حتّى أقعدت «رامبو»، بعد مدّة قصيرة، عن السير، وبات المشّاء الذي جاب شطراً من أوربا، وبعضاً من الحبشة، على قدميه، غير قادر على المشي. وقد وصل به الأمر إلى استئجار 16 حمّالاً إفريقيّاً، أخذوه على نقّالة، مسافة 300 كلم، قاطعين به الصحراء الفاصلة بين مدينة هرر وميناء زيلع. وفي رسالة بعث بها إلى أمّه، في 30 نيسان، 1891، صَرَّح «رامبو» بأنه، كان لا يقوى على الحراك.. وأنّه كان ينظر إلى ساقه تزداد تورُّماً، ساعةً بعد أخرى.

لم يتمكَّن الطبيب الإنجليزي الذي فحص رامبو من معالجته، واكتفى بدعوته إلى الالتحاق بفرنسا. وفي 9 مايو، 1891، استقلّ «رامبو» السفينة المتّجهة إلى مرسيليا، مرفوعاً على نقّالة،



▼

تمكّنت السفارة الفرنسية من تحديد بيت رامبو في عدن، فأعادت ترميمه وحوّلته إلى مجمّع ثقافي، لكنّ الأحداث التي عصفت بالمدينة أجبرت السفارة على التخلّي عن البيت لفائدة مستثمر يمني، حوّله إلى فندق، وكافيتيريا

متخلّياً عن تجارته المزدهرة. وما إن وصل إلى فرنسا حتّى دخل أحد مستشفياتها منهوك القوى.

رافقت «إيزابيلا» أخاها في أيّامه الأخيرة، وهو يكابد ألماً مبرّحاً تفاقم بعد بتر ساقه، وقد سمعته يهتف، في حالات صحوه، باسم خادمه «جمعة»، بل إنّه تحامل على نفسه، ذات مرّة، وقدّم لها مبلغاً ماليّاً، طالباً منها أن تسلّمه إلى الرجل الذي ساعده في مجاهل إفريقيا. كان، في نومه المتقطّع، يتحدّث، بصوت مرتفع، عن البحر والسفن والقلاع والصواري، وكأنّه يريد أن يستأنف الرحلة التي بدأها قبل عشر سنين.

في الساعة الثانية من ظهيرة اليوم العاشر من نوفمبر، 1891، توفّي «رامبو» عن سبعة وثلاثين عاماً، بعد إصابته بسرطان العظم. وتقول «إيزابيلا» إن «رامبو» كان يردّد، في اللحظات الأخيرة من حياته، باللّغة العربيّة: «الله كريم.. الله كريم» مسترفداً رحمة السماء، بعد أن أرهقه البحث عن المجهول.

ما إن انتهت فترة الحداد، حتّى كتبت «إيزابيلا»، في 19 فبراير، 1892، رسالةً إلى قنصل فرنسا في عدن، أرفقتها بمبلغ قدره 3000 فرنك، وطلبت منه أن يبحث عن رفيق «رامبو» في محنته، ويسلّمه المبلغ المالي. لكن القنصلية لم تتمكّن من العثور على خادم «رامبو»، ويعتقد بعض كتّاب سيرة الشاعر أنّ «جمعة» كان قد تُوفّي بعد «رامبو» بأشهر قليلة.

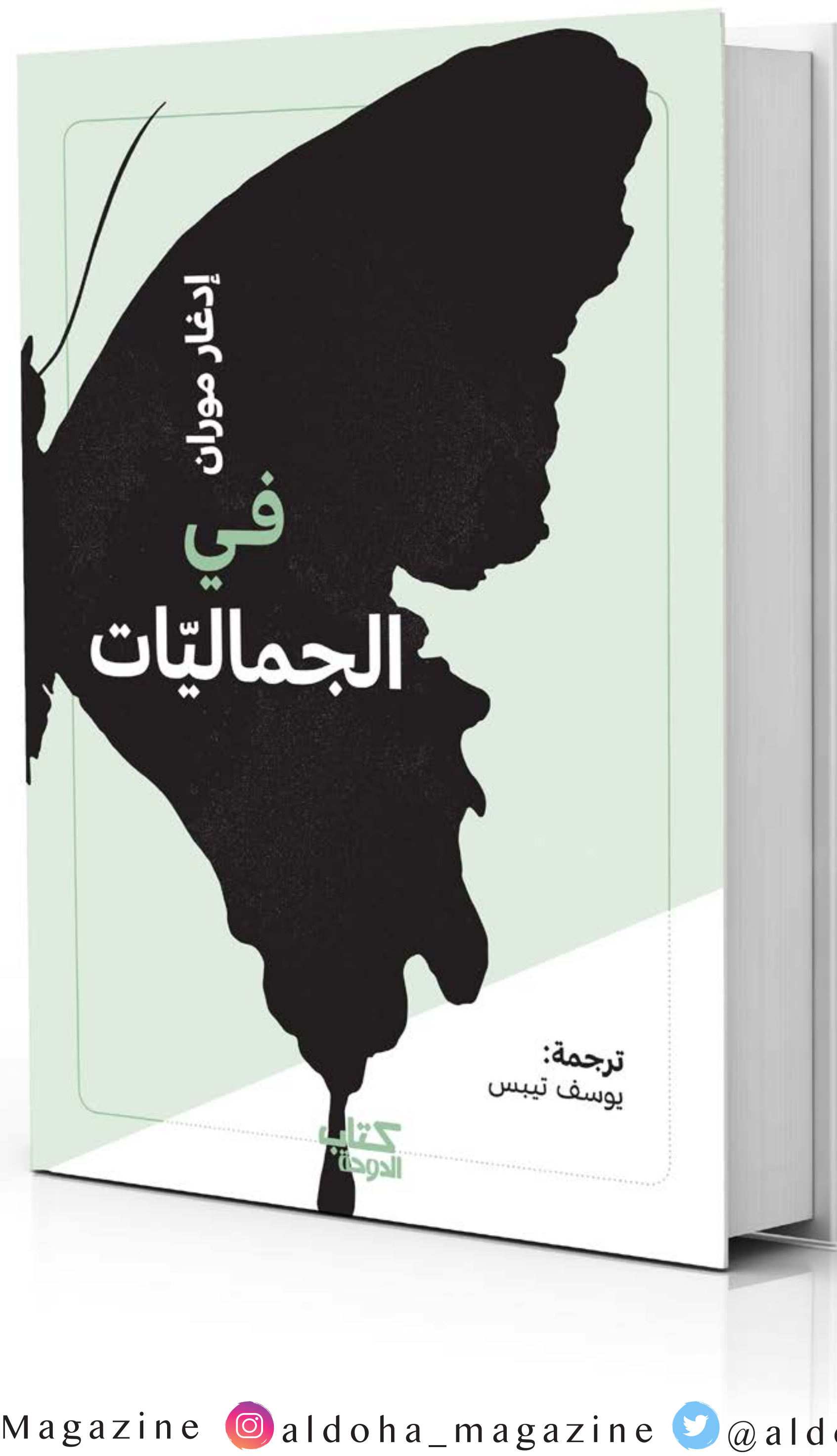
جاء في كتاب «رامبو الشاعر والإنسان»، الذي أصدره المركز الثقافي في عدن، أنّ «رامبو» كان يرغب في أن يُدفَن في عدن.. وتصرِّح أخته، مؤكِّدةً هذه الرغبة: «لو كان الأمر بيده، لوَدَّ أن يُدفَن في عدن، و-بالتحديد- في المقبرة التي تقع على ساحل البحر، على مقربة من بيته».

في عام 1991، تمكّنت السفارة الفرنسية من تحديد البيت الذي كان يسكن فيه «رامبو»، في عدن، مستأنسةً بمذكّرات «باردي» صاحب الشركة التي عمل فيها الشاعر، فأعادت ترميمه وحوّلته إلى مجمَّع ثقافي، لكنّ الأحداث التي عصفت بالمدينة أجبرت السفارة على التخلّي عن هذا البيت لفائدة مستثمر يمني، حوّلَه إلى فندق، وكافيتيريا!.

■ محمَّد الغزّي

صدر حديثاً في

كتاب الدوحة



أومبرتو إيكو

آخر الكلمات

حينما بدأت قصّة غرامي بمدينة ميلانو، كان «أومبرتو إيكو» الذي يكبرني بأربعة أعوام، فقط، هو رئيس التحرير الفعلي لدار النشر «بومبياني». سعيت إليه، ورتَّبت معه لقاءً، وعرضت عليه رسومي. بلحيته الحليقة، وبشرته الفاتحة المناقضة لشعره الداكن، بدت قسماته مريحة، وصوته يشارف، بين الحين والحين، تخوم الزعيق. لم يفقد، قطّ، تلك النبرة المعدنية الحادّة.

لم يسفر اللقاء عن شيء، وما يبقى منه، في ذاكرتي، هو نبرة الطيبة التي لم يكشف عنها «إيكو» فعلياً، ولكنه -بدلاً من ذلك- فكَّر فيها. وقد كان «إيكو» يفكِّر في كلّ شيء، سواء أكان شيئاً عليه أن يفعله، أمِ كان شيئاً يجب أن يُفعل من أجله. وأعتقد أنه فكَّر، أيضاً، تفكيراً كثيراً في موته، مثلما فَكَّر وخطَّط لما سيكون من بعده. جاء لقاؤنا في أعقاب رسالة، بعثها إليَّ في عام 1977، يطلب فيها أصلَ رَسم، رَسَمته له، ونُشِر في «كوربيرا دي لا سيرا».

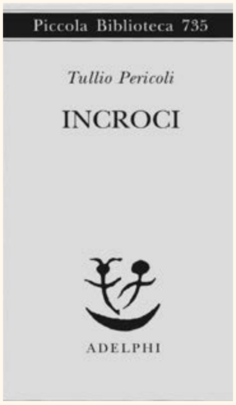
وأضاف في رسالته: «ومن المؤكَّد أنني لا أستطيع أن أقابل معروفك هذا بأن أرسل إليك مُسَوَّدة إحدى مقالاتي، بما فيها من تصحيحات بخطّ اليد؛ فهذه، في أفضل السيناريوهات، لن تكتسب قيمة المقتنيات إلّا في غضون قرنَيْن، أي بعد قيام القيامة».

أصبحنا، بحسب ما باح به لـ«سلفيا باليسترا Silvia-Ballestra»، صديقَيْن حميمَيْن، واتَّسعت صداقتنا لتشمل أبناءنا وزوجتَيْنا وأحفادنا. قضينا، معاً، وقتاً في ميلانو، ومونت دتشريوني-Monte Ce-rignone، وفي بيتنا في روسارا-Rosara، على مقربة من أسكولي- Ascoli. وأكثر ما أحبَّه في بيت روسارا هو المسبح الذي كان يقضي الساعات طافياً فيه، فيبقى جسمه عائماً بلا تدخُّل منه. أتذكَّر أنه كان يسترخي على الماء بدون حركة، تاركاً المويجات الناشئة عن حركة غيره من السابحين تهدهد جسمه، برقّة. ولم يكن في بيته، في مونت دتشريوني، مسبح، آنذاك. كان يقول لي: «تكلَّم مع ريناتي في الأمر. قل لها إنه ليس بالشيء العظيم». لكن زوجته، ريناتا، لم تكن تريد مسبحاً. كان لديها ما يكفيها وقتَ استضافة، جميع أصدقائه، ولم تردْ أن تتولى أمر مسبح أيضاً، ثم أقيم له مسبح.

«إيكو»، من أكثر الناس الذين قضيت وقتاً معهم، وأقلّ هم معرفةً من قِبَلي، وهو جدير بالرقم القياسي لأقلّ الناس حديثاً عن أنفسهم، حتى في رواياته، وحتى لحظة النهاية. وإنني على يقين من أنه أنكر على نفسه متعة عظيمة؛ فمَن ذا الذي لا يروق له أن يتكلَّم على نفسه، بل أن يتشاكى في بعض الأحيان؟.

ولأنه لم يكن يحبّ أن يبوح للآخرين، لم يكن الآخرون يميلون إلى البوح له. ما كنت لأحكي له، قَطّ، عن أمر أحزنني أو عن قصّة غرام أوجعت قلبي. كان سيحاول أن يسرّي عني، بالطبع، لكن -ربَّما- بأن يلقي عليّ نكتة. كان فهم ذهنه أيسر من فهم قلبه. كان مهتمّاً بالذهن، ومن أجل ذهنه عاش. أمّا الأرواح عنده، فكانت غبيّة، ولعلَّه كان على حقّ؛ فالروح تثير المشاعر لا العقل. الروح تفضي إلى اللامنطق. الروح تهذي.

حدث مرَّةً ـ وقد صرنا كبيرَيْن، في ذلك الوقت ـ أن كنّا جالسَيْن على عشب الفناء في مونت دتشريوني. قلت: «أومبرتو، هل يكون في ذهنك شخص، وأنت تكتب؟ في حالتي نعم. يكون في ذهني قارئ أو اثنان، ليسا ثابتَيْن، طيلة الوقت،



مصدر المقال:
بورتريه من كتاب «Incro-ci»، لـ«Tullio Pericoli»، ترجمه إلى الإنجليزية: Oonagh Stransky، ونُشِر في نيويورك في «رفيو أوف بوكس».

لكنهما أصحاب أو أناس لهم مكانة كبيرة عندي. ماذا عنك؟». لم يكن في ذهنه أحد، قَطّ. قال: «ربّما، هم الذين سيقرؤون عملي بعد بضعة أجيال».
قلت: «وماذا عن النقّاد والملايين من قرَّائك؟»
- «نهائياً».
ألذلك اختار ألّا يتكلَّم عن نفسه؟ هل اعتبرنا (وهو محقٌّ إن فعل) غير جديرين بالإنصات إليه؟
في سنواته الأخيرة، ازداد سماحةً وطيبةً. وصار يبذل الكثير ليعين أصدقاءه. حدث، ذات مساء، أن تحرَّكت مشاعري، إذ رأيته جالساً في مؤخِّرة قاعة، شهدت حفلة تافهة لإطلاق أحد كتبي. كم عشقت ذلك الرجل!؛ وليس ذلك لأن حضوره كان يجعلني أبدو بخير، وكان يعرف ذلك، ويعرف أني أعرفه فحسب، بل لأنه أراد -حقّاً- أن يمنحني هدية حضوره، أيضاً. وحدث أن عرفنا نحن -أصدقاءه- بمرضه، وانتابنا قلق عميق


تولیو بیریکولي ▲

عليه، فصرنا نتناقل فيما بيننا أخبار صحَّته، لكن إيكو نفسه لم يفصح، قَطّ، عن شيء.
ذات مساء، في منتصف نوفمبر، بعد حفلة إطلاق كتاب «فكرة المسرح - L'idea del teatro»، لـ«جيليو كاميلو--Giulio Camillo» ، ذهبنا جميعاً إلى عشاء. كان إيكو من بين المتحدّثين الضيوف فيه ، هو والمحرِّرة «لينا بولزوني-Lina Bolzoni»، وقد حضرت ذلك العشاء، أيضاً، «فلور جايجي-Fleur Jaeggy»، ناشرة الكتاب مع «روبرتو كالاسو». طلبت «فلور جايجي» من النادل بعض الزبْد، واستعمال الزبْد على المائدة تقليد أوربي شمالي، لا يمكن أن يُرى مُتّبَعاً في مطاعم ميلانو. كان على «فلور» أن تصرَّ قبل أن يستجيب لها النادل، ويحضر الزبْد. ولدى رؤية الزبْد، استردَّ إيكو وعيه، فجأةً، كمن أفاق من إحدى نوبات شروده التي كانت تغوص به في هاوية سرّيّة، وكنّا قد اعتدناها؛ فكثيراً ما كان يسمح لأفكاره أن تهيم وهو جالس إلى المائدة، أو وهو بين أصدقائه، كما في تلك الحالة. تناول ملعقة، فاغترف من الزبْد قطعة هائلة، فَرَدها على قطعة صغيرة من الخبز، ولم تكن «ريناتا» حاضرة في تلك الليلة، فلعبت أنا دورها.
قلت: «أومبرتو، لن تأكل هذا فعلاً». فنظر إليّ نظرة طفل يخرق القواعد، في سعادة. قلت: «هذا يضرّك».
قال في عزّة: «ولهذا أفعله»، مُلقياً بالزبْد في فمه. ونظر أحدنا في عيني الآخر. تلك كانت اللحظة التي تكلَّمنا فيها، لآخر مرّة، قلت له بعينيّ: «أنا أفهمك».
مات في فبراير التالي. نصف سكّان ميلانو حضروا جنازته، جنازته الحاشدة. فقد جعلته إجادته لكثير من اللّغات يتكلم مع العديد من الناس، والكثير منهم، على مدار السنين.
في اليوم السابق على جنازته، اجتمعنا في بيته في بيازا كاستيلو-Piazza Castello لنكون برفقة «ريناتا» وأبنائهما وأحفادهما. وفيما كنت أتجوَّل في غرفة المعيشة، استحال عليّ أن أنفصل عنه ذهنيّاً. بدا لي وكأنه حاضر في الصالة، وفي مكتبه، لكنني لم أجد في نفسي الشجاعة لرؤيته.
«هل ستمشي بدون أن ترى نونّو؟»، سألني حفيده «إيمانويل» وأنا أسير باتِّجاه الباب. صبيّ رزين في الخامسة عشرة، أمسكني من ذراعي وقادني، عبر ممرّ طويل في القاعة، تصطفّ على جانبيه الكتب. كان إيكو مستلقياً في مكتبه مع مكتبته، محاطاً بمسرح كتبه المدرج. لوهلة، ذكّرني انضباط تابوته التامّ بمسبحه. توقَّفنا على بعد أقدام قليلة، ناظرين، من الجنب، إلى التابوت المفتوح، فلم أرَ غير جانب وجهه، ونصف بطنه، وطرف حذائه. وجهه بدا ورديًّا، كأنما ألهبته الشمس.
قلت: آهِ، «إيكو» يتظاهر بالموت، وما هو إلّا طافٍ على ظهره.

■ توليو بيريكولي

□ ترجمة: أحمد شافعي

جان بول دوبْوَا:

أبطالي خارجون عن المألوف، لأنهم يملكون الوقت

حصل الكاتب الفرنسي «جان بول دوبْوَا»، مؤخَّراً، على جائزة «غونكور» لهذا العام، عن روايته «لا يسكن الناس جميعاً هذا العالم، بالطريقة نفسها» الصادرة عن دار «أولفييه». وتعتبر الجائزة تتويجاً لمسيرته، التي حصد، خلالها، العديد من الجوائز، منها «فيمينا» و«فناك»، عام (2004)، عن رواية «حياة فرنسية»، وجائزة «ألكسندر فياليت» عام (2012) عن «قضيّة سنايدر». كما تَمَّ تحويل روايته الأولى «أنا وكندي» الصادرة عن دار «لوسوي»، عام 1996، إلى فيلم سينمائي عام (1999)، كما حصلت على جائزة «فرانس تليفزيون» عام (1996).
درس «دوبوا» علم الاجتماع، ثم بدأ مسيرته مراسلاً رياضياً لجريدة «سود ويست»، ثم مراسلاً سينمائياً لدى جريدة «ماتان دو باري»، ثم مراسلاً عامّاً لجريدة «لو نوفيل أوبسيرفاتور». ألَّفَ ما يزيد على عشرين رواية وكتاب.
فيما يلي حوار مع الكاتب حول روايته الفائزة، والمنشور في مجلّة «لير»، عدد أكتوبر الماضي.

تأخذنا روايتك إلى عوالم مختلفة، للغاية، لاسيّما بيئة السجن، وتمزج بين الدراما والفكاهة. ما الذي شكّل نقطة البداية؟ وكيف عملت على صياغتها؟

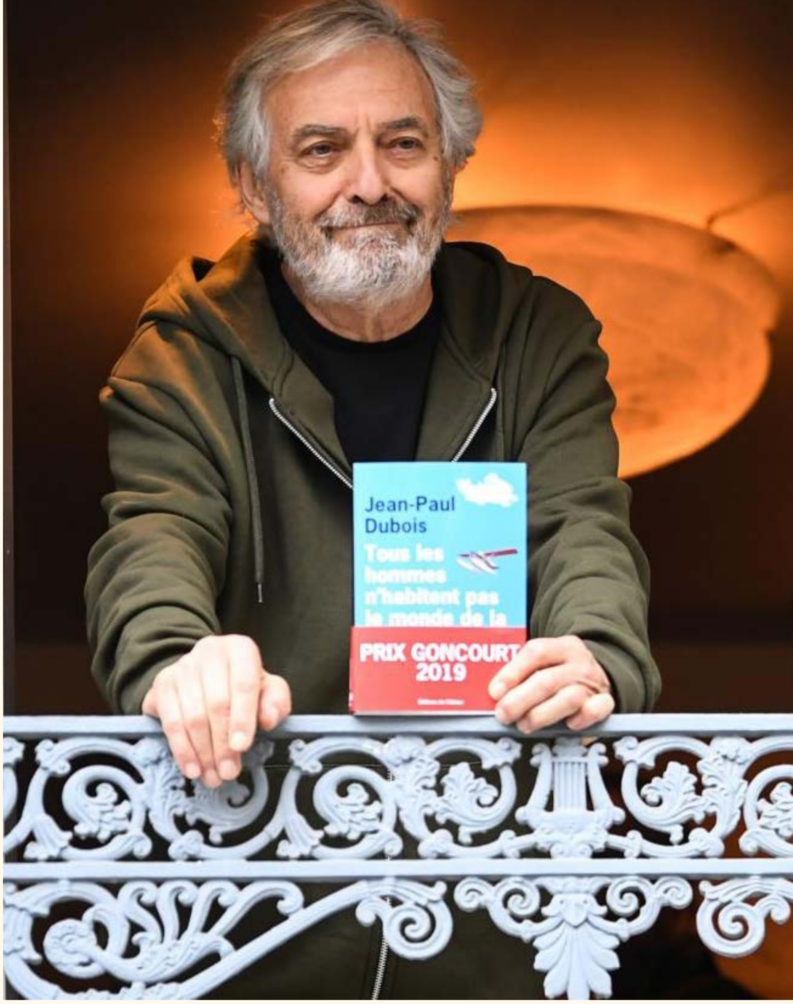
- أردت أن أروي عالم السجن، وإمكانات الخروج منه، من خلال مواجهة مباشرة ومؤثِّرة للسجينَيْن: «بول» و«باتريك»، اللذين يتقاسمان زنزانة في «مونتريال». وهكذا، انطلقت من الداخل، من خلال شخصية محبوسة، لا تملك وسيلة للفرار سوى اجترار حياتها السابقة. يقوم السجن بصقل الكثير من الأشياء. فالمساكنة تفرض قواعد، يتوجَّب على رجلَيْن، لا يعرف أحدهما الآخر، التقيُّد بها، لسنوات. أشعر بذهول شديد من ظروف الحياة في السجن؛ وذلك لكوني قد تردَّدت على هذه الأماكن، مرّات عديدة، واستمعت إلى شهادات السجناء. عندما يتمّ وضع رجلَيْن، لم يختر أحدهما الآخر، في مثل هذا الموقف، فهما يركّزان على ما هو جوهري، بسرعة؛ كالتعامل مع مشكلات التغذية والنظافة، وعلى ماضيَيْن مختلفَيْن بشكل جذري، وهذا يخلق طرقاً للهروب، ملموسة وأكثر إمتاعاً، في هذه البيئة المرعبة. إن احتجاز رجلَيْن هو منحهما الفرصة لاستعادة كلّ ما كانت تمثّله الحريّة.

شيئاً فشيئاً، ومن خلال ذكريات الماضي، نكتشف هاتَيْن الحياتَيْن، حيث يتعارض كل شيء. في مقابل «بول»، البطل، هناك ملاك الجحيم «باتريك هورتون»، العملاق الذي يخشى طبيب الأسنان، ومصفف الشعر، والجرذان. من الذي ألهمك هذه الشخصية القويّة والهشّة، في الوقت ذاته؟

- «باتريك» هو تجسيد لأشخاص قابلتهم، ضخام، لكنهم يخافون الجرذان... كان حفيدي «آرثر»، أيضاً، مصدر إلهام لي، فهو يعاني من رهاب الشَّعْر، أيضاً. كان يعتبر أن شَعْره جزء لا يتجزَّأ من جسده، وأن قصّه مؤلم. وعندما كان طفلاً، كانت والدته هي، فقط، من بإمكانها قص شَعْره، وكنت أجده أمراً استثنائياً. إن كلّ ما أرويه في كتبي ينبع من ذاكرة لم تغادرني، مثل صورة «آرثر» الذي كان يصاب بالذعر والإغماء... شخصية «هورتون» مألوفة، للغاية، بالنسبة إليّ، وهو شخص ودود أيضاً، باستثناء شخصية واحدة غير ودودة، إن بقيّة شخصيات الرواية هم أشخاص، يمكنني قضاء الوقت معهم، بسهولة.

هل كانت العودة إلى الوراء وسيلة للحفاظ على التشويق المستمرّ، حول «بول هانسن»؟

- اتَّخذ كلّ شيء مكانه، عن طريق الصدفة. في البداية، جاءتني فكرة هذه الشخصية من خلال حارس في مبنى، اعتمد أصحابه على خدمات هذا المراقب الماهر الذي التقيت به في كندا. ثم راكمت شخصية «بول» كلّ الشخصيات الأخرى من حولها. معظمها مستوحى من أشخاص موجودين بالفعل. رواياتي مصنوعة من الذاكرة، ومن الحظّ ومن الصدفة. على سبيل المثال: تحدَّثت، في بداية الرواية، عن كنيسة في «سكايجن» (الدنمارك). في أحد الأيّام، رأيت قصاصة كُتِب عليها «الكنيسة المطمورة». أعدت بناء القصّة الحقيقية لذلك المبنى الذي هجره الكهنة، وهكذا، أنجبَتْ هذه القصّة الاستثنائية شخصيةَ القسّ. إن هذا هو ما أسمِّيه «الملاك الصغير، حارس الكتب».



جان بول دوبوا ▲

إذن، كان والد «بول» قسّاً دانماركياً، وكانت عظته الأخيرة عنواناً للكتاب؟ ماذا يعني هذا العنوان؟

- منذ عشرين عاماً، نظراً لأنني متزوِّج من كنديّة، وأعرف ذلك البلد جيّداً، إذ أتردَّد عليه كثيراً، طلب مني (المتحف الكندي للطبيعة) إعداد كتيّب تاريخي حول «روبرت راسين»، وهو فنّان أعرفه جيّداً. هو مجنون، لكنه طيِّب القلب. لقد قام «روبرت» بعزف مقطوعات «إيريك ساتيه» في الأوبرا، طوال ثلاثة وعشرين يوماً وليلة. كان شخصاً رائعاً، رويتُ قصَّته في ذلك الكتيِّب، وعندما أردت العثور على عنوان، لا أعرف لماذا اخترت «لا يسكن الناس جميعهم هذا العالم، بالطريقة نفسها». بعد عشرين عاماً، وجدت نفسي أضع العنوان نفسه ضمن اقتراحات لعنوان روايتي. بحثت على شبكة الإنترنت، للتأكُّد من عدم وجوده، ولكن خاب أملي. انهرت قبل أن أنتبه إلى أن اسمي موجود أسفل العنوان، وعندئذ، تذكَّرت كلّ شيء. إن هذه هي الطريقة التي أكوِّن بها كتبي: إنها طبقات من الصدف والذاكرة... أحبّ هذا العنوان لأنه يحمل رسالة اختلاف وتسامح واحترام. كلّ شخص يقود قاربه بطريقته الخاصّة؛ أي لا سلطة للمرء على أيّ شخص، ولا سلطة لأيّ شخص عليه، ويمثِّل السجن الحَدّ الفاصل الذي تصير فيه السلطة متحكِّمة في كلّ شيء.

يشكِّل «بول» مع «وينونا» ثنائياً مذهلاً، «وينونا» امرأة هندية قويّة وقائدة طائرة مائية، بينما هو شخص ضعيف وحسّاس للغاية...

- إنهما شخصان نبيلان، من عالمين مختلفين: هي أكثر ذكوريّةً، وتتعامل مع الآلات، فقط. بينما هو عطوف، للغاية، لأنه يتعامل مع البشر أكثر. كما أنها تؤمن بالاعتقاد الهندي حول إمكانيّة الحياة مع الأموات، وتجعل «بول» يكتشف هذه الثّقافة، ثم يصلان إلى الوئام لأنهما متحابّان.

ستعلِّمه حبّ الطبيعة، أيضاً؛ ما يمنحنا صفحات جميلة...

- إنه عالمي الخاصّ، ولا أجد صعوبة في وصفه. تسير حياتي اليومية على إيقاع الطبيعة. بالنسبة إليَّ، يتجسَّد هذا العالم، في المقام الأوَّل، من خلال وصف الحبّ الذي نكنّه للحيوانات، والمحادثات التي يمكن أن نجريها معهم. أنا أتحدَّث إلى كلابي. أعيش بين الأشجار التي زرعها والدي، وعندما تموت إحداها، نتحدث حول الأمر. إنه عالم يسحرك بجماله، لكنه ليس مثاليّاً، على الإطلاق. لست ساكن المدينة الذي دُهش من روعة الطبيعة، وأعلم أنه بإمكانها أن تكون مروِّعة. من الضروري الاقتراب من هذه البيئة بوصفك عابراً، دون الرغبة في الهيمنة. أدرك أنني عنصر من بين عناصر أخرى، حيوان من بين حيوانات أخرى. عندما أتحدَّث عن هذا «العالم»، أستثني البشر. منذ سنوات، درست التواصل بين الأشجار والأنظمة الجذرية والجزيئية... لكن النباتات معقَّدة، للغاية، ويصعب فهمها. كنت أفضِّل دراسة الذكاء الحيواني، والترابط والنظم الإيكولوجية، وأنا طفل، بدلاً من تعلُّم بعض الأشياء. بدأت تُنشَر بعض البرامج الوثائقية، اليوم، حول هذا الموضوع، تقريباً.

لا بدّ أنك حزين، للغاية، في هذا العالم الذي يسيء معاملة الطبيعة...

- لا أستوعب الأمر، لكنني لست ناشطاً بيئياً. حسناً، يعتمد الأمر على معنى كلمة «ناشط». لقد توقَّفت عن تناول اللحوم في اليوم الذي ربطت فيه بين طعمها وطعم الدم. لم يكن النشاط البيئي هو ما دفعني إلى الوعي، بل شيء أعمق من ذلك. انطلقت من أشياء بسيطة، للغاية: ربط شرائح اللحم بمعاناة الحيوانات، وفرز القمامة، وغير ذلك. عندما يتعلَّم المرء الاحترام فليس بإمكانه التراجع، أبداً. ترجع المأساة العظيمة إلى ما قبل خمسين عاماً، عندما لم يتعلَّم البشر ما كان يجب أن يتعلَّموه: الترابط والاحترام؛ لأننا نشكِّل مجموعة واحدة مع بقيّة الكائنات. اليوم، بفضل جمعية «L214»، اكتشفنا معاناة الحيوانات. لقد عرفتها منذ الطفولة، حيث كلّ شيء يبدأ من خلال التربية. على سبيل المثال: يجب إخبار الأطفال أن اللحوم التي يتناولونها تأتي من عجل أخذناه من والدته، وقتلناه بطريقة مروِّعة. الوعي لا يأتي من خلال التجريد، علينا أن ننظر إلى الواقع كيفما كان. أنا مؤمن بأن كارثة عكسية هي ما سيوقف تقدُّم الكارثة.

ألهذا السبب، نشعر ببعض السوداوية في كتبك؟

- إن البشر أصغر من أنفسهم. تحدَّثت «إليزابيث دي فونتيناي» (فيلسوف قضيّة الحيوان) عن الموت الوشيك الذي تشعر به الحيوانات. لقد ورثنا، جميعاً، هذا الشعور، لكننا نقوم بطمسه. نشعر به، نتعايش معه، لكننا نتهرَّب منه، في أغلب الأحيان، لأنه شعور غير مريح، لكن الحيوانات تشعر به، طوال الوقت. وشخصياتي، مثل الحيوانات التي يعيشون معها، تشعر بالموت



الوشيك. علينا السعي لكي نكون، مثلهم، رجالاً يحاولون، بكلّ طاقتهم، الالتزام بمبادئهم.

حتى وإن هبطوا في السلَّم الاجتماعي، مثل «بول»؟

- التدنّي من طبيعة الأمور. لكن هناك ما هو أكثر من مجرَّد الهبوط: إنها الإهانة والاحتقار. إلى أيّ حَدّ يقبل البشر الإذلال؟ يكفي أن ننظر إلى كلّ تلك الوظائف التي يشغلها المرء، والتي سيواجه خلالها -وفقاً للطبقة الاجتماعية التي ننتمي إليها- هذه المعاناة. في السابق، كنّا نطلق على هذا الأمر تسمية «الإجهاد في العمل»، واليوم نسمِّيه «الإذلال... إلى حَدّ المبالغة». يتقبَّل الحيوان المعاناة، ولكن هذا لا يعني أن نتمادى، لأنه سيتمرَّد في لحظة ما. وإذا كان البشر، هنا، اليوم، فالأمر ليس صدفة. كان علينا أن نغرق في المهانة، لننهض من جديد.

قمت بحماية نفسك من هذه المعاناة، من خلال مهنة الكاتب. ما علاقتك بالكتابة؟

- هناك طرق عديدة لممارسة هذه المهنة. بالنسبة إليَّ، لم يكن الهدف، أبداً، هو الكتابة، بل كان البقاء على قيد الحياة، والعيش بشكل أفضل. الكتابة هي الوسيلة الأكثر متعةً، والأقلّ غباءً، للعيش. لم يكن المال هو مشكلتي بل الوقت، ولا أبالي بالباقي. الكتابة هي شراء الوقت لنقوم بما نريد: العيش مع الكلاب، وتربية الأطفال، وتأليف الموسيقى... الكتابة هي الثغرة التي عثرت عليها في هذا النظام، هي النشاط الذي من شأنه أن يوفِّر لي ما يكفي للعيش، ويجعلني أعمل لشهرين أو ثلاثة أشهر، ثم العودة، من جديد، متى أردت. وإذا كنت قد تمكَّنت من كتابة كلّ هذه الكتب، فذلك لأنني قابلت أشخاصاً خارجين عن المألوف، أشخاصاً يملكون الوقت. عندما يتجوَّل المرء في أماكن غريبة، ينتهي به المطاف، دائماً إلى لقاء أشخاص مثيرين للاهتمام، مثل «روبرت راسين». لطالما كان العمل الذي يُمنح لي مرتبطاً بالمكان الذي أتجوَّل فيه. تجوَّلت لمدّة ثلاثين عاماً من حياتي، ومن خلال التجوُّل تتكوَّن لديك مقاربة مختلفة للوقت وللآخرين، وهنا يكمن الحظّ.

هل هذه هي الطريقة التي كتبت بها روايتك الأخيرة؟

- لم أكتب هذه الرواية في حالة من السعادة، بل في حالة من السلام، بسهولة وبدون خوف، لكن مع بعض القلق، في البداية. كتبت طوال شهر مارس من هذا العام، بمعدَّل ثماني صفحات في اليوم، وأحياناً إحدى عشرة. كنت، دائماً، أحتفظ بكلّ التفاصيل التي كتبتها في اليوم السابق، في ذاكرتي. إنها تقنية تعلَّمتها بمفردي، وهي تمنحني سلاسة في عملي.

كتاباتك متخمة بالفكاهة. ما مصدر هذه السخرية والازدراء؟

- لقد تربَّيت بهذه الطريقة. أحبّ الضحك. لديَّ شهية لا تُصَدَّق للسعادة. أقضي ساعات في الضحك مع زوجتي. منذ أن عرفتها، ونحن نمزح، طوال الوقت، مثل الأطفال... إذا لم أضحك كلّ يوم إلى درجة البكاء، فسأكون أكثر الرجال تعاسةً، على وجه الأرض. لقد نشأت مع «هارا-كيري»، و«لا جول أوفيرت»، و«أكتيال»، و«لي نول»، و«جوزي آرثر»، من خلال «لو بوب-كلوب» الذي كنت أتابعه عبر الراديو في عمر الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. إنهم أناس يقدّمون مقاربة مختلفة للعالم. روح دعابتهم تعيش بداخلي، وإعادة إنتاجها ليس أمراً معقداً.

أميركا حاضرة في معظم أعمالك، لكنك اخترت كندا، هذه المرّة. هل أنت مستاء من الولايات المتَّحدة؟

- إنها أكثر بلد، لم أشعر فيه بالراحة. على مدار عشرين عاماً،

قابلت شخصيّات مثل «ترامب». تجوَّلت في أماكن خاصّة لمقابلة أشخاص مميَّزين، أشخاص على الحافّة، يعيشون حياة غريبة، لكنهم ليسوا بؤساء. كان هناك أشخاص جديرون بالاحترام، وكان هناك، أيضاً، «ترامبيّون»، في كلّ مكان. هذه هي أميركا التي تردَّدت عليها طويلاً. اقتبست منها قصصاً أضحكتني كثيراً، ورويتها لاحقاً. في فرنسا هناك، أيضاً، أشخاص منبوذون، لكنهم ليسوا رؤساء بلديّات أو شركات، باستثناء «باتريك بلكاني» ربَّما! على أيّة حال، هم ليسوا مجانين بالقدر نفسه. التقيت بأناس عملوا في «ناسا»، في إدارة صناديق التقاعد، أو على رأس الإدارات العليا، وكانوا يستعدّون لنهاية العالم، في مخابئ صغيرة تحت الأرض. نجد هذا النوع من المجانين في إدارة «ترامب». يتكوَّن المجتمع الأميركي من أفراد غريبي الأطوار، تماماً، و-ربَّما- خطرين، لكنهم يشغلون مناصب محترمة، ويلقون خطابات رنّانة.

ألا يمكن التنبُّؤ بأفعال «ترامب»؟

- من الرائع أن يستيقظ في الصباح، ويقرِّر شراء غرينلاند!، وسوف يستاء إذا لم يتمكَّن من شرائها. إنه عالم طفولي، لا يقدّم لنا أيّة عبرة؛ وهذا ما يثير رعبي. نخلق بأنفسنا هذه الوحوش، من خلال اختيارهم لشغل مناصب عليا. لماذا أنا مفتون بدول الشمال؟ لأن هذه الدول لا تعيش مثلنا؛ تنتخب شخصاً، وإذا ما ارتكب خطأً، ينسحب.

أما زلت مصرّاً على ألّا تصوِّت في الانتخابات؟

- بلى، مازلت كذلك. المترشِّحون لا يجعلونني أرغب في الذهاب إلى صناديق الاقتراع. ويعتبرني الناس غير مسؤول، بينما أنا أحبّ التصويت، لكن لصالح شخص يمكن أن أكون فخوراً به. ربَّتني والدتي، التي تنحدر من عائلة متواضعة، للغاية، على احترام الآخرين. الطفولة حاسمة، فهي تمنحك فهماً صارخاً للعالم. تعلَّمت كلّ الأشياء في ذلك الوقت: الأشخاص الصالحون، والأشخاص الذين ليسوا كذلك ... على سبيل المثال، كان «ميتران»، الذي لم يكن آخر المعتوهين، شرِّيراً من الدرجة الأولى، و-رغم ذلك- أثَّر في كثيراً، قبل أن يموت. لابدّ أنه قد شعر، بقوّة، بالموت الوشيك. عندما أرى، اليوم، خمساً وأربعين درّاجة نارية وخمساً وعشرين سيّارة ترافق شخصاً ما لأنه رئيس، أقول لنفسي: لابدَّ أن ضمير هذا الرجل غير مرتاح. على عكس رؤساء الوزراء في السويد أو النرويج، الذين يذهبون للتسوُّق، ويدفعون بواسطة بطاقات الائتمان الخاصّة بهم. اذهبوا الى هناك، وانظروا كيف يُعامَل السجناء، وكيف تتمّ تنشئة الأطفال! إنهم يتربّون في الطبيعة، على ثقافة الإحسان لا المنافسة، وأن الفشل ليس مأساة. مستوى حضارتهم أعلى بكثير من مستوى حضارتنا.

ألست مفتوناً بثقافتنا وتاريخنا، وبما يشكِّلنا بصفتنا دولة؛ وهو ما يُعتَبر قدوة؟

- كان أوَّل سؤال جادّ طرحته على والدي: «كيف يمكننا أن نكون بدون جنسية؟». كنت طفلاً، ولم أكن أحبّ فكرة الانتماء إلى بلد ما. أشعر بأنني وُلدت هنا عن طريق الصدفة. كنت سأرى العالم، بطريقة مختلفة، لو أنني كنت من مدريد أو إنجلترا. لا أشعر أنني حارس أو وريث لما أنجزه الناس من قبلي. أنا عبء عائلتي، وأحمل قصَّتها، ولا أبالي بالباقي، ليست تلك مشكلتي.

أنت متشبِّع بالأدب. ألا تعتقد أن ما كتبه مؤلِّفونا يشكِّلنا، وينقذنا؟

- لا ينقذ الكتاب أيّ شيء، أبداً. الأشخاص الذين يملكون الوعي بحياتهم، وبما يحيط بهم، هم من يُنقِذون. أومن بتأثير الانتشار؛ بمعنى أن الحضارات تنتج السعادة أو البؤس، وهو ما يحدث من خلال المعجزات والمصادفات وتلاقح الثقافات. أعتقد أننا نعيش في عصر مظلم، مثلما حدث قبل الانفجار العظيم. سيكون هناك تركيز عالٍ للغاز، بحيث يؤدِّي إلى انفجار يمنحنا النور. هكذا، وُلِد العالَم ومنه وُلِدت الحياة. ستأتي اللحظة التي سنخلق فيها السعادة. ونحن، الآن، في حقبة من البؤس، ولطالما كان هناك أوقات من هذا القبيل... ولم تغيِّر الكتب أو السينما شيئاً. وبالمناسبة، أنا عاشق للأفلام؛ فهي تجعلني أنسى أنني مجرَّد نكرة في انتظار الموت الوشيك، لكنها لا تنقذني، أبداً. في زمن والدي، كان هناك عدد قليل جدّاً من الكتب، وكان للثّقافة معنى، وكانت فرنسا مكوَّنة من بعض الكتّاب الذين اعتُبِروا خالدين، أمّا اليوم، فالثّقافة هي الحاضرة... ثقافتي عالمية، وتتكوَّن من بعض مؤلِّفي الأفلام والموسيقى، من جميع أنحاء العالم، مع أني لست قارئاً كبيراً. وفي رأيي، لا معنى لكون المرء فرنسياً، اليوم. أصبح العالم عديم الهويّة، وشاملاً... حينما أكون في كندا، أنا كندي، وحينما أكون في إسبانيا، أنا أسباني. ميراثي ليس «فلوبيريّاً». في المقابل، إذا رأيت منزلي يحترق، فسأبكي: أنا وحياتي وأشيائي وعالمي كلُّها تحترق. ينتقل الميراث من خلال قنوات، لم نتعلَّمها في المدرسة أو الجامعة. ليس لديَّ أيّ شيء ضدّ النظام التعليمي، لكني أعتقد أنه مضيعة للوقت... لقد بذلت كلّ جهدي كي لا يذهب أطفالي إلى هناك، فأنا لا اعترف، أبداً، بسلطة المدرسة. لا ينتقل التعليم بهذه الطريقة، يجب أن يكون أكثر دهاءً، وينطوي على مزيد من الشمولية. أنا لا أشرح أيّ شيء، ليس لدي أيّة قواعد، ولا أستطيع تقديم حلول. أعرف، فقط، أننا في عصر مظلم، وأننا بحاجة إلى تضافر العديد من الأحداث حتى يكون هناك شكل من أشكال النهضة؛ وهو أمر ملحّ، للغاية.

أليست هذه الرواية أكثر إشراقاً، وأقلّ تشاؤماً من غيرها؟

- يخبرني الجميع بهذه الملاحظة. رغم أن كتابي السابق ينتهي بالانتحار، إلّا أن نهاية روايتي الأخيرة تُعَدّ من أحلك النهايات. إنها تحكي قصّة رجل ينحدر من شمال «الدانمارك»، ويستقرّ في «تولوز»، ليعمل وسيطاً عقاريّاً، وهو زوج يعيش حياة رائعة، لكنها قصيرة. ثم تجتاح الخسارة والألم والحزن حياته، ليعود، في النهاية، إلى نقطة البداية. «أنا ابن يوهانس هانسن» إنها الجملة الأكثر فظاعةً في الرواية. في سنّ الستّين، يستأنف «بول» مسيرة والده، وصولاً إلى منزل العائلة، وكانت هذه هي الجملة الوحيدة التي تمكَّن من قولها. وبذلك، يكون قد أنهى حياته بكونه ابن والده، فحسب، وهو أمر نبيل. لكن، أن يعيش المرء وجوداً كاملاً من أجل هذا، فحسب، هو أمر محزن.

■ حوار: كلير شزال

□ ترجمة: أسماء مصطفى كمال



Evelyn Dunbar (المملكة المتحدة) ▶

لا يعيش الناس جميعاً، على الأرض، بالطريقة نفسها

■ **فصل من رواية:** جان بول دوبْوَا

دخلت سجن «بوردو» في يوم انتخاب «باراك أوباما» نفسه، في الرابع من نوفمبر، عام 2008. كان يوماً طويلاً ومؤلماً، بالنسبة إليَّ؛ إحالتي إلى المحكمة، والانتظار في أروقة قصر العدالة، ومثولي أمام القاضي «لوريمييه»، والذي -رغم الاستجواب المتعاطف- بدا أنه لا يفكّر إلّا بكومة من المشاكل الشخصية، وكذلك الدفاع الوهمي لمحاميَّ المكتئب الذي كان يناديني بـ«جانسن»، والذي اختلق لي «ماضياً طويلاً من الأمراض العقلية»، وبدا كأنه يكتشف قضيّتي، للتوّ، أو يترافع عن قضيّة أخرى، وانتظار الحكم، ثم نطقه المبهم من طرف «لوريمييه»، ومدّة العقوبة، سنتان مع التنفيذ، تضيع في أرشيفات المحكمة، والمطر الغزير في أثناء رحلة العودة، والازدحام المروري، والوصول إلى السجن، وتحديد الهوية، والتفتيش المزعج.. ثلاثة أشخاص في زنزانة كبيرة تشبه مرآباً للدرّاجات، «فلتخرس. هنا، تغلق فمك»، فِراش على الأرض، فضلات الفئران، مناديل مستخدمة ملقاة في كلّ مكان، رائحة البول الخافتة، صينية الوجبة، دجاجة بنِّيّة، ليلة مظلمة.

قبل شهر من انتقال «باراك أوباما»، رسميّاً، إلى شقَّته في البيت الأبيض، تَمَّ نقلي إلى منزلي الجديد، «الكوندو»، والتي ما زلنا نتشاركها، حتى اليوم، أنا و«باتريك هورتون». سمح لي هذا الانتقال بالخروج من جحيم القسم «أ»، حيث تمضي ساعات النهار، وأحياناً ساعات الليل، أيضاً، على إيقاعات العنف والاعتداءات. هنا، بفضل أصول وهيئة «هورتون»، أصبحت الحياة مقبولة أكثر، وذلك رغم كوني غير محصَّن، تماماً، ضدّ التجاوزات، ثم إنه عندما يصبح ضيقك بذاتك، وثقل الوقت عبئاً ثقيلاً، يكفي أن تستسلم وتترك نفسك للإيقاع البطيء والعنيد لساعة السجن، وأن تخضع لجَدْولة «برنامج الحياة»: «في الساعة السابعة فتح الزنازين. في السابعة والنصف وجبة الإفطار. في الثامنة الأعمال اليومية. في الحادية عشرة والربع وجبة الغداء. في الواحدة ظهراً الأعمال اليومية. في الرابعة والربع وجبة المساء. في السادسة الأعمال اليومية. في العاشرة والنصف إغلاق الزنازين، ثم النوم. التدخين ممنوع في الداخل وفي الخارج.

ممتلكات غير مرخَّصة: أجهزة اللعب، أجهزة الكمبيوتر، الهواتف المحمولة... يجب أن يتمّ ترتيب السرير قبل الثامنة صباحاً، والتنظيف قبل التاسعة، من كلّ صباح».

إنه شعور غريب جدّاً بالنسبة إليَّ؛ أن أكون مُؤَطَّراً إلى هذا الحَدّ، ومُجرَّداً من المسؤولية. لمدّة ستّة وعشرين عاماً، في حيّ «أهونتسيك»، على بُعد أقلّ من كيلومتر واحد من

هذا السجن، كان من المزعج، للغاية، في البداية، أن أجد نفسي محبوساً بالقرب من منزلي. مارست مهنة المشرف المتعبة للغاية، إنه أمر شبيه بعمل حارس ساحر، أو عامل من الدرجة الأولى، قادر على ترتيب وإصلاح عالم صغير ودقيق، عالم معقَّد من الأسلاك والأنابيب والوصلات والفروع والأعمدة والعدّادات، عالم صغير لعوب لا يسعى إلّا للخروج عن السيطرة، افتعال المشاكل، خلق أعطال يتوجَّب إصلاحها، بشكل عاجل، من خلال قدر كبير من المعرفة والتقنيات والمراقبة، مع قليل من الحظّ، أحياناً. في مبنى «لاكسيلزيور»، تَمَّ تكليفي برعاية، وصيانة ومراقبة حسن سير المبنى المكوَّن من ثمانٍ وستّين وحدة. كان جميع السكّان مُلّاكاً لشققهم الخاصّة، ويتمتَّعون بحديقة، بها أشجار وزهور، وحمّام سباحة بمياه دافئة، مملوء بمئتين وثلاثين ألف لتر من المياه المطهَّرة بالملح، وموقف سيّارات نظيف، تحت الأرض مع مساحة للغسيل، وصالة رياضية، ومدخل مع صالة للاستقبال والانتظار، وصالة للاجتماعات تحت اسم «فوروم»، وأربعة وعشرين كاميرا للمراقبة، وثلاثة مصاعد كبيرة من ماركة «كون».

على مدى ستّة وعشرين عاماً، أنجزت عملاً هائلاً، محفِّزاً ومرهقاً، لأنه لا ينتهي أبداً، وغير مرئي، تقريباً؛ لأنه يتمثَّل ،ببساطة، في الحفاظ على التوازن الطبيعي لثماني وستين وحدة تتعرَّض للتآكل بفعل الزمن والطقس والتقادم. تسعة آلاف وخمسمئة يوم من الرعاية، ومن الحراسة والمبادرات، وتسعة آلاف وخمسمئة يوم من الاستطلاعات، ومن عمليّات التدقيق، ومن الجولات فوق السطح، ومن الرحلات إلى الطوابق. مئة وأربعة فصول، خرجتُ، خلالها، عن صلاحياتيّ من أجل مساعدة كبار السن، ومواساة الأرامل، وزيارة المرضى أو حتى مرافقة الموتى، (حدث ذلك مرَّتَيْن).

أعتقد أن التربية التي نقلها لي «يوهانس هانسن»، وهو قسّ بروتستانتي محترف، ليست بغريبة عن التفاني الذي برهنت عليه، طوال كلّ هذه السنوات، للحفاظ على سير العمل، برمَّته، بشكل جيِّد. ولا يبدو لي، أيضاً، أن العمل بتلك الطريقة، في صمت، وإنجاز مهامّ يومية بغيضة، بجدِّيّة ودقّة، يتعارض مع روح الإصلاح التي كان «يوهانس» يدافع عنها في كنائسه.

لا أعرف أيّ شيء عن الرجل الذي تولّى المهمّة من بعدي، ووافق على العيش في ذلك المبنى، ولا كيف يبدو «لاكسيلزيور»، اليوم. أعرف، فقط، أنني أفتقد، بشدّة، ذلك العالم الصغير الخيالي المكوَّن من ثمانية وستِّين وحدة، والقادر على إنتاج تشكيلة لا حصر لها من الأعطال والمتاعب والمعضلات التي يجب حلُّها.

كان يحدث أن أتحدَّث إلى الأشياء والآلات، وكان لديَّ عيب الاعتقاد بأنها تستطيع أن تفهمني، أحياناً. اليوم، لم يتبقَّ لي سوى «هورتون» وأسنانه.

لقد صرت، اليوم، وأنا الذي سهر على إدارة وحسن سير مبنى «لاكسيلزيور»، لفترة طويلة، مضطرّاً للامتثال إلى «نظام الحياة» المملّ لمسكني الجديد: الساعة الثامنة تبدأ الأعمال اليومية. في الرابعة والربع وجبة المساء. في التاسعة جحيم الحمامات. في العاشرة: إغلاق الزنازين، ثم النوم.

هذا الصباح، وما إن استيقظ «باتريك»، حتى قام بمناداة الحارس من أجل طلب موعد طارئ مع طبيب الأسنان، رغم أنه ما زال يخشاه أكثر من الهجوم المتوحِّش لـ«الباندِيدو» (قطّاع طُرُق). لكن خدَّه كان قد انتفخ في الليل، وصار الألم مثل الكهرباء، وذرع الزنزانة، جيئةً وذهاباً، في جميع الاتِّجاهات مثل حشرة محاصرة داخل زجاجة. «ألا يزعجك أن ترتِّب سريري هذا الصباح؟ هذا السنّ اللعين يؤلمني حقّاً. لقد ورثت هذا من والدي. هو، أيضاً، كانت أسنانه قذرة. الأمر جينيّ، على ما يبدو.

لا أعرف. عليه ألّا يزعجني بأسئلته الغبيّة، هذا الطبيب اللعين، ليس هذا باليوم المناسب. علاوة على هذا، يبدو أنه يملك رأس «نيكولسون» المجنون. كم الساعة الآن؟ لابدّ أن هذا الوغد ما زال في منزله، يتمايل أمام طبق «الكورن فليكس» اللعين. سأخبرك بشيء: من مصلحته أن يقدِّم لي علاجاً من الدرجة الأولى، هذا «النيكولسون»، وإلّا، سأقسمه إلى نصفين هذا الوغد، صدِّقني. كم الساعة الآن؟ اللعنة».

لديّ مقابلة، هذا الصباح، مع «غيتان بروسار»، موظَّف إدارة السجن المسؤول عن دراسة ملفات تقليص العقوبة قبل إحالتها إلى القاضي. كنت قد التقيت بـ«بروسار» من قبل، منذ ثلاثة أو أربعة أشهر. كان يشعّ من جسده شيء ما مريح، وقد عزَّز وجهه المنحوت في قالب «فيغو مورتنسن» وظيفتَه مراقباً عطوفاً.

كانت المقابلة الأولى قصيرة. لم يقم حتى بفتح الحافظة التي تحتوي على أوراق قضيَّتي.

«اجتماعنا اليوم رسمي، تماماً. لتعتبره تواصلاً مبدئيّاً بسيطاً، سيِّد «هانسن». في ضوء الأفعال الخطيرة التي ارتكبتها، يؤسفني أنه من غير الممكن لي أن أدرس أو حتى أطالب، في هذه المرحلة، بإطلاق سراحك، حتى ولو كان ذلك تحت المراقبة. دعنا نلتقِ، مرّة أخرى، في غضون بضعة أشهر، وإذا كانت تقارير سلوكك جيِّدة، فقد نتمكَّن، عندئذ، من القيام بشيء ما».

لم يتغيَّر «بروسار». انتبهت إلى تفصيلة كانت قد غابت عنّي في المرّة الأولى: عندما لا يتكلَّم، يميل «غيتان» إلى شمّ أطراف أصابعه. مع كلّ شهيق، تتمدَّد خياشيمه، ثم تعود إلى شكلها الأصلي، وذلك بسبب اطمئنانها، من خلال تعرُّفها روائح جزيئات مألوفة، بالطبع.

«سأكون صريحاً معك، يا سيِّد «هانسن». تقييماتك ممتازة في كلّ شيء، وتدعم -بالتأكيد- إحالة ملفّك إلى القاضي، مرفقاً بالموافقة. ورغم هذا، يجب عليك أن تقنعني، أوَّلاً، بأنك أدركت مدى خطورة أفعالك، وأنك نادم عليها بوعي تامّ. هل أنت نادم، يا سيِّد «هانسن؟»

لا شكّ في أنه كان ينبغي عليّ أن أقول ما كان ينتظره مني، وأن أغرق في الاعتذارات، وأُعرب عن أسفي العميق والصادق، وأقوم بصياغة عبارات الندم، والاعتراف بأن ما حدث في ذلك اليوم ما زال غير مفهوم، بالنسبة إليَّ، وأن أطلب الصفح من الضحيّة عن المعاناة التي كنت سببها، وأعلن عن توبتي في نهاية المطاف، ثم أخفض رأسي، غارقاً في العار.

لكنني لم أفعل أيّ شيء من ذلك! لم تخرج أيّة كلمة من فمي! لا شيء.. بقي وجهي بدون تعابير كقناع من الحديد، بل إنني وجدت صعوبة بالغة في عدم الاعتراف لـ«فيغو مورتنسن» بشعوري بأشدّ الأسف، لأنه لم يُتَح لي المزيد من الوقت أو القوّة الكافية من أجل تكسير جميع عظام جسد ذلك الرجل الحقير، المغرور والمثير للاشمئزاز.

«أعترف أنني كنت أتوقَّع منك شيئاً مختلفاً، يا سيِّد «هانسن»، أو ردّ فعل أكثر ملاءمةً. عندما قرأت ملفّك، ودرست ماضيك، كان من الجليّ، بالنسبة إليَّ، أن مكانك ليس هنا. ومع ذلك، أخشى نظراً لإصرارك على عدم مراجعة أفعالك -أن تكون مضطراً للمكوث هنا، لفترة من الوقت. إنه أمر مؤسف، للغاية، يا سيِّد «هانسن». كلّ يوم تقضيه في هذا السجن هو خسارة كبيرة. هل هناك شخص ما ينتظرك في الخارج؟ «كيف أشرح له أنه، في هذه اللحظة، أحد ينتظرني في الخارج، لكن بجانب الغرفة التي كنّا فيها، كانت «وينونا»، وكان «يوهانس»، و«نوك» (وقد شعرت بأنفاسهم) ينتظرون مغادرته بفارغ الصبر.

عاد «باتريك» من جلسة علاج الأسنان. كان لا يزال تحت تأثير المخدِّر، ويسيل من فمه لعاب أحمر في ثنايا منديل ورقي. كان من الواضح أن لقاءه بـ«نيكولسون» انتهى بشكل سيِّئ.

«لقد قام بخلعه ذلك الدنيء. كنت أعرف هذا. اللعنة، لقد حذَّروني. لكن هذا السنّ اللعين لم يترك لي مجالاً للاختيار. أخبرني أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً لإنقاذ سنّي، علاوةً على أنه كان لديّ خُرّاج كبير. أراني تُرَّهاتٍ على الصور الإشعاعية، وقال: «إنه هنا. أترى؟ إنه مصاب». قلت له: «لا تزعجني، افعل ما يجب عليك فعله، لكنني أحذِّرك من أنني إذا تألَّمت، فاعتبر أنك ميِّت». كان ما حقنه في لثّتي يكفي لجعل جميع أوغاد القرية، حيث وُلِدت، ينامون. كما ترى، لا أعرف متى سأخرج من هنا، لكنني أقسم لك: إنني حالماً أصير في الخارج، فسأذهب إلى هذا الأحمق، وأقسمه إلى نصفين».

□ **ترجمة:** أسماء مصطفى كمال

*عنوان الرواية الفائزة بجائزة «غونكور» لعام 2019.

جيوفاني كيسيب:
عربيّ من رحلة الشتات

في أواخر القرن التاسع عشر، أقلعت سفينة من ميناء مارسيليا كانت قادمة من لبنان ومتوجِّهة إلى كارتاخينا دي إندياس، وكان على متنها رجل يدعى يعقوب كاسد (Jacob Quesed) بصحبة زوجته وأبنائه، كان واحداً من مئات اللبنانيين والسوريين الذين حلّوا على الأميركتَيْن، فراراً من حملات القمع، أيّام الإمبراطورية العثمانية، وكان المهاجرون الأتراك -كما كانوا يسمُّونهم، حينئذ- يستقرّون في بارانكيا، وكارتاخينا، وسانتامارتا، أو مايكاو، وأغلبهم وصلوا، بشكل خاطئ، إلى كولومبيا، لأن الوجهة الصحيحة والمرغوبة كانت الولايات المتَّحدة، وفي أسوأ الأحوال، المكسيك أو البرازيل أو الأرجنتين، لكن «يعقوب»، جَدُّ «جيوفاني كيسيب»، حَلَّ في «كارتاخينا» رفقةَ زوجته «بينوت شديد»، وابنين شابَّيْن. في أثناء إجراءات التسجيل البيروقراطية، سيتمّ نقل اسمه مع بعض التحريف، إذ سيقلبون الدال باءً، وستصير، «كيسيد - Quesed» «كيسيب - Quesep».

يقول الشاعر الكولومبي «جيوفاني كيسيب»: «أنا أبتعد عن أيّ أسلوب عصريّ، وعن كلّ تقليعة للموضة، ولست مهتمّاً، البتّة، بوصف الأشياء الأكثر ملامسةً للواقع. أعتقد أن كلّ قصيدة يجب أن تكون استعارة للروح: استعارة لروائعها العجيبة ولأهوالها المرعبة، لسماواتها، ولهوائها؛ تلك هي تجلِّيات الواقع، التي لا تشكِّلُ نسيانه، بل تأكيده الأعمق. ما زال الأنا الشعري، بعد، جزءًا من مملكة الخرافات»، هكذا يتصوَّر هذا الشاعر القريب من عوالم «ماركيز» ورائعته «مائة عام من العزلة»، عالم الشعر المتاخم لعالم الخرافات السحرية العجيبة، هو نفسه عاشها، بشكل ما، من خلال رحلة اغتراب أسلافه فيما يشبه رحلة «مائة عام من العزلة».

كان المهاجرون الأوَّلون من الأصول اللبنانية السورية يمتهنون التجارة المتنقِّلة، ولم يتأخَّروا كثيراً لكي يهيمنوا على التجارة في كلّ الساحل الأطلسي لكولومبيا، فحملوا معهم ظواهر جديدة مثل التجارة بالاستدانة، وعروض الفرجة السينمائية... وقد مارس الجَدّ «يعقوب» العديد من المهن، متنقّلاً بين العديد من المدن في كولومبيا، بل شَدَّ الرحال إلى البرازيل، قبل أن يختار العودة، مع كامل أفراد أسرته، إلى الجذور في لبنان، لمَّا كان «لويس إينريكي»، أبو «جيوفاني كيسيب» في عامه الأوَّل، لكن، بعد خمسة وعشرين سنة، ستغادر الأسرة لبنان لتستقرَّ، من جديد، في كولومبيا، لكن استقرارها هذه المرّة سيكون بشكل نهائي...

وُلِد «جيوفاني كيسيب» في قرية صغيرة تدعى «سان أونوفري»، عام 1939، في محافظة «سكري»، وكانت -حينئذ- قرية غير موصولة بالشبكة الطرقية، فكان الانتقال منها وإليها يتمّ، بصعوبة، على متن القوارب والأحصنة، ويستغرق ساعاتٍ



طويلة. كان «لويس إينريكي»، والد «جيوفاني» يشتغل في تجارة المواد الفلّاحية، وأساساً بالأرز، كما كان يدير قاعة للعروض السينمائية، وفي أوقات فراغه يحاول تعليم ابنه اللّغة العربيّة، ويهتمّ بصناعة الدمى، لكن ولعه الكبير كان بالفنّ السابع، وبالبيسبول... لكن عائلة «كيسيب» ستكون مضطرّة لمغادرة «سان أونوفري» في عام 1949، بسبب أحداث العنف بين الحزبَيْن: الليبرالي، والمحافظ في كولومبيا، إذ كانت أسرته أوَّل أسرة يتمّ نفيها من القرية، لأن «لويس إينريكي» كان ليبراليًّا، وهكذا، ستستقرّ العائلة في «سينثيليخو» بعد تلقّي الأب لدعوة من طرف أحد إخوته، الذي اقترح عليه الاشتغال معه بتربية الماشية. هنالك، سيكمل «جيوفاني» دراسته الثانوية، أوَّلاً، قبل أن ينتقل إلى «كارتاخينا دي إينديـاس»، حيث سيلتقي بالأعمال المؤسَّسة لثقافته الشعرية، وسيقرأ الكوميديا الإلهية التي سيكون لها تأثير حاسم في مساراته الشعرية، وسيتناول، أيضاً، بالقراءة الحكايات والقصص الكلاسيكية: (الإخوة غريم، بيرولت، أندرسن)، و«ألف ليلة وليلة»، والشعر الإسباني للعصر الذهبي غراثيلاسو دي لا بيغا، وفرانسيسكو كيفيدو، وفراي لويس دي ليون، وسان خوان دي لا كروث، وأيضاً شاعر الحداثة الشعرية الهسبانية روبين داريو؛ تلك القراءات الأساسية ستشجّعه على الكتابة الشعر ونشر قصائده الأولى في المجلّة المدرسية، أوّلاً. وبعد إنهاء دراساته الثانوية، سيسافر الفتى إلى بوغوتا، وسيدرس الفلسفة والآداب في جامعة خابيريانا، ويحصل -لاحقاً- على شهادة دراسات عليا في الأدب الأميركي اللاتيني من معهد كارو إي كويربو، وسوف يمضي على خطى معلِّمه «دانتي»، فيسافر إلى إيطاليا ليدرس شعر عصر النهضة، ويحضر دورة تُعرف باسم «قراءة دانتي».

في عام 1961، سينشر كتابه الأوَّل «Después del paraíso»، وهو كتاب تقليدي، تمَّ تأليفه على نظام أوزان وقوافي السونيت؛ ما جعله يقف بمنأىً عن تيّار اللاشَيْئيّة (النادايزم) المعاصر له. سنوات بعد ذلك، سينشر ديوانه الشعري الثاني «الوجود ليس خرافة - El ser no es una fábula» ـ (1968).

شارك في تأسيس مجلّة «golpe de dados - رمية نرد»، وتعاونَ مع العديد من المجلّات الأخرى التي كانت تصدر في كولومبيا، وهو أستاذ الأدب في جامعة كاوكا، التي يقدّم فيها محاضراته حتى وقت قريب، وقد حصل منها على لقب دكتوراه فخرية في الفلسفة والآداب، عام 1992. خلال مساره الشعري، قدَّم «كيسيب» العديد من الدواوين والأعمال الشعرية، أهمّها: «ديمومة وأسطورة» (1972)، «غناء الغريب» (1976)، «غزليّات الحياة والموت» (1978)، «استهلالات» (1980)، «موت ميرلين» (1985)، «حديقة وصحراء» (1993)، «رسالة متخيَّلة» (1998)، «الهواء بلا نجوم» (2000)، «كتاب المفتون (مختارات)» (2000)، «جمرة قمرية» (2004)، «أوراق العرَّافة» و «تحوُّلات البستان» (2006). نال العديد من الجوائز والتقديرات، من بينها: حصوله على دكتوراه فخرية في الفلسفة والآداب من جامعة الكاوكا (1992)، وعلى الجائزة الوطنيّة للشعر «خوسيه أسونسيون سيلفا»، سنة 2004، وجائزة «IX» الوطنيّة للشعر من جامعة أنتيوكيا (2007)، وجائزة «رينيه شار» للشعر الممنوحة له من قِبَل مؤسَّسة «بروميتيوس» ومهرجان «مديين» العالمي للشعر (2015).

في استهلاله لـ «رسالة متخيَّلة» (1998)، كتب «كيسيب» هذه الكلمات التي تنطبق على شعره: «الشاعر لا يخاف من العدم... كلَّما ابتعدتُ عن الواقعي، وجدت حقيقة الشعر، أو ديمومة الخرافات، التي هي الروح. والشاعر الذي لا يجْهَلُ ذلك، يجعل كينونته موضع رهان، لكنه، إذا رغب في الحفاظ على هذه الأخيرة، عليه أن يستسلم للقانون الوحيد الذي يوجِّه الإبداع الشعري: خفقان الهوّة. والهوَّة هي مركز الكون، توجد فيها أبراج النجوم، والوردة، أيضاً، وهي «مرآة الزمن»، شبيهة القمر في استعارة الصُّوفيِّ... بهاء أو هُوَّة، كلمة وموسيقى: فتنة شاملة، نظامُ الرُّوحِ الذي يكشِفُ علم المحبّة، ويفتح أبواب المجهول».

□ **تقديم وترجمة**: خالد الريسوني

مختارات شعرية

سأعشق النسيان

السعدُ في خرابٍ
ما رأَتْهُ عيناي
أن أعودَ إلى الزمن المعشوق
ها هي ذي تهرب موسيقى الغبار.

(لا شيء سيتملَّكُ الحبّ..
إنْ في الحدائق أو في الثلج،
يحكي الخيمرُ
عن وادي الموت).

سعدٌ في خراب
ما رأَتْهُ روحي في الافتتان.
هل سأعشَقُ النسيانَ
ومملكةَ الأوراقِ التي عثرتُ عليها؟

أغنيّة المرتحل

بفضائلِ الأسحارِ،
ترغبُ أن تغيِّرَ حياتك،
ومتشبِّثاً بحبالِ السفينة،
ترحلُ بلا وجهةٍ معلومة.

كلُّ شَيْءٍ مُوَاتٍ.. تنامُ الجُروفُ السَّحيقة
ورصيفُ الميناءِ في الزَّبدِ،
وحْدَهُ طائرُ النَّورس ينتظرُ تحت القمر،
فوقَ الصاريةِ الرئيسيةِ من المغنى.

مع روحك، تمضي وحيداً، وأنت تخلطُ
الأغنياتِ والتَّكهُّناتِ
التي تتحدَّث عن الغابِ، حيثُ العشْبُ ضئيلٌ،
بعيداً عن البلايا، فيك تتسامر.

في عبورك، سوف ترى الجُزُر
التي تمنحُ الصوتَ للحلزون،
وسوف ترى بيتَك، الدخان
الذي تنشّقه آخرون في السحَر.

لكن، أواه إذا توقَّفت..
لربّما هنالكَ ينتهي مصيرُك،
من يستطيعُ أن يخلِّصك؟
من سيمنحُك ما تبحث عنه بين الجنِّيّات؟

صعبٌ أن ترحلَ باتِّجاه الحظّ..
الإنسان يغلق عينيه، فقط، أمام السماء
ويصغي إلى حكايته الشخصية،
إذا انكسرَ الافتتان.

لكن، لو ترغبُ في أن تستمرَّ، وَاصِلْ
مع السعد، في أحضان قاربك،
كلّ شيء لصالحك: السماءُ، والمسافة البعيدة التي تنفتح
مثل العشق، مثل الموت.

نَشيدُ وردتَين

لا تقلْ شيئاً، واستمعْ للنجوم.
لربَّما تقول لك شيئاً
عن الوردة التي في بُسْتانِك
ووردة الزمان،
تلك التي على قيْدِ الحَيَاةِ أو مَيِّتَةٌ،
في الرِّمَالِ المُحْتَرِقَةِ.
الوَرْدَةُ التي في بُسْتَانِك فاتِنَةٌ.
لا السَّاحِرَةُ المَريرَةُ الَّتِي تُنَادِيكَ
مُنْذُ وِلادَتِكَ، وَرْدَةٌ مُعْتِمَةٌ
تضيءُ لكَ النِّهايَاتِ وضِفَافَ
نَهْرِ أشيرون.
لا تتحدَّثْ، فأنت وحيدٌ
ولا شَيْءَ غَيْرُ قابِلٍ للقَوْلِ، بَعِيدٌ دائِماً

عَنِ الأَزْرَقِ الأَعْمَقِ.
انْظُرْ، إذنْ،
إنْ كَانَ المَاءُ يَمْضِي إلى جَزِيرَةٍ حَيْثُ تَنْمُو
الوُرُودُ، بِلا حَظٍّ أو مَحْظُوظَةً،
واكتُبْ، وَغنِّ.. واسْتَمِعْ لِلنُّجُومِ
تَتَحَدَّثُ فِي صَفْحَةٍ مَطلوبَة.

دُنُوٌّ منَ الموت

الرَّجُلُ يَسْكُنُ فَحَسْب،
ضِفَّةً بَعِيدَةً..
يُشَاهِدُ المَسَاءَ الرَّمَادِيَّ وَهُوَ يَهْوِي..
يَنْظُرُ إلَى الأَوْرَاقِ البَيْضَاء.

وَجْهٌ تَائِهٌ لِلعِشْقِ
يُغَنِّي وَيُحَرِّكُ
عَجَلَةَ الحَظِّ
الَّتِي تُدْنِيهِ مِنَ المَوْتِ

غَرِيبٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ.
النَّعِيمُ يَلْعَنُهُ
والرَّجُلُ وَحِيدٌ يَتَحَدَّثُ وَحْدَهُ
عَنْ مَمْلَكَةٍ لا وُجُودَ لَهَا.

حَجَرُ الماس

لوْ كُنْتُ أسْتَطِيعُ أنْ أهَبَكِ
الضَّوْءَ الَّذِي لا يُرَى
فِي الزُّرْقَةِ العَمِيقَةِ
للأسْمَاكِ.
لوْ كُنْتُ أسْتَطِيعُ
أنْ أهَبَكِ تُفَّاحَةً
دُونَ جَنَّةِ عَدْن الضَّائِعَةِ،
زَهْرَةَ عُبَّادِ الشَّمْسِ بِلا بَتلاتٍ
وَبِلا بَوْصَلَةِ ضَوْءٍ
تَرتَفِعُ سَكْرَى،
نَحْوَ سَمَاوَاتِ العَشِيِّ،
وَهَذِهِ الصَّفْحَةَ البَيْضَاءَ
الَّتِي تَسْتَطِيعِينَ قِرَاءَتَهَا
كَمَا يُقْرَأُ الخَطُّ الهِيرُوغْلِيفِيُّ
الأوْضَحُ والأجْلَى.
لو كُنْتُ أسْتَطِيعُ أنْ أهَبَكِ كَيْفَ

تُغَنَّى، فِي أبْيَاتٍ فَاتِنَةٍ،
أجْنِحَةٌ بِلا طَائِرٍ،
تَحْلِيقٌ بِلا أجْنِحَةٍ دَائِماً،
فَسَوْفَ تَكُونُ كِتَابَتِي،
رُبَّمَا، مِثْلَ حَجَرِ الألْمَاسِ،
حَجَرٌ مِنْ ضَوْءٍ دُونَمَا لَهَبٍ،
وَجَنَّةُ فِرْدَوْسٍ سَرْمَدِيَّة.

أرْوَاحٌ خَفِيَّةٌ

المَكْتَبَةُ وَحِيدَةٌ. قَمَرٌ وَأرْوَاحٌ خَفِيَّةٌ
عَلَى العَتَبَاتِ، وَغِنَاءٌ يُعْلِنُ عَنْ ذَاتِهِ
مُمْكِناً فِي ذَهَبِ الأوْرَاقِ.
خُذْ دَهْشَةَ المَوْتِ والسَّمَاءِ
عَبْرَ المُوسِيقَى، الَّتِي عُثِرَ عَليْهَا، يَتَحَقَّقُ اللَّيْلُ
الَّذِي يُضِيءُ الوَرْدَةَ فِي الظَّلام.
أصْوَاتٌ مِنْ أعْمَقِ الأعْمَاقِ وَخَطَوَاتٌ وَأجْنِحَةٌ
عَلَى العَتَبَاتِ، وَحَدِيثٌ مُعْتِمٌ وَشَيِّقٌ
لِخَيْطٍ مَكْشُوفٍ يَعُودُ
إلى الغَابِ عَبْرَ المِنْسَجِ، ثُمَّ يَلُفُّنَا.
كَيْفَ تَحَوَّلَ البَيْتُ؟، وَأيْنَ نَحْنُ؟
أرْوَاحٌ خَفِيَّةٌ، وَقَمَرٌ وَحْدَهُ عَلَى الجُدْرَانِ.

أرَق

غِنَاءُ الجُدْجُدِ فِي الحَدِيقَةِ
يَجْلُبُ مَعَهُ أغْصَانَ الأرَقِ،
مِثْلَ صَافِرَةٍ مِنْ زُجَاجٍ
تُعْلِنُ عَنْ أجْنِحَةِ الشِّتَاء.

لمْ أكُنْ، قَطُّ، جدُّ قَرِيباً مِنَ المَوْتِ،
وَلمْ أكُنْ، قطُّ، قدْ عَرَفْتُ أنَّ خَلْفَ المُوسِيقَى
يُمْكِنُ أن تَكُونَ السَّمَاءُ المُعَاكِسَةُ
تَائِهَةً بَيْنَ العَوْسَجِ والسِّنْدِيَان.

أهِيَ الحَيَاةُ مُخَادِعَةٌ، إذَنْ؟
بُسْتَانٌ بَئِيسٌ،
حَيْثُ تَمْضِي أبْرَاجُ النُّجُومِ فِي دَوْرِيَّةِ حِرَاسَةٍ،
وَتَصِيرُ الرَّاحَةُ اللَّيْلِيَّةُ بَعِيدَةَ المَنَالِ؟

غَزَلِيَّةُ المَوْت

جِدُّ دَانٍ قَلْبُك
مِنَ العُثُورِ عَلَى أوْرَاقِ الخَرِيفِ.
لرُبَّمَا يُهَيْمِنُ الوَقْتُ الذَّهَبِيُّ
فِي الوَهَدَاتِ.

وَقَدْ يَكُونُ النِّسْيَانُ القَاتِلُ
الافْتِتَانَ الأنْقَى.
وَبَعْدُ، سَوْفَ تَأتِي الوَرْدَةُ
اللايُتَلفَّظُ بِهَا مُخَلِّقَةً.

النَّظْرَةُ لَدَيْكَ، جِدُّ دَانِيَةٍ
مِنَ المَكْشُوفِ إلَى الأبَد.
مَنْ يَسْتَطِيعُ أنْ يُغْمِضَ العَيْنَيْنِ
فِي تِلْكَ السَّمَاءِ؟

لرُبَّمَا يُحَوِّلُكَ التُّرَابُ
إلَى قَمَرٍ مَجْهُولٍ،
وَيَتِيهَ شَخْصٌ مَا، ثُمَّ لا يَعُودُ
تَحْتَ ضَوْءِ ذَاكَ القَمَرِ.

قصيدةٌ لِتَذَكُّرِ أليسْيَا فِي المِرْآة

هُنَا الأسْطُورِيُّ وَالوَاقِعِيُّ.
حِكَايَتُنَا تَبْدُو، للعِيَانِ، مُتَمَاثِلَةً
مَعَ حِكَايَةِ تِلْكَ الفَتَاةِ العَجِيبَةِ الَّتِي اقْتَحَمَتِ المِرْآةَ.
كَانَتْ، دَائِماً، عَلَى وشْكِ أنْ تَخْتَفِي
لكِنْ لا أحَدَ كَانَ يَتَلَفَّظُ بِتِلْكَ الصِّيغَةِ الَّتِي قَدْ تُعِيدُهَا إلى عالَمِ التُّرَاب.
لَا تْوِيدْلِيدُومْ وَلا تْوِيدْلِيدِي، لا المَلِكَةُ ولا المَلِكُ الأحْمَرُ.
كُلُّ مَا كَانَ عَليْهَا أنْ تَقُومَ بِهِ هُوَ أنْ تَسْتَيْقِظَ.
لرُبَّمَا نَحْنُ مُجَرَّدُ حِكَايَةٍ
وَرُبَّمَا، دُونَ أنْ نَنْتَبِهَ -أبَداً- إلى ذَلكَ،
سَفِينَةُ عُولِيسَ
أوْ عَنْدَلِيبُ كِيتْس
(هَذَا الطَّائِرُ غَيْرُ المَنْذُورِ لِلمَوْتِ).
وَلْنَقُلْ، إذَنْ، إنَّ مَا كَانَ نَشِيداً مِنَ الأودِيسَةِ
سَوفَ يَسْتَمِرُّ فِي أنْ يَكُونَ نَحْنُ،
دُونَ أنْ يَتَخَلَّى عَنْ أنْ يَكُونَ لِتِلْكَ الأسْبَابِ بِلادَ العَجَائِبِ.
وَيُمْكِنُ لِشَخْصٍ مَا أنْ يَتَعَرَّفَ إلينا،
حِينَمَا سَيَسْتَمِعُ إلَى الحِكَايَةِ الَّتِي لمْ تُكْتَبْ بَعْدُ،
فِي حِكَايَةِ القَلْعَةِ وَحِكَايَةِ القَمَرِ المُضَاعَفِ،
وَفِي حِكَايَةِ اللُّعْبَةِ المَكْسُورَةِ
الحِكَايَةُ فِي النِّهَايَةِ، لَمَّا مَرَّتْ غَيْمَةٌ فَوْقَ رَأسِ أليسْيَا
رُبَّمَا، نَحْنُ ظِلالُ تِلْكَ الزُّرْقَةِ فِي يَدِهَا.

في مسار الرواية العربيّة

منعطفاتٌ بارزة

جاوزتْ الرواية العربيّة الحديثة منذ بداياتِها، المئةَ سنة، مُتلكِّئةً، مُتعثِّرةً، باحثةً عن بدايةٍ تشُدُّها إلى مدارٍ مُجتمعيٍّ يحتضنها ويُغذِّيها بموضوعاتٍ وقضايا تُوطِّد الصِّلة بينها وبين جمهورٍ قارئ مُحتمَل...



محمد برادة

سأتجاوز هنا مسألة تحديد أوَّل رواية أهلَّتْ علينا في نهاية القرن التاسع عشر أو مطلع القرن العشرين، لأنّ السبْقَ في هذا المجال لا يُضيء شيئاً، ولأن الأمرَ يتعلَّق بـ«بدايات» تتعاقب وتتقاطع لتُبلور عناصر بداية هي دائماً مُركّبة وجدلية. إلّا أنّ محاولة إبراز المحطّات والمُنعطفات الأساس في مسار الرواية العربيّة الحديثة تظلّ مرتبطة بما يقتضيه منطق المُثاقفة، أي البدء بالتأثُّر السطحي بالنموذج الوافد مع الاستعمار والبعثات، كما تمَّ ذلك في نهاية القرن 19؛ ثم مرحلة التراكم والاقتراب أكثر من رواية «الآخر»، عبْر الترجمة السريعة وما يُنشر من ملخصاتٍ في الصحف والمجلّات، تمهيداً لبَلورةٍ أكثر ستتضح معالمها مع إنشاء الجامعات والمعاهد العليا، وإرسال الطلاب والدارسينَ العرب إلى أوروبا... وبالتّوازي، كانت المجتمعات العربيّة تعرفُ خلخلةً في بُناها المجتمعيّة وفي مجرى القيم والسلوكات، من خلال تفتيح العيون على «صندوق العجائب» الذي شيّدته أوروبا، خلال الهجْعةِ الطويلة لـ«مُدن الملح» طوالَ قرون. ولأنّ الرواية، في شكلها الحديث، شكلٌ منفتح على كلّ الأجناس التعبيريّة ويستوعبُ «نثْرية» الحياة وأسئلتها الوجوديّة على السواء، ويتفاعل مع هيكلة الدولة ومؤسّساتها ويلتقط صوتَ الفرد وهو يُحاور ويُصارع القوانين اللّاجمة لرغباته ونزواته، فإن بدايات الرواية العربيّة الحديثة منذ أوائل القرن العشرين، وجدتْ في فضاء مصر واتساع طبقات مجتمعها، وسبْقها إلى الاحتكاك بأوروبا، مجالاً خصباً لبَذْر البُذور وتحقيق النّموّ واليُنوع...

لكن السؤال الذي يستوقفنا اليوم، وقد قطعت الرواية العربيّة ما ينيف على قرنٍ من الزمن وتخايلتْ للنضوج وشهدتْ لها جائزة «نوبل» بالعالميّة والشّبوب عن الطوْق، هو: كيف نميِّز المُنعطفات البارزة في هذه الرحلة التي بوّأتْ الرواية مكان الصدارة في القراءة والإنتاج والتفاعل النقديّ؟ أو بعبارةٍ ثانية، ما هي اللحظاتُ البارزة التي جعلت الرواية العربيّة تُوطِّد علاقتها بحقل الرواية العالميّة وتستوعب الأسس الفَنّيّة والجماليّة، وتتعدَّى مرحلة الاقتباس والتّصادي إلى مرحلة الاستنباتِ الواعي الذي يجعل الإبداع الروائي تعبيراً جمالياً عن علائق وصراعاتٍ وتأمُّلات في التاريخ والوجود؟

لِمُحاولة الإجابة عن هذا التساؤل البعيد المدى، نقتصر على استنطاق الحقل الروائي في مصر، لأكثر من سببٍ، آخذين في الاعتبار، بخاصّةٍ، حجمَ المجتمع المصري وتسارُع التصنيف الاجتماعيّ اللذيْن جعلا من مدينة القاهرة فضاءً لتفريخ «الرومانيسك» (=المادّة الحياتيّة الخامّ التي نصنع منها الوقائع السرديّة) ودمْجه في السيْرورة اليومية ليصبح شخصيّة تمشي على قدميْن عبْر الحارات والأسواق والإدارات العموميّة والمقاهي والكباريهات... من هذه الزاوية، يمكن أن نلتقط ثلاث لحظات إبداعيّة اضطلعتْ بإرساء مداميك الرواية العربيّة واغتنتْ في الآن نفسه بما أنتجه روائيون وروائيات ينتمون إلى الفضاء العربيّ. هذه اللحظات الثلاث نشير إليها على النحو التالي:

- تجربة نجيب محفوظ الذي استطاع، كما يرى كثيرٌ من النُقَّاد، أن يختزل بإنتاجه ما حقَّقه روائيون كُثر في أوروبا خلال القرنيْن الثامن والتاسع عشر؛ إذ إنه أصرّ على أنْ ينطلق من بدايات الرواية الكلاسيكيّة (الواقعيّة، التاريخيّة، رواية الأجيال)، على الرغم من أن الرواية العالميّة في أربعينيات القرن الماضي

كانت قد تخطّتْ تلك الأشكال واستكشفت مناطق جديدة للسرد والدلالات. فكأنّ نجيب محفوظ ملأ ذلك الفراغ ومهّد الطريق أمام جيل الستينيات ليرتاد مجال التجديد والحداثة. وبطبيعة الحال، لم يتوقّف محفوظ عند تلك التجربة التدشينية وحقّق تحوُّلات في مساره الإبداعي.

- وهناك لحظة جيل الستينيات في مصر التي قفزت بالرواية إلى مستوى أكثر رحابة، حرَّرها من حَرْفيّة الواقعيّة ونمطيّة السرد الخَطّي، وَوَصلَها بتقنياتِ التضمين والكولاج والميتا - نصّ، والفانطاستيك واستنطاق الذات ونزواتها وغرائزها المكبوتة، على نحو ما حقّقه صُنع الله إبراهيم، أو استيحاء الشكل السرديّ العربيّ القديم وتوظيف مستوياته اللُّغويّة والتاريخيّة على نحو ما أنجزه جمال الغيطاني. بذلك استطاعت الرواية العربيّة أن تمُدَّ جسوراً جديدة مع الكتابة الروائية في العالم، مستفيدة من مرحلة جديدة في المُثاقفة شملتْ التعليمَ الجامعي وانتشار وسائط الإعلام والسينما المُتقدّمة، ونموّ وعي جديد في العالم الثالث يُصرّ على تصفية الاستعمار والإمبريالية، واكتساب المعرفة القادرة على فتح بوّابةٍ حقيقيّة نحو الحداثة وكسْر قيود الحكم الأوتوقراطي. وممّا عزّز تجربة التجديد في الأدب والرواية آنذاك، هزيمة الجيوش العربيّة سنة 1967 أمام إسرائيل، ما نبّه المبدعين العرب إلى هشاشة الأنظمة والأيديولوجيات السائدة، ودفعهم إلى التحرُّر من «وصاية» السياسة التي وظفتْ قدسية المُتخيّل الوطنيّ ومزاعمها في تحرير فلسطين... وهذا ما جعل الأدب العربيّ يستعيد حرّيته في التجريب وارتياد مناطق المسكوت عنه، بعيداً عن التمجيد والطنطنة الفارغة.

- واللحظة الثالثة نتلمّسها في تجربةٍ مُميّزة تجسدُها روايات إدوار الخراط، ولها امتدادات في الفضاء العربيّ تشكّل أفقاً للرهان وترسيخ الرواية في وصفها مجالاً للمعرفة والمتعة واستكناه الأسئلة الصعبة. استطاع الخراط منذ نشر روايته الأولى «رامة والتنين» سنة 1980، أن يُنجز نصوصاً تختلف عن الواقعية الكلاسيكيّة والجديدة، وأن يتحرَّر من المُتخيّل المحصور في المرئي والمحسوس والملموس، ليجعل من الرواية جنساً تعبيرياً يسعى إلى امتصاص جميع الأشكال والثيمات، ويُوسّع درجة الرؤية لتشمل الوعي المُتحوِّل وتُلامس الأسئلة السريّة التي تنبع من الذات المُعذَّبة بلغزية الوجود وتناسُل الكوابيس وشبوب العواطف. الرواية عند الخراط، تشبه الدنيا في تكوينها: لا تقبل التجزيء وتحتاج إلى لغةٍ كثيفة من طينِ الأرض وشعريتها، تستطيع التقاط أسئلة الأنسنيّة المُهدّدة باستمرار، والغوْص في مجاهل الكينونة والذاكرة (Humanisme)...

هذه المحطّات البارزة في مسار الرواية العربيّة على امتداد ما يفوق المئة سنة، تُجسّد ثلاث طرائق في الإبداع الروائي، تبلورتْ بوضوح لدى روائيين مصريين، وتعضَّدتْ ولا شكّ، بنصوص ينتمي كتابها إلى أقطارٍ عربيّة أخرى (جبرا إبراهيم جبرا، الطيب صالح، فتحي غانم، إميل حبيبي...). ومن النافل القول بأن هذا الرصد لا ينفي وجود نماذج أخرى من روايات تتوخّى التسلية واستجلاب النوم، أوْ تقصد إلى الوعظ الأخلاقيّ واجترار سردياتٍ ماضوية... ويتوقّف استجلاء هذا الجانب من استهلاك الرواية على تحقيقات سوسيولوجيا الأدب التي تتيح تحديد أصناف القُرَّاء ومستواهم الثقافيّ، وقياس مدى تأثير الرواية في شحذ الوعي وتجديد المُتخيّل داخل الفضاء العربيّ. لكن غيابَ مثل هذا المرصد السوسيولوجي في الجامعات والمعاهد العربيّة، جعل مسار الرواية خاضعاً للتقديرات العشوائية ولتقلُّبات مزاج القُرَّاء، وأهواء الناشرين. وهذه مسألة تتّصل في نهاية التحليل بهشاشة الحقل الأدبيّ العربيّ الذي لم يستطع بعد أن يُحقِّق شروطاً تضمن استقلال الكُتّاب والمُبدعين، وتُساعدهم على تشييد علائق مادية ومعنوية تدعم الحوار والتساندُ الضّروريّن بين المبدعين والقُرَّاء والناشرين. ذلك أن الوضع الاعتباري المَصُون داخل حقلٍ أدبيّ له استقلاله ومُقوِّماته، هو ما يفتح طريق التجدُّد والتحوُّل، لتظلّ الرواية أداةً للكشف والتنبؤ والاستبصار.

حتى لا يظلّ المرء فريسة لنفسه!

كيف نتعامل مع الأغبياء؟

إنه لأمر مثير للسخرية أن يعتقد الفرد الواحد منا بأنه ذكي، أو من سلالة الأذكياء، وأن يدّعي السلامة من الفخاخ التي ينصبها له الغباء، عندما يتربّص به -خلسةً- في مختلف محطّات حياته اليومية. فالغباء شيء غير متوقّع، وغير مرغوب فيه؛ يتأسَّس على خيبات الذكاء وهزائمه المتوالية، ويطارد الآذانَ بضجيجه الذي يصل إلى أبعد مدى؛ في أقصى الأماكن، التي لا يُسمع فيها للذكاء صوت ولا صدى.

لا مناص من الإقرار بأن الأغبياء قد وُجدوا منذ الأزل، وسيظلّون موجودين بيننا، بالضرورة، دائماً وإلى الأبد، فهل بإمكاننا إيجاد طرق وقائية أو دفاعية تسعفنا في التعامل مع هذه الشريحة الغريبة من الناس التي يحلو لنا أن ننعتها بـ«الأغبياء» من الذين يقطعون رقاب المعنى، ويطلقون العنان للتفاهات، ويشوّشون على البنية الذهنية للمجتمع؟ وهل بمقدور الفلسفة التوصُّل إلى حلول نهائية واضحة لهذه المشكلة الملِحّة؟ وإلى أي حدّ يمكن العيش، بسلام، مع هذه الفئة التي تجتاح، بغبائها، كلّ ما يقف في طريقها؟... تلك أسئلة يتناولها، بالدراسة والتحليل، الباحث «مكسيم روفر[1] -Maxime Rovere»، في مؤلّفه «كيف نتعامل مع الأغبياء؟-حتى لا يظلّ المرء فريسة لغبائه- «Que faire des cons? Pour ne pas en rester un soi-même»، الصادر عام (2019)، عن دار «فلاماريون»، والذي يقرّ، في صفحاته الأولى، في غير تردُّد أو مواربة، بأنه لو كان يملك الجواب الحاسم في اللحظة التي طرح فيها هذه الأسئلة، سيصير، بلا شكّ، واحداً من الأغبياء! وتجنباً للوقوع في هذه الورطة، بذل الكاتب ما في وسعه لكشف طلاسم الغباء بوصفه ظاهرة متَّسعة تتَّسم باختلاف عواملها ومجالاتها، وتستعصي على الكبح والضبط، لأنها متفشِّية في كلّ مكان، لا تعرف قيوداً أو حدوداً.

يستهلّ الكاتب حديثه عن الغباء، من زاوية فلسفية، حيث يؤكِّد أن تخصيص قدماء الفلاسفة مباحثهم لدراسة التجربة الفريدة لقوى الذكاء، بالدرجة الأولى، أفضى بهم إلى النظر إلى الغباء على أنه مشكلة ثانوية لا تستحقّ أن تؤخذ مأخذ الجدّ. ومع ذلك، فإن جهودهم المتميِّزة في فهم واستكشاف مختلف الدلالات الثانوية خلف كلمة «فهم»، لم تحُلْ دون إثبات وجود الغباء، بوصفه مناقضاً للذكاء؛ وذلك لأن كلًّا من الغباء والذكاء- حتى في المقاربة الأكثر اتِّساعاً- يتعرّفان بالأساس وفق تناسب عكسي؛ «ففي اللحظة التي يكفّ فيها المرء عن أن يكون غبيًّا، يبدأ في فهم الأشياء»؛ ولهذا السبب، نعت قدماء الفلاسفة خصومهم بأوصاف تكاد تكون كلّها سلبية، إذ تفترض، دوماً، تبنّي وجهة نظر منطقية تجاه الغبي، ترى فيه شخصاً أقلّ ذكاءً؛ على المستوى النظري.

وعلى الرغم من أن قدماء الفلاسفة لم يُعْنَوا بالتأليف في تاريخ الغباء، فقد تنبَّهوا، باكراً، إلى أن الغباء يشكِّل عقبة من العقبات التي تحول دون اكتساب المعرفة، وحاجزاً يقف أمام كلّ سموّ خُلُقي، وفي وجه كلّ نقاش هادف، و-بالجملة- هو معضلة تزيد من تعقّد الحياة الاجتماعية المشتركة، حيث تتمظهر مشكلته الأساسية في أشكال مختلفة تُتداول بين الناس تحت مسمَّيات شتّى، نذكر منها: الآراء والأحكام المسبقة، والخرافة، والتعصُّب، والعواطف، والدوغمائية، وادِّعاء المعرفة، والعدمية...

ولكي نسمّي الأشياء بمسمّياتها الحقيقية، يرجِّح الكاتب أن جوهر الإشكال لا يكمن في الغباء ذاته، بقدر ما يكمن في الأغبياء أنفسهم. وفي الواقع،





كيفما كان التعريف الذي نرتضيه للغباء، لا بدّ من أن نخلص إلى النتيجة التالية: استناداً إلى كلّ الوسائل الممكنة والمتخيَّلة، واستنجاداً بكلّ القوى البشرية وغير البشرية، يجب مكافحة الغباء والقضاء عليه. والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصدد، هو: من الذي يستطيع أن يقول: إن علينا أن نتخلَّص من الأغبياء؟ ينتشر الغباء في كلّ الأرجاء، ومعه حاملوه، ومبدعو أشكاله، وصانعو فرجته من الأغبياء الحقيقيين الذين يعترضون حياتنا اليومية، سواء من الذين نلتقيهم صدفةً في وسائل النقل الجماعية أو من الذين نصطبح بوجوههم، يوميّاً، في العمل، أو من الذين يعيشون معنا في العائلة؛ صغيرة كانت أم كبيرة. وربَّما اجتازوا معنا جزءاً من الطريق، وتقاسموا معنا لحظات غامرة من السعادة في صداقاتنا وقصص حبّنا...وهكذا، يعدّ الأغبياء من زاوية فلسفية، مشكلة أكثر تعقيداً وأهمِّيّةً من الغباء نفسه. فالسلوكات الغبية التي تبدو للكثيرين بأنها عدوانية، تطرح إشكالاً نظريّاً بالغ التعقيد يتَّخذ شكلاً دائرياً؛ فالغباء ينتهي من حيث بدأ، ثم يعود إلى صاحبه.

وفي الواقع، عندما يجد المرء نفسه في مواجهة شخص غبيّ، فإن شيئاً ما ينبثق في داخله، بشكل فوري؛ شيء قادر على تجريده من ذكائه (والذكاء، هنا، بمعناه الواسع الذي يفيد الاستعداد للفهم). وما علينا، إذن، سوى أن نتقبّل، بصدر رحب، الفكرة الآتية: إن أقرَّ المرء بانتمائه إلى فئة الأغبياء، فلن يواجه، أبداً، أيّ شخص، بل سيجد نفسه في مواجهة وضعية تحول، تماماً، دون قدرته على الفهم، إذ من السمات الرئيسة للغباء: امتصاص قدرتك على التحليل، وإجبارك على أن تتكلَّم لغته، وتشاركه لعبته، باختصار: هو يدفعك إلى الإقامة على أرضه؛ يتعلَّق الأمر -إذن- بفخّ لا يمكن الإفلات منه.

ينبه الكاتب إلى أن كتابه هذا يعالج ظاهرة الغباء بناءً على الواقع؛ وعليه ينبغي مكافحة هذه الظاهرة، بوصفها مشكلة خُلقية، وسياسية، واجتماعية. ولا يتأتَّى ذلك إلّا من خلال إرساء أساليب حياة مشتركة تمنع الشباب من أن يصيروا أغبياء. بيد أن الجهود المبذولة على نطاق واسع، لتحسين تطوير الذكاء، ينبغي ألّا تحجب عنّا حدودها وآفاقها، إذ يخضع استخدام الآليّات المضادّة للأغبياء، وإثبات مدى نجاعتها، لعدد كثير من العوامل. وعلى الرغم من أن الجهود المبذولة من طرف العلوم الإنسانية وأصحاب النوايا الحسنة لمكافحة الغباء، لها مشروعيتها ومصداقيتها، يتفلَّت الغباء، يتفلّت ويذوب، ويثبت حضوره، بقوّة، في مختلف الممارسات الإنسانية.

ويخاطب الكاتب قارئه بقوله: لو كنتَ على أكبر قدر ممكن من الإرادة وحسن النيّة، وكيفما كان العالم الذي تعيش فيه، فسوف تلتقي، دوماً، بالضرورة، عدداً من الأغبياء! فالغباء شيء أبعد ما يكون عن الثبات، لم تؤثِّر فيه التغيُّرات التاريخية؛ لأنه يتميَّز بمقاومة دقيقة جدّاً، يعارض بها الأغبياءُ كلَّ ما نهمّ بفعله لتحسين موقف معيّن، حتى ولو كان هذا الموقف خاصّاً بهم؛ من ثَمَّ، الأغبياء، دوماً، في معارضة شديدة لكلّ ما تبذله من مجهودات، فهم يسعون، جاهدين، إلى إغراق حججك في مماحكات لا حصر لها، وإلى مجابهة اللطف بالعنف والتهديد، وإلى القضاء على المصلحة المشتركة، بارتياد نوع من العمى من شأنه أن يقوّض دعائم مصلحتك، بل يبدد حتى مصالحهم الفردية.

وفقاً لما سبق، ليس الغباء مجرَّد ترسُّبات للتطوُّر الإنساني، يتعذّر تخليصها من شوائبها، فحسب، بل -على العكس من ذلك- يُعَدّ الغباء أحد المحرِّكات الرئيسة للتاريخ، إنه قوّة استطاعت -على الرغم من عماها- أن تحقِّق انتصارات كبيرة في الماضي، وستحظى بانتصارات أكبر في المستقبل، و-بعبارة أوجز وأدق- يكمن السرّ وراء هذه القوّة الدائمة التي لا يمكن التغلُّب عليها، في ما يأتي: الأغبياء عنيدون، لا يكلّون، وهم يصرّون على المضيّ قدُماً في درب الغباء!.

يخلص الكاتب إلى أن كلّ غباء يفضي إلى غباء مماثل؛ فالذين يسعون إلى التخلُّص من الأغبياء أو إلى تشبيه خصومهم بالأغبياء، يسهمون -إذن، وبشكل فعّال- في الرفع من الغباء السائد؛ ولهذا السبب لا نستطيع الاقتراب من الأغبياء إلّا باستخدام مرآة عاكسة قد تدفعنا إلى التسليم بأننا أكثر غباءً. لقد علَّمنا الأغبياءُ أنه لا يوجد خبير يستطيع القضاء على الغباء، وأن أقصى ما يمكن للمرء فعله، في هذا المقام، هو ارتجال أصناف المراوغات لمواجهة هذه الظاهرة الغريبة والفوضوية.

■ فيصل أبو الطُّفَيْل

هوامش

- مكسيم روفر: كاتب ومؤرِّخ للفلسفة، وأستاذ سبق له أن درّس في المدرسة العليا للأساتذة ENS، في مدينة ليون الفرنسية، ثم في الجامعة الأسقفية الكاثوليكية، PUC في ريو دي جانيرو بالبرازيل. من مؤلفاته: عشيرة سبينوزا، (فلاماريون)، 2017.

تمكّن من تحليل الأحداث الاجتماعيّة والسياسيّة

فلسفة الهندسة المعماريّة

بعيداً عن النظريّات الكلاسيكيّة التي يرجعُ تاريخها إلى أفلاطون وفيتروفيوس، يقترحُ «لودجر شوارت Ludger Schwarte» في كتابِه «فلسفة الهندسة المعماريّة» قراءة فريدة للمعمار من منظور فلسفة سياسيّة، بغض النظرِ عن النظرةِ الجماليّة أو الرمزيّة.

لقد اعتبر ميشيل فوكو «Foucault» الهندسة المعماريّة تكنولوجيا القوة.. ففي كتابيه «المراقبة والمعاقبة» و«تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكيّ»، أوضح «فوكو» كيف أن تقنيات القوة الحديثة استثمرت المجال المعماريّ، سواء في المدارس أو المستشفيات أو المصانع أو السجون التي تمَّ تصميمها كأدواتٍ تأديبية. ويشير المُؤلِّف إلى أن الخط الذي رسمه «فوكو» ما يزال واضحاً وصحيحاً إلى حَدٍّ ما، بدءاً بالأحصنة والقلاع العظيمة، وانتهاء بالقصور الفرنسيّة في القرن السابع عشر. لقد حوَّلت تلك الأبراج المُحصَّنة إلى سجون للفتك والتعذيب بدل إعادة التأهيل وإرساء تربية اجتماعيّة وأخلاقيّة.

لقد أثار موقف «فوكو» لُودجر شوارت، الذي حاول أن يفهم دور الهندسة المعماريّة في حركات التحرُّر، معتبراً المساحات العامّة مسارح للعمل الجماعي، وبالتالي فإن السؤال هو معرفة ما إذا كان التكوين الخاصّ بها يسمح بالتفاعلات المدفوعة بالأحداث والتجارب الإبداعية. ففي شوارع باريس خلال العصور الوسطى، كان من المستحيل على المئات أو حتى الآلاف من الناس التجمُّع لإدراك بعضهم البعض وتشكيلِ حركة بهذا الحجم. يقول لودجر: «يجب علينا أوّلاً تحليل هذه الأماكن ممّا تسمح به جسدياً. ثانياً، دراسة الأماكن المخصَّصة للانضباط أو السيطرة أو حتى الإهانة -لأن بنية المدينة في هذه الأبعاد هي عنف رمزيّ- تستدعي ردود فعل عنيفة».



لودجر شوارت ▲



الفضاء الثوري

ينطلق المُؤلِّف من ملاحظة مفادها أن الثورة الفرنسيّة وقعت في الشوارع والساحات التي بُنيت قبل أقلّ من قرن من الزمان من حدوثها، وأن الجماهير الثورية لا يمكن أن تتجمَّع في هذه الأماكن العامّة الجديدة لو لم تكنْ موجودة أصلاً. تدفع هذه الملاحظة المُؤلِّف للبحث عن العلاقة القائمة بين الهندسة المعماريّة والديموقراطية؛ وهي علاقة تقوده أيضاً للبحث عن أنواع المساحات التي تجعل أنواعاً مُعيَّنة من الأفعال أو الأحداث ممكنة أو مستحيلة، خصوصاً إذا استحضرنا أن مسار التاريخ يعتمد على بناء الفضاء.

يطرح المُؤلِّف في ثنايا كتابه عدداً من التساؤلات، من قبيل: كيف تُفهم المدينة وتستحوذ على شكلها المليء بالحياة المزدحمة بالبشر والقوى غير المرئية التي تحرّكها؟ وهل يمكن لعمارة القرن الثامن عشر أن تساعد في فهم الثورة الفرنسية؟ يجيب الفيلسوف الألماني من خلال تقديم قراءة تنبش في تطوُّر التقاليد المعماريّة وتستجيب للتغييرات التي تعبر عنها كلّ من الفنون والميتافيزيقيا من الإغريق إلى العصر الحديث. بمعنى أن الهندسة المعماريّة العظيمة «تنطوي على فلسفة قائمة بذاتها»، مثال ذلك ساحة «أغورا - Agora»، وهي ساحة دائرية كان المزارعون بأثينا يلتقون فيها منذ عام (406 ق.م)، ولكنها لم تكنْ حكراً عليهم، بل كانت موضع التقاء الفلاسفة أيضاً. تشكل «أغورا - agora» اليونانية، مركز القوة الجماعيّة للمدينة، إنها المكان العمومي الذي كانت تُتخذ فيه القرارات الأساسيّة في المجتمع الإغريقيّ القديم.

ذهب «فوكو» إلى أن باريس في قرن الثورة انتقلت إلى نموذج «مجتمع السيطرة»، لكن فكرة



شوارت تجاوز هذا النهج من خلال تصوُّر العمارة كمجموعة من المساحات الديناميكيّة التي شيدتها التجارب الجماعيّة، والمُعرَّضة لعدم الاستقرار، وغير المُتوقَّعة، والتي تخلق كذلك الظروف لبروز الديموقراطية. يقول شوارت: «وإذا كان التاريخ يجعل الثورة من القصر الملكي بدايةً، فيجب على المرء أيضاً أن يذهب إلى مطاعم القرن الثوري، والحمامات العامّة، والمحاكم حتى يتسنّى له إجراء تحليل رصين لمساحات جديدة من السلوك الاجتماعيّ. لقد استجابت شبكات الجسور والساحات في باريس خلال القرن الثامن عشر لأيديولوجية التنوير: المساحات الطبيعيّة والمضيئة التي يهيمن عليها النظام العامّ والنظافة».

كما لم يكن من الضروري انتظار العنف الثوري حتى تولد هذه المساحات. فمنذ سنة 1749، دعا «فولتير - Voltaire» إلى الاحتجاج علانية، لأنه منذ القرن الثالث عشر كانت الأماكن الوحيدة الموجودة في باريس هي الساحات الملكية، إضافة إلى ساحة قصر بلدية باريس، أو ساحة التحرير، والتي كان اسمها في السابق وحتى 1803 ميدان الإضراب «Place de Grève»، وهي «مبنى وقح في مكانٍ صغير لإعدام المجرمين»، في حين أن المناطق الضخمة في المدينة وجميع ساحات العاصمة لم يكن لها مكان عام واحد. يُنظر إلى الثورة الفرنسية على أنها أوّل ظهور لكتلة منفتحة وذات دوافع سياسيّة، والتي شهدت خروج حشود غفيرة من الأماكن المغلقة إلى الميادين والشوارع. لقد استلزم ذلك وجود مساحات عامّة مبنية حديثاً. ومن المؤكَّد أن امتداد هذه الأماكن لم يسبب وحده اندلاع الثورة، لكنه أسهم بشكلٍ أو بآخر في تشكيل الأحداث الثورية.

الفضاء والحدث

تشكل هذه الدراسة محاولة لاستكمال تحليل أسباب إعادة إعمار الفضاء ودوافعه في المناسبات الاجتماعيّة؛ كما أنها تحاول أيضاً فهم المُتطلَّبات والشروط والاحتمالات الخاصّة بأبرز الأحداث الاجتماعيّة، حيث تنبع مساحة ظهور الإمكانيات الملموسة للعمل من تكوين أشياء مختلفة: إن المربعات الحضرية والشوارع والقصور الملكية كان لها تأثير حاسم باعتبارها مساحات عامّة سمحت باتخاذ المواقف والإجراءات والمظاهرات. لقد تمكّن سكّان باريس من التعبير عن أنفسهم كموضوع سياسيّ، وهذا يعني بطبيعة الحال أنه كان هناك في السابق أعدادٌ كبيرة من الناس في الحيّز الحضريّ للعاصمة؛ ولكن هؤلاء السكّان لم يتمكّنوا من الظهور إلّا في ظلّ ظروفٍ عامّة ملائمة أملتها مسألة التوزيع الطوبوغرافي للمدينة. ويشكّل عدد الأشخاص وتوزيعهم شرطاً مسبقاً وضرورياً، ولكنه ليس شرطاً كافياً لإظهار الصفات التي يمكن أن تكون لها آثار ثورية. وهكذا يتحوَّل الفضاء الحيوي إلى طاقة ثورية، حيث تتدفَّق الحشود وتجتمع وتتحرَّك وتحتج. يقول المُؤلِّف: «إنه من المعلوم أن شكل الكائنات الحيّة وحركتها وتحوُّلها مشروط ببيئتها، ولكن في الوقت نفسه تتحوَّل هذه



الظروف أيضاً عن طريق التعديل التلقائي. وهذا الترابط يعطي الشكل لمجالات العمل بسبب بنيتها غير المتجانسة، وتسود قوانين محدَّدة داخل هذه المجالات التي يمكن أن تختلف بشدّة عن بعضها البعض». وإذا أريد لمجالات العمل أن تكون ذات صلة بالهندسة المعماريّة، فإن المسألة هي تحليل الاعتماد المتبادل للبيئة ومجال العمل من حيث ظهورها وعوامل تشكيلها. ويضيف قائلاً: «نحن لسنا مجرَّد منتجات للبيئة، بل نحن أيضاً نغيّر المناخ الذي نعتمد عليه (...)، وكما تُظهر العديد من الأعمال الاستثنائية فإن حدود أحاسيسنا البشريّة وتعبيراتنا تتميّز بأفقِ العالم اليومي، وذلك في إشارة إلى أن هذا الأفق لا يمكن أن يتكشّف إلّا من خلال مبانينا ولغتنا. وهذا العالم من الحياة لا يزال هشاً وديناميكياً في الآن ذاته. ويتوقّف استقراره في الأماكن، ويمكن أن يوفِّر أسس حياة ناجحة، فالفضاء يبني البنية والنماذج في هذا العالم الذي نعيش فيه».

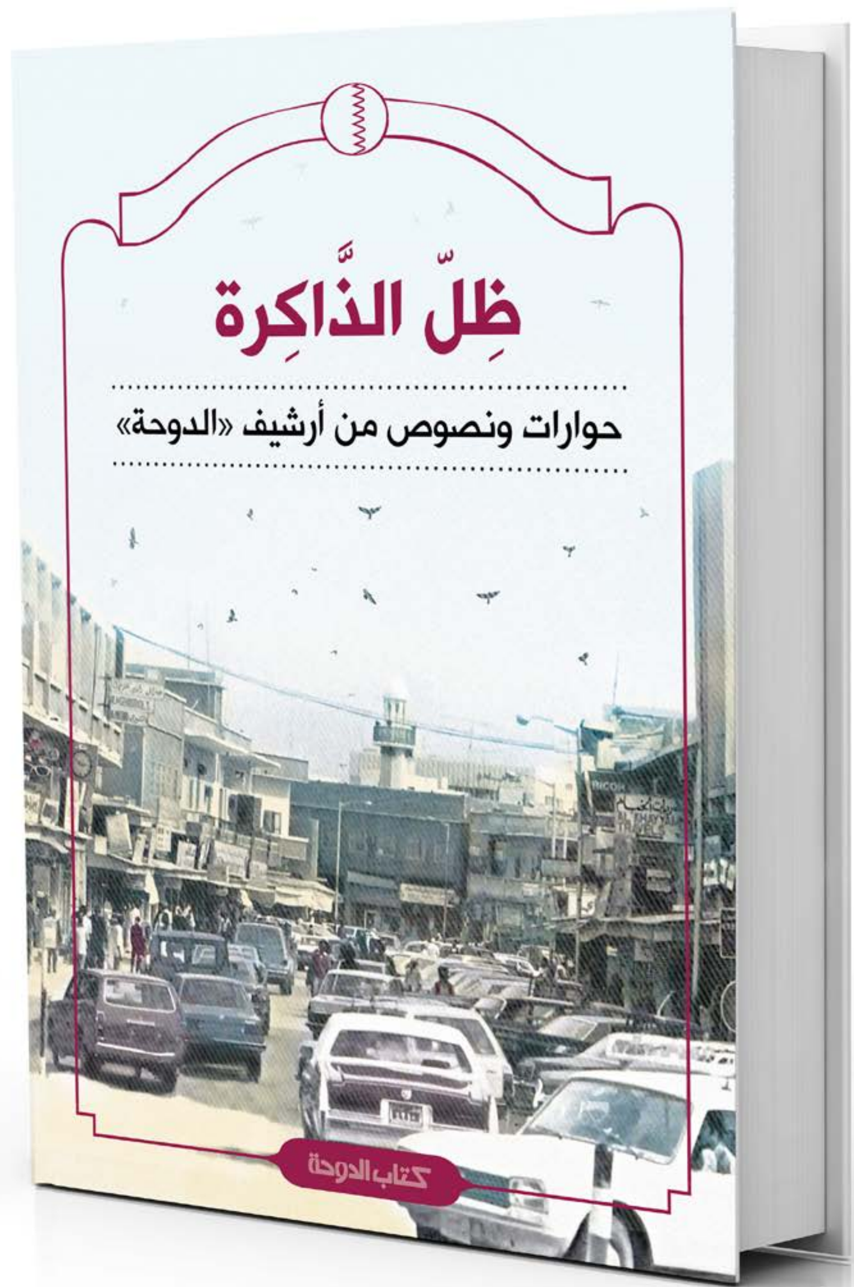
يحاول لودجر شوارت في فلسفته الحديثة للهندسة المعماريّة التقاط اللحظات الدقيقة التي تكون فيها التجمُّعات الشعبيّة محتشدة في الدوارات وحتى في أماكن غير متوقَّعة، وذلك في ارتباط بما تسمح به الأشكال المعماريّة التي تحيط بنا. يقول: «إن المطعم أو الحمام أو المسرح هي مساحات سياسيّة، كما أن الجلوس على طاولة في مقهى لإلقاء خطاب هو عملٌ معماريّ رئيس. وبالمثل، فإن العديد من الأماكن مثل ميدان «ألكساندر Alexander» في برلين أو ميدان التحرير في القاهرة أو ميدان الاستقلال في تونس أو ميدان «ميدين - Maidan» في كييف... كلّها مستلهمة من هذه المباني الباريسيّة. وبدون وجود هذه الأماكن، لم تكنْ المظاهرات الجماهيريّة التي أثارت الثورات قد حدثت. يقول المُؤلِّف: «إن هدف مقاربتي الفلسفيّة في الهندسة المعماريّة هو تحديد الدور الذي لعبته في المناسبات الاجتماعيّة. بالطبع، لم يؤدِّي امتداد المساحات العامّة بالتأكيد إلى حدوث الثورات من تلقاء نفسها. إن الادعاء بأن ذلك سيكون خطأ فادحٌ، وعلى العكس من ذلك، فإن تلك المساحات هي مجرَّد حاويات مُحايدة. لكن هذه المساحات بالتأكيد أعطت شكلاً للأحداث، ومن ثَمَّ مكَّنت الثورة من الاندلاع والتحقُّق. وبالتالي فإن العمارة ليست مسرح الثورة، بل قوتها؛ هي تصوُّر لإمكانيات جديدة، وجعل ذلك ممكناً».

إن المكان فضاء مثير للاهتمام، لأن وظيفته تطوَّرت بطريقة متناقضة وفقاً للزمن والقوى. ويفتح المكان خيارات للحركة وقمع أساليب الاستيلاء المختلفة، ويحوِّل التعايش إلى اتحاد. وبالتالي، فإن مدينة «بيزا» الإيطالية مثلاً هي مظهر من مظاهر الحركات الجمهورية التي تشهد على إثبات السيادة الشعبيّة. وبعد ذلك، ظهر عنصر معماريّ جديد في الساحة، وهو النصب المركزي؛ وقد لُوحظ وصول التماثيل في هذه المدينة على وجه التحديد في لحظة الانتقال من الدستور الجمهوريّ إلى الدستور الأميريّ، وذلك بعد احتلال وسط الميدان. يختتم لودجر بقوله: «إذا كانت فرنسا أو ألمانيا ديموقراطيات حقيقيّة، فيجب أن يكون هناك في كلّ قرية أو تجمع سكّاني مكان للقاء بين المواطنين». إن الهندسة المعماريّة ليست ديكوراً بسيطاً أو إعداداً عشوائياً. إذ لا يمكن للمرء أن يصف الأحداث الاجتماعيّة والسياسيّة ويحلّلها دون اللجوء إليها.

■ عبد الرحمان إكيدر

صدر في

كتاب الدوحة



خليل بيدس

الرائد المنسي

ما قدَّمه «خليل بيدس» للأدب العربي، وما حَمَله من فكر منفتح وواعٍ، وما امتلكه من مواهب قصصية وترجمية، يجعله رائداً على أكثر من صعيد.

كثيراً ما يجد الباحث فيما كُتب عن أحوال العرب الثقافية، أواخر القرن التاسع ومطلع القرن العشرين، مقولات تحصيلية وتحديدات تاريخية وإحصاءات توثيقية تُشير، بمجملها، إلى أنّ المشهد الثقافي العربي، عموماً، والأدبي، تحديداً، كان، آنذاك، في طور النشأة والتكوّن، أدباً وفكراً وصحافة، وأنه كان يسير سيراً وئيداً إلى أنْ بلغ مرحلة التبلْوُر والتمكين، وذلك بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

بيد أنّ ما تقدّمه لنا الأرشفة الإلكترونية، في مواقع كثيرة في الشبكة العنكبوتية، أمر مهمّ؛ كونه يكشف لنا الكثير، وقد يُمدّنا بحقائق تقلب ما لدينا من تخمينات بنيناها على الظنّ والاحتمال، أو تدحض بعض محصّلات، كان مؤرِّخو الأدب الحديث قد انتهوا إليها؛ تلك المحصّلات التي استمرَّت الدراسات والأبحاث اللاحقة تتابعها فيه.

وبوجود الأرشفة الرقمية، سيغدو اختبار كثير ممّا لدينا من محصّلات وتوصُّلات عن النهضة الأدبية العربيّة في العصر الحديث، وفحص مدى دقّتها، أمراً ضرورياً، وتثويراً للمعطيات ووقوفاً على المسارات الصحيحة التي كان عليها الواقع الثقافي العربي. ولعلّنا، بالاستعادة، سندحض ما كان يشاع عن الثقافة العربيّة، وأنها كانت في أواخر القرن التاسع وليدة تحبو، أو قاصرة لم تشبّ عن الطوق.

واحدة من المجلّات التي تمّت أرشفة أعدادها كاملةً، هي مجلّة «النفائس العصرية»، لمنشئها «خليل بيدس»، وقد صدر العدد الأوّل منها في القدس بفلسطين، عام 1908، واستمرَّت إلى عام 1923. ونظرة استقصائية في أعداد هذه المجلّة ستضع أمامنا صورة مختلفة عمّا كان قد رسمها لنا مؤرِّخو الأدب العربي عن العقدَيْن: الأوَّل والثاني من القرن العشرين داخل فلسطين، فالأدب كان ذا وتيرة عالية؛ شعراً ومقالاتٍ وقصصاً، وكذلك كان الفكر والترجمة والتاريخ؛ بمعنى أن هناك واقعاً ثقافياً، الأدب فيه ليس وليداً يقلِّد الكبار، بل هو كائن حرّ يقف على قدمَيْن ثابتتَيْن.

وليس أدلّ على ذلك الحال ممّا كان يُنشَر في مجلّة «النفائس العصرية» من مقالات ثقافية تُربّي ذوق الجمهور القارئ، وتزيد وعيه بما حوله، مقيمةً جسوراً ثقافية للتواصل مع العالم، من روسيا إلى أميركا، تارةً بنشر القصص إدراكاً لأهمّية الفنّ السردي، وباعه في تنمية الوعي وتربية الذوق، وتارة ثانية، بتعريب أعمال قصصية عالمية (بالتصرُّف) إلى اللُّغة العربيّة، ونشرها على أجزاء، أو تخصيص عدد من أعداد المجلّة لها، وتارة ثالثة بالتنبيه إلى الخطر الداهم الذي كان يتهدَّد العرب الفلسطينيين، وتارةً رابعة بنشر رسائل مستشرقين ومفكِّرين غربيِّين.

وفي هذا كلّه ما يشبه الحرب الثقافية التي «تدور رحاها بين المتحدِّثين باسم الغرب، والمتحدِّثين باسم العالم الإسلامي، والعربي» (المثقَّف والسلطة، إدوارد سعيد، ص 193).

وخليل بيدس (1875 - 1949)، الذي درس في مدارس الجمعية الروسية في «السمينار» في الناصرة، واحد من أولئك المحاربين الذين كانت له صولات ثقافية، أهمَّها إنشاؤه مجلّة «النفائس العصرية» بوصفها مجلّة تاريخية أدبية فكاهية، كما هو مثبَّت على غلافها، وكانت تُعنى بمقالات متنوّعة لشعراء فلسطينيين وغير فلسطينيين، وكتاب ومثقَّفين مثل محمَّد إسعاف النشاشيبي، وعلي الريماوي، وحليم دموس، وقسطاكي الحمصي، كما تنشر فيها قصائد كبار شعراء العربيّة، مثل حافظ إبراهيم، والرصافي، وخليل مطران، ومقالات عربيّة وأخرى مترجمة عن اللّغات: الروسية، والألمانية، والإنجليزية، والفرنسية.

وكان «بيدس» مثقَّفاً، ذا وطنية عالية، بسببها حُكِم عليه بالإعدام أو السجن لفترة طويلة، حتى أن كتابه «حديث السجون» ألَّفه داخل السجن، وألَّف خارجه أربعة وأربعين كتاباً، منها «ديوان الفكاهة» المنشور في القاهرة، عام 1924، وكتبٌ في اللّغة والنحو والتاريخ والسياسة، بالإضافة إلى كتبٌ مدرسية، وكلّها ضاعت ونُهِبت من قِبَل المحتلّين، عام 1948.

«بيدس»، هو المترجم المرموق الذي أتقن اللغتَيْن: الروسية، والإنجليزية، فترجم رواية «شقاء الملوك» للكاتبة الإنجليزية «ماري كورلي»، ونقلها منه «جورافسكايا» إلى الروسية، ثم نشرها «بيدس» متسلسلةً في أعداد مجلّته «النفائس العصرية».

ووعيه بأهمّية الانفتاح على الشعوب، وفاعلية فنّ القصّ في غرس الجمال والأخلاق، جعلاه يمتهن الاثنين: القصّ، والتعريب، فمارس الكتابة السردية مستنداً إلى دعامتين: الأولى ما تراكم من الإرث السردي العربي القديم، والثانية التأثيرات الفنّيّة للسرد الكلاسيكي العالمي.

وعلى الرغم من أن الدكتور ناصر الدين الأسد كان قد عدَّ «بيدس» رائد القصّة الحديثة في فلسطين، بلا منازع، فإنه استدرك استدراكاً علمياً مهمّاً، قائلاً: «ولسنا نعني بالريادة، هنا، أن خليل بيدس كان أوّل من كتب القصّة في هذا البلد، ولا أنه ابتدأ هذا الفنّ ابتداءً، على غير مثال، دون أن تسبقه جهود تمهّد له، وتنتهي إليه؛ فذلك أمر مخالف لطبيعة الأشياء» وهذه الجهود، سنتمكّن من التعرّف إليها، من خلال تصفُّح أعداد المجلّات العربيّة التي أرشفتها المواقع الإلكترونية، لندرك فحوى مقصد «الأسد» العلمي الذي لم يتعمَّق فيه بعض مؤرِّخي السردية العربيّة، وواضعي موسوعاتها المتعجِّلة، للأسف.

وظلّ الدارسون والباحثون يهتمّون بريادة «خليل بيدس»، بينما نجدهم يحجمون عن النظر في بواكير القص العربي التي سبقت عصر «بيدس» بنصف قرن، تقريباً. وهذا الأمر لا ينطبق على فلسطين وحدها بل يشمل بلداناً عربيّة أخرى، منها العراق وسوريا.

وصارت الريادة بمنزلة غشاوة تحول دون التأشير على حقيقة الدور الثقافي الطليعي الذي لعبه «خليل بيدس»، وهو يحاول نشر النتاج الثقافي، والأدبي، والتعريف به خارج الوطن العربي، من خلال علاقته بالمستشرقين الغربيّين، ثم إن الريادة نفسها صارت موضع شَدّ وجذب بين مؤرِّخي الأدب العربي، ودارسيه. فمؤرِّخو الأدب الفلسطيني يذهبون إلى ما ذهب إليه د. ناصر الدين الأسد، من أن رواية «الوارث» (طبعة «دار الأيتام السورية» القدس، 1920)، هي أوّل رواية فلسطينية، بينما يذكر البحّاثة محمَّد عمر حمادة، في كتابه «موسوعة أعلام فلسطين في القرن العشرين»، (طبعة سورية، 2000) أن رواية «الطبيب الحاذق» التي نشرت في جريدة لبنان، في بيروت، عام 1898، ثم طُبِعت طبعة مستقلّة، ونشرت عام 1899، هي التي امتلك «بيدس» بها الريادة، فلسطينيّاً. وإذا استندنا إلى هذا القول فإن رواية «زينب»، لمحمَّد حسين هيكل، لن تكون هي الرائدة عربيّاً، كما يتردَّد دائماً، علماً بأن الباحث عبد الرحمن ياغي كان قد عَدَّ رواية «أمّ الحكيم»، لمحمَّد بن الشيخ التميمي، المكتوبة في القرن التاسع عشر، هي أوّل رواية فلسطينية.



خليل بيدس ▲

هذا إذا لم تكن رواية خليل الخوري «وي، لست بإفرنجي» والمنشورة في جريدة «حديقة الأخبار» (بيروت، عام 1858) هي الأسبق كما هو مذكور في مصادر أخرى.

ليس هذا فحسب؛ بل إنّ موقعاً عربيّاً يذكر أن لخليل بيدس عملاً روائياً واحداً هو «الحسناء المتنكِّرة»، عام 1911. وهذا الخلط بين التعريب والتأليف نجده، أيضاً، إزاء روايات مثل «مذكِّرات من بيت الموتى»، و«المقامر والعرش والحبّ» التي نُسبت إلى «بيدس»، والصحيح أنه عرَّبها عن الروسية، ونَشَرها في مجلّته «النفائس العصرية».

أمّا رواية «الحسناء المتنكّرة»، فمن تأليف «أميل سلفاري» الكاتب الإيطالي، وقد عرَّبها «خليل بيدس»، ونشرها ملحقةً في المجلَّد الثالث من مجلّة «النفائس العصرية»، سنة 1911، ثم نشرت مستقلّة، في طبعة ثانية، في القدس، عام 1925. وتتضمَّن هذه الرواية تفاصيل المواقع الحربية التي نشبت في جزيرة قبرص بين العثمانيين والبنادقة، في عهد السلطان سليم الثاني.

والذي يتصفّح هذا العدد من المجلّة، سيجد أن «خليل بيدس» ختمها بكلمة نقدية، قائلاً: «لمّا كانت هذه الرواية موضوعة في كتاب كبير يشتمل على 263 صفحة، لم نرَ بدّاً، في أثناء تعريبها، من مخالفة الأصل، والإيجاز الكثير في أماكن كثيرة منها؛ لكي لا يملّ القارئ».

وقد نُشر، في عدد تشرين الأوّل، 1910، من مجلّة «النفائس العصرية»، رواية «أهوال الاستبداد»، وكتب تحت العنوان «تأليف العلّامة الروسي الشهير الكونت «ألكسي تولستوي»، عَرَّبها من اللُّغة الروسية- بتصرُّف- خليل بيدس».

ولعلّ الذي حمل المؤرِّخين الفلسطينيين، وقبلهم ناصر الدين الأسد، على الاهتمام برواية «الوارث»، هو طبيعة موضوعها، الذي عدّه بعضهم ضمن أدب المقاومة. لكننا نراه، في خانة الأدب الواقعي الذي يعالج مسائل اجتماعية تتعلّق بقصّة حبّ نشأت بين شابّ عربي، وشابّة يهودية تستغلّ هذا الحبّ، وتحاول مصادرة ثروته لصالحها، بحبائل ومكائد، ستنقلب عليها، في النهاية، ويظلّ البطل وريثاً لعمّه، وقد حافظ على ثروته.

وقد أعيد طبع هذه الرواية، عام 2011، في إطار إحياء الثقافة الفلسطينية المنهوبة، دون التركيز- بشكل كافٍ- على جهود «خليل بيدس»، ودوره الطليعي في الثقافة الفلسطينيّة، لاسيَّما ما ترجمه من قصص روسية لكلٍّ من دستوفسكي، وبلنسكي، وتشيخوف، وتورجينف، وأغلبها تتحدَّث عن الشخصية اليهودية، فضلاً عن تناس لروايات «خليل بيدس» الأخرى، التي سبقت «الوارث»، وكذلك مجموعاته القصصية الضائعة مثل «مسارح الأذهان»، و«آفاق الفكر» التي طبعت في القاهرة، عام 1924.

■ نادية هناوي

من رسائل البلغاء لـمحمد كرد علي

بابُ الصديق

ابذلْ لِصديقكَ دَمَكَ ومالَكَ، ولمعرفتكَ رِفْدَكَ ومَحْضَرَكَ، وللعامَّة بشرَكَ وتَحنُّنكَ، ولعدوّك عَدلك، واضنَنْ بدينك وعِرْضِكَ عنْ كلّ أحَدٍ. إن سَمِعتَ منْ صاحبك كلاماً أو رَأياً يُعجبُك فلا تَنْتَحلهُ تزيُّناً به عند الناس، واكتف من التزيُّن بأن تجتني الصوَّاب إذا سَمِعتهُ، وتَنْسُبَهُ إلى صاحبهِ. واعلمْ أن انتحالَكَ ذاكَ سَخْطةٌ لصاحبكَ، وأن فيه- مع ذلك- عاراً، فإن بَلَغَ ذلكَ بكَ أن تُشير برَأي الرَّجل، وتتكلّمَ بكلامه، وهو يَسمَعُ، جَمَعت مع الظلم قلَّة الحياء؛ وهذا منْ سوُء الأدَب الفاشي في الناس. ومن تمام حُسْن الخلُق والأدَب أن تسخوَ نفسك لأخيك بما انتحل من كلامك ورأيك، وتنسب إليه رأيهُ وكلامَهُ وتُزيّنهُ- مع ذلكَ- ما استطعت.

لا يكوننَّ من خلقُك أن تَبتدي حديثاً، ثمَّ تقطعهُ وتقولَ: «سَوْفَ..» كأنَّكَ رَوَّأتَ فيه بعد ابتدائه، وليكن تروّيك فيه قبل التفوُّه؛ فإن احتجانَ الحديث، بعد افتتاحه، سُخْفٌ.

أُخزنْ عقلك وكلامَكَ إلّا عند إصابة الموضع، فإنهُ ليس في كلّ حين يحسُنُ كلُّ الصواب، وإنما تمام إصابة الرَّاي والقول بإصابة الموضع فإن أخطاكَ ذلك أدخلتَ المحنةَ على علمكَ، حتى تأتي به- إن أتيت به في غير موضعه- وهو لا بهاءَ، ولا طلاوةَ لهُ.

لِتَعرفِ العُلماء، حين تجالسُهُم، أنَّكَ على أن تسمع أحرصُ منك على أن تقولَ. إن آثرتَ أن تفاخر أحداً ممَّن تستأنسُ إليه في لهو الحديث، فاجعل غاية ذلك الجدَّ، ولا تعدوَنَّ أن تتكلَّم فيه بما كان هزلاً، فإذا بَلَغَ الجدَّ أوْ قاربَهُ فَدعْهُ، ولا تخلطَنَّ بالجدِّ هزلاً، ولا بالهزل جدّاً؛ فإنك ان خلطتَ بالجدّ هزلاً هجَّنتهُ، وإن خلطت بالهزل جدّاً كدَّرته، غير أني قد علمتُ موطناً واحداً، إن قدرت أن تستقبلَ فيه الجدَّ بالهزل أصبتَ الرأيَ، وظهرتَ على الأقران؛ وذلك أن يتورّدَك متورّد بالسفه والغضبِ، فتُجيبهُ إجابةَ الهازل المُداعبِ برُحْب من الذَّرع وطلاقة من الوجه وثبات من المنطق.

إن رأيت صاحبك مع عدُوِّكَ فلا يغضبنَّك ذلكَ، فإنمَا هُو أحَدُ رَجلَين: إن كان رجلاً من إخوان الثّقة فأنفعُ مواطنه لكَ أقربُها منْ عَدُوّكَ لشرٍّ يَكفُّهُ عنكَ، وعورة يستُرُها منكَ، وغائبة يَطلعُ عليها لك، فأمَّا صديقُكَ فما أغنَاكَ أن يحضرهُ ذُو ثقتكَ. وان كانَ رَجلاً من غير خاصّة إخوانك، فبأيّ حقّ تقطعهُ عن النّاس، وتُكلّفهُ أن لا يُصاحبَ، ولا يُجالسَ إلّا من تهْوى؟.

تحفَّظْ، في مجلسكَ وكلامك، من التَّطاوُل على الأصحاب، وطِبْ نفساً عن كثير ممَّا يَعرضُ لكَ فيه صَوابُ القَول والرَّأي، مُدَاراة؛ لئلاً يظنّ أصحابك أنّ ما بك التطاوُل عليهم.

إذا أقبلَ إليكَ مقبلٌ بوُدِّه، فسَرَّكَ ألّا يُدبر عنكَ، فلا تنعم الإقبال عليه والتفتُّحَ لهُ؛ فإن الإنسان طُبعَ على ضرَائب لؤم، فمنْ شأنِهِ أن يرحل عمَّن لصقَ به، ويَلصقَ بمَنْ رَحَلَ عنهُ.

لا تُكْثرنّ ادّعاء العلم في كلّ ما يَعرضُ، فإنكَ، منْ ذلكَ، بينَ فَضيحَتيْن: إمَّا أن ينازعُوك فيما ادَّعيت فيُهجَم منك على الجهالة والصَّلَف، وإمَّا ألّا ينازعُوكَ ويُخَلّوا الأمُور في يَديك فينكشف منك التصَنُّعُ والمَعْجِزةُ.

استحْيِ الحياءَ كلّهُ من أن تخبر صاحبك أنكَ عالم، وأنهُ جاهل، مصرِّحاً أو معرضاً. وإن استطلت على الأكفاء فلا تثقنَّ منهم بالصفاء. إن آنستَ من نفسك فضلاً فتحَرَّجْ أن تذكره أو تبديهُ، واعلم أن ظهوره منكَ، بذلكَ الوجه، يقرّرُ لكَ في قلوب النّاس منَ العَيب أكثر ممّا يقرّرُ ذلك منَ الفضل، واعلمْ أنك إن صبرتَ ولم تعجل ظهرَ ذلك منك بالوجه الجميل المعروف، ولا يخفينَّ عليك أنّ حرصَ الرَّجل على إظهار ما عنده وقلَّة وقاره في ذلك، بابٌ من البخل واللوم، وأن من خير الأعوان على ذلك السخاءَ والتكرّمَ.

إن أحببتَ أن تلبس ثوبَ الوقار والجمال، وتتحلّى بحلية المودَّة عندَ العامَّة، وتلك الجُدَدَ الذي لا خَبارَ فيه ولا عثارَ، فكن عالماً كجاهل، وناطقاً كعَيٍّ. فأمَّا العلم فيُرشدُك، وأمَّا قلّة ادّعائه فينفي عنكَ الحسَدَ، وأمَّا المنطقُ- إذا احتجت إليه- فسيبلغُ حاجتك، وأمَّا الصَّمتُ فيكسبكَ المحبّة والوقار.

وإذا رأيت رجلاً يُحدّث حديثاً قد علمتهُ، أو يخبرُ خبراً قد سمعته، فلا تشاركهُ فيه ولا تتعقَّبه عليه؛ حرصاً على أن يعلمَ الناسُ أنك قد عَلمتهُ؛ فإن في ذلك خفَّةً، وشُحّاً، وسوء أدَب، وسُخفاً.

ليعرف إخوانكَ والعامَّة أنَّكَ إن استطعتَ أن تكون إلى أن تفعلَ ما لا تقولُ أقربَ منكَ إلى أن تقولَ ما لا تفعلُ فعلتَ؛ فإن فضلَ القول على الفعل عار وهجنة، وفضلَ الفعل على القَول زينة، وأنت حقيقٌ، فيما وعدتَ من نفسك أو أخبرت صاحبك عنهُ، أن

تحتجنَ بعض ما في نفسك إعداداً لفضل الفعل على القول، وتحرُّزاً، بذلك، عن تقصير فعل إن قصَّر، وقلَّما يكون إلّا مقصّراً.

احفظْ قول الحكيم الذي قال: لتكن غايتك، فيما بينكَ وبين عدُوّكَ، العَدْلَ، وفيما بينك وبين صديقكَ الرّضى؛ وذلك أن العدُوَّ خصْم تضربه بالحُجَّةِ، وتغلبه بالحُكّام، وأن الصديق ليس بينك وبينهُ قاضٍ فإنما حُكمهُ رِضاهُ.

اجعل عامّة تشبُّثك في مؤاخاةِ من تؤاخي ومُواصلة من تواصلُ، ووطِّنْ نفسكَ على أنّهُ لا سبيل لك إلى قطيعة أخيك، وإن ظهر لك منهُ ما تكرهُ؛ فإنهُ ليس كالمرأة التي تطلّقها إذا شئت، ولكنه عرضكَ ومروءتكَ، فإنما مُروءة الرجلُ إخوانهُ وأخدانهُ، فإن عَثر الناسُ على أنكَ قطعتَ رجلاً من إخوانك، وإن كنت مُعذراً، نزل ذلك عند أكثرهم بمنزلة الخيانة للإخاء والملال. وإن أنتَ صبرتَ، مع ذلك، على مُقارّته على غير الرضى، عاد ذلك إلى العيب والنقيصة.

فالاتّئادَ الاتئادَ، والتثبُّت التثبُّت، إذا نظرت في حال من ترتئيه لإخائك، فإن كان من إخوان الدين فليكن فقيهاً ليس بمراءٍ ولا حريص، وإن كان من إخوان الدنيا فليكن حرّاً، ليس بجاهل ولا كذّاب ولا شرّير ولا مشنوع؛ فإن الجاهلَ أهل لأن يهرب منه أبواه، وإنّ الكذّاب لا يكون أخاً صادقاً، لأن الكذب الذي يجري على لسانه إنّما هو من فضول كذب قلبه، وإنّما سُمِّيَ الصديق مِن الصدْق، وقد يُتَّهم صدقُ القلب وإن صدق اللسان، فكيف إذا ظهرَ الكذب على اللسان؟ وإن الشرّير يكسبك العدوَّ، ولا حاجة لك في صداقة تَجلبُ العداوة، وإن المشنُوعَ شانِعٌ صاحبَهُ.

تحرَّز منْ سُكر السلطة، وسُكْر العِلم، وسُكْر المنزلة، وسُكْر الشباب؛ فإنهُ ليسَ من هذا شيء إلّا وهوّ ريح جنّةٍ تَسلب العقل، وتذهب الوقار، وتصرف القلب والسمع والبصر واللسان عن المنافع.

اعلم أنّ انقباضك عن الناس يكسبك العداوة، وأن تفرُّسك لهم يكسبكَ صديق السوء، وفسوُلة الأصدقاء أضرّ من بغض الأعداء؛ فإنك إن واصلت صديق السوء أَعْيتك جرائره، وان قطعته شانكَ اسمُ القطيعة، وألزمك ذلك من يرفع عيبك ولا ينشر عذرك، فإن المعايب تَنْمي، والمعاذير لا تَنْمي.

الْبس للناسِ لباسَيْن، ليس للعاقل بُدٌّ منهُما، ولا عيش ولا مروءةَ إلّا بهما: لباس انقباضٍ واحتجاز، تلبسه للعامّة فلا تلفينَّ إلّا متحفِّظاً متشدِّداً متحرِّزاً مستعدّاً، ولباسُ انبساط واستئناس، تلبسهُ للخاصَّة من الثّقات فتتلقّاهُم بَناتِ صدرك، وتفضي إليهم، بموضوع حديثك، وتضع عنك مؤنة الحذر والتحفُّظ فيما بينك وبينهم. وأهلُ هذه الطبقة الذين هم أهلها قليلٌ؛ لأن ذا الرأي لا يُدخِل أحداً من نفسه هذا المُدخل إلّا بعد الاختبار والسَّبر والثّقة بصدقِ النصيحة ووفاءِ العقل.



محمد كرد علي ▲

اعلمْ أن لسانك أداةٌ مغلَّبة، يتغالب عليه عقلكَ وغضبكَ وهواك وجهلك، فكلّ غلب عليه مستمتِع به وصارفُهُ في محبّته، فإذا غلب عليه عقلك فهو لك، وإذا غلب عليه شيء من أشياء ما سَمَّيتُ لك فهو لعدُوكَ، فإن استطعت أن تحتفظ به فلا يكون إلّا لك، ولا يستوليَ عليه أو يشاركَك عدوُّك فيه، فافعلْ.

إذا نابَتْ أخاك إحدى النوائب، من زوال نعمة أو نُزُول بليّة، فاعلم أنك قد ابتُليت معهُ؛ إمَّا بالمواساة فتشاركه في البليّة، وإمَّا بالخذلان فتحتمل العار، فالتمِس المخرج عند اشتباه ذلك، وآثر مُرُوءتك على ما سواها، فإن نزلت الجائحة، التي تأبى نفسك مشاركةَ أخيك فيها، فأجمِلْ؛ فلعلَّ الإجمال يَسعَك، لِقِلّتِه في الناس.

إذا أصاب أخاك فضْل فإنهُ ليس في دُنُوّكَ منه، وابتغائك مَوَدَّتهُ، وتواضُعك له مذلّة، فاغتنم ذلك، واعملْ فيه.

إذا كانت لك عند أحد صنيعة، أو كان لكَ عليه طَوْل فالتمِسْ إحياء ذلك بإماتته، وتعظيمه بالتصغير، ولا تقتصرنَّ في قلَّة المنّ على أن تقول: «لا أذكره، ولا أصغي بسمعي إلى من يَذْكره»؛ فإن هذا قد يستحيي منهُ بعضُ من لا يُوصف بعقل ولا كرم،

ولكن احذر أن يكون في مجالستك إيّاه وما تكلِّمهُ به أو تستعينهُ عليه أو تجاريه فيه شيءٌ من الاستطالة، فإن الاستطالة تهدم الصنيعة، وتكدِّر المعروفَ.

احترسْ من سَوْرة الغضب، وسَوْرة الحَمِيَّة، وسَوْرة الحقد، وسَوْرة الجهل، وأعدد، لكلّ شيء من ذلك عدّة، تجاهده بها، من الحلم والتفكّر والرويّة وذكر العاقبة وطلب الفضيلة. واعلم أنك لا تصيب الغلبة إلّا بالجهاد، وأن قلّة الأعداد لموافقة الطبائع المتطلّعة هو الاستسلام، وأنه ليس أحد إلّا فيه من كلّ طبيعة سوء غريزة، وإنّما التفاضل بَيْنَ الناس في مغالبة طبائع السوء. فأمَّا أن يَسلم أحدٌ من أن تكون فيه تلك الغرائز فليس في ذلك مطمع، إلّا أن الرَّجُل القويَّ- إذا كابَرَها بالقمع لها كلّها، كلّما تطلّعت- لم يلبث أن يميتها حتى كأنها ليست فيه، وهي، في ذلك، كامنة كمُونَ النّار في العُودِ، فإذا وجَدَت قادحاً من غير علّة أو غفلة استورَتْ كما تستوري عند القدْح، ثم لا يَبدأ ضرُّها إلّا بصاحبها كما لا تبدأ النار إلّا بعُودها الذي كانت فيه.

ذلّل نفسَك بالصبر على جار السوء، وعشير السوء، وجليس السوء؛ فإن ذلك مالا يكاد يخطئك، فإن الصبر صبران: صبر الرجل على ما يكرهُ، وصبرهُ عمّا يحبّ؛ فالصبر على المكروه أكثرهُما، وأشبههما أن يكون صاحبُهُ مضُطرّاً. واعلم أن اللئام أصبرُ أجساداً، والكرام أصبرُ نفوساً، وليس الصبر الممدوح بأن يكون جلدُ الرجل وقاحاً أو رجلهُ قويّةً على المشي أو يدهُ قويّة على العمل؛ فإنما هذا من صفات الحمير، ولكن أن يكون للنفس غَلوباً، وللأمور محتمِلاً، وفي الضرّ متجمِّلاً، ولنفسه، عند الرأي والحفاظ، مرتبطاً، وللحزم مُؤْثِراً، وللهوى تاركاً، وللمشقّة التي يرجو عاقبتها مستخفّاً، وعلى مجاهدة الأهواء والشهوات مُواظِباً، ولبصره بعزمه مُنفِذاً.

حبِّبْ إلى نفسك العلم حتى تألفهُ وتلزمهُ، ويكون هو لهوك ولذّتك وسلوتك وبُلغَتك. واعلم أن العِلمَ عِلْمان: علم للمنافع، وعلم لتزكيه العقل، وأفشى العِلمين وأجداهُما أن ينشط له صاحبهُ من غير أن يحرِّضَ عليه علمُ المنافع. وللعلم الذي هو ذكاء العقول وصقالها وجلاؤها فضيلة منزَّلة، عند أهل الفضل، في الألباب.

عَوِّدْ نفسك السخاء، واعلم أنهُما سخاآن: سخاوة نفس الرجلُ بما في يديه، وسخاوته عمَّا في أيدي الناس، وسخاوة نفس الرجل بما في يديه أكثرهما وأقربهما من أن تدخل فيه المفاخرة، وتركه ما في أيدي الناس، أمحضُ في التكرُّم، وأنزهُ في الدنس، فإن هو جمعهما فبذلَ وعفَّ، فقد استكمل الجود والكرَمَ.

ليكن ممّا تصْرفُ به الأذى والعذاب عن نفسك ألّا تكون حسوداً، فإن الحسد خلق لئيم، ومن لؤمه أنهُ يؤكلُ بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاء والخلطاء، فليكنْ ما تُقابلُ به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون، حين تكون مع من هو خير منك، وأن غنماً لك أن يكون عشيركَ وخليطكَ أفضلَ منكَ في العلم، فتقبسَ من علمه، وأفضل منكَ في القوّة، فيدفع عنك بقوَّته، وأفضل منك في المال فتفيد من ماله، وأفضل منك في الجاه، فتصيب حاجتك بجاهه، وأفضل منك في الدّين، فتزداد صلاحاً بصلاحه.

ليكُنْ ما تنظرُ فيه من أمر عدُوِّك وحاسدكَ أن تعلم أنّهُ لا ينفعك أن تخبر عدوَّك أنك له عدوّ، فتنذره نفسك وتؤذنه بحربك، قبل الإعداد والفرصة، فتحملهُ على التسلُّح لك، وتوقد نارهُ عليك.

اعلم أن أعظم خطرك أن تُريَ عدوَّك أنك لا تتَّخذهُ عدوّاً، فإن ذلك غرّة لهُ وسبيل لك إلى القدرة عليه، فإن أنت قدَّرت فاستطعت اغتفاراً لعدواته، عن أن تكافئ بها، فهنالك استكملت عظيم الخطر، وإن كنت مكافئاً بالعدواة والضرر فإيّاك أن تكافئ عداوة السرّ بعداوة العلانية، وعداوة الخاصّة بعداوة العامّة؛ فإن ذلك هو الظلم والعارُ. واعلم- مع ذلك- أنهُ ليس كلُّ العداوة والضرر يكافأُ بمثله؛ كالخيانة لا تكافَأ بالخيانة، والسرقة لا تكافَأ بالسرقة. ومن الحيلة في أمرك مع عدوِّك أن تصادق أصدقاءه، وتواخي إخوانهُ فتدخل بينه وبينهم في سبيل الشقاق والتجافي، فإنه ليس رجل ذو طرق يمتنع من مؤاخاتك، إذا التمست ذلك منهُ، وإن كان إخوان عدُوِّك ذوي طرق فلا عدوَّ لكَ.

لا تدعْ، مع السكوت عن شتم عدوِّك، إحصاء معايبه ومثالبة، واتِّباع عوراته، حتى لا يشذّ عنك من ذلك صغير ولا كبير، من غير أن تشيع عليه، فيتَّقيك به، ويستعدّ له، أو تذكره في غير موضعه، فتكون كمستعرض الهواء بنَبْله، قبل إمكان الرمي.

لا تتَّخذ اللعن والشتم على عدُوِّكَ سلاحاً؛ فإنهُ لا يجرحُ في نفس، ولا في مال، ولا دين، ولا منزلة.

إن أردت أن تكون داهياً، فلا تحبَّنَّ داهياً؛ فإنهُ من عُرِف بالدهاء خاتلَ علانيةً، وحَذره الناسُ حتى يمتنع منهُ الضعيف، وإنّ من أرب الأريب دَفْن إربه ما استطاع، حتى يُعرَف بالمسامحة في الخليقة والطريقة، ومن إربه ألّا يؤارب العاقل المستقيم له الذي يطَّلع على غامض إربه، فيمقته عليه.

إن اردت السلامة فأشْعِرْ قلبك الهيبة للأمُور، من غير أن تظهر منك الهيبة، فيفطن الناسُ لهيبتك ويجرِّئهم عليك، ويدعو ذلك إليك منهم كلّما تهاب، فاشعَبْ لمداراة ذلك من كتمان المهابة وإظهار الجراءة والتهاون طائفة من رأيك. وإن ابتليت بمجازاة عدوّ محالف، فالزَمْ هذه الطريقة التي وصفت لك من استشعار الهيبة وإظهار الجراءة والتهاوُن، وعليك بالحذر في أمرك والجراءة في قلبك؛ حتى تملأ قلبك جراءةً، ويستفرغ عملُك الحذر.

إن من عدُوِّك مَنْ تعملُ في هلاكه، ومنهم مَنْ تعمل في البعد عنه، فاعرفهم على منازلهم. ومن أقوى القوَّة لك على عدُوِّك، وأعزّ أنصارك في الغلبَة أن تحصي على نفسك العيوب

والعورات، كلّما أحصيتها على عدوّك، وتنظر عند كلّ عيب تراه أو تسمعهُ لأحد من الناس، هل قارفت مثله أو مشاكلهُ، فإن كنت قارفت منه شيئاً فأَحْصِه فيما تحصي على نفسك، حتى إذا أحصيت ذلك كلّهُ فكابر عدُوَّك بإصلاح عيوبك وتحصين عوراتك، وإحراز مقاتلكَ، وخُذْ نفسك بذلك ممسياً مُصْبحاً فإذا آنستَ منها دفعاً لذلك أو تهاوناً به فاعدُد نفسك عاجزاً ضائعاً جانباً مُغوراً لعدوّك ممكناً له من رميك، وإن حصل من غيوبك بعض ما لا تقدر على إصلاحه من أمرٍ قد مضى يعيبُك عند الناس، ولا تراهُ أنت عيباً، فاحفظ ذلكَ وما عسى أن يقول فيه قائل مِنْ حَسَبكَ أو مثالب آبائك أو عيب إخوانك، ثمَّ أجمل ذلك كلّهُ نصب عينيك، واعلم أن عدوَّك مريدك بذلك، فلا تنقل عن التهيُّؤ لهُ والإعداد لقوّتك وحجتَّك وحيلَتك فيه، سرّاً وعلانية. فأمَّا الباطل فلا تروعن به قلبك، ولا تستعدَّنَّ لهُ، ولا تشغلنَّ به فإنه لا يَهُولك ما لم يقع، وإذا وقع اضمحلَّ.

اعلم أنهُ قلّما بُدِهَ أحد بشيء يعرفه من نفسه، وقد كان يطمع في إخفائه عن الناس، فيعيّرُهُ به معيّر عند السلطان أو غيره، إلّا كاد يشهد به عليه وجهه وعيناه ولسانهُ للذي يبدُو منهُ عند ذلك، والذي يكون من انكساره وفتوره، عند تلك البدهة، فاحذر هذه وتصنَّع لها، وخذ أهبتك لبغتاتها.

اعلمْ أن من أوقع الأمور في الدّين، وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال، وأضرّها بالعقل، وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار، الغرام بالنساء، ومن البلاء على المُغرم بهنَّ أنه لا ينفكّ يأجمُ ما عنده، وتطمحُ عيناهُ إلى ما ليس عندهُ منهنَّ. وانَّما النساء أشباه، وما يُرى في العُيُون والقلوب من فضل مجهولاتهنَّ على معروفاتهن، باطلٌ وخدعة، بل كثير ممَّا يرغبُ عنهُ الراغبُ ممَّا عندهُ أفضلُ ممَّا تتوقُ إليه نفسهُ. وإنما المترغِّبُ عمّا في رحله منهنّ إلى مافي رحال الناس كالمترغّب عن طعام بيته إلى مافي بيوت الناس، بل النساء أشبه من الطعام بالطعام، وما في رحال الناس من الأطعمة أشدّ تفاضلاً وتفاوتاً ممّا في رحالهم من النساء. ومن العجب أن الرجل الذي لا بأس في لبسه، يرى المرأة من بعيد متلفّفة في ثيابها، فيصوّر لها في قلبه الحسن والجمال، حتى تعلق بها نفسه من غير رؤية ولا خبر مخبر، ثمّ لعلّه يهجم منها على أقبح القبح وأدمّ الدّمامة، فلا يعظه ذلك عن أمثالها، ولايزال مشغوفاً بما لم يذق حتى لو لم يبقَ في الأرض غير امرأة واحدة لظنَّ أن لها شأناً غير شأن ماذاق، وهذا هو الحمقُ والشقاء. ومَنْ لم يحم نفسه ويظلفها ويجلّها عن الطعام والشراب والنساء، في بعض ساعات شهوته وقدرته، كان أيسر ما يصيبه من وبال أمره انقطاع تلك اللذّات عنه بخمود نار شهوته، وضعف عوامل جسده. وقلّ من تجد إلّا مخادعاً لنفسه في أمر جسده عند الطعام والشراب والحمية والدواء، وفي أمر مروءته عند الأهواء والشهوات، وفي أمر دينه عند الرّيبة والشبهة والطمع.

إن استطعت أن تُنزِل نفسك دون غايتك، في كلّ مجلس ومقام ومقال ورأي وفعل، فافعل، فإن رَفْعَ الناس إيّاك فوق المنزلة التي تحطّ إليها نفسك، وتقريبهم إيّاك في المجلس الذي تباعدت عنه، وتعظيمهم من أمرك ما لم تعظّم وتزيينهم من كلامك ورأيك ما لم تزيِّن، هو الجمال.

لا يعجبنّك العالمُ ما لم يكن عالماً بمواضع ما يعلم. إن غلبت على الكلام وقتاً فلا تغلبَنّ على السكوت؛ فإنه لعلّه يكون المِراء، واعرْفه، ولا يمنعنَّك حذرُ المِراء من حسن المناظرة والمجادلة. واعلم أن المماري هو الذي لا يحبّ أن يتعلَّم، ولا يُتَعلَّم منه، فإن زعم زاعم أنه إنما يجادل في الباطل عن الحقّ، فإن المجادل وإن كان ثابت الحجّة ظاهر البينة- يخاصم إلى غير قاض، وإنما قاضيه الذي لا يعدو، بالخصومة، إلّا إليه، عدلُ صاحبه وعقله فإن آنسَ أو رجا من صاحبه عدلاً يقضي به على نفسه، فقد أصاب وجه أمره، وإن تكلّم على غير ذلك كان ممارياً.

إن استطعت أن لا تخبر أخاك عن ذات نفسك، بشيء إلّا وأنت محتجِنٌ عنه بعض ذلك؛ التماساً لفضل الفعل على القول واستعداداً لتقصير فعل إن قصَّر، فافعل. واعلم أن فضل الفعل على القول، وفضل القول على الفعل هُجنةٌ، وأن إحكام هذه الخلّة من غرائب الخلال.

إذا تراكمت الأعمال عليك فلا تلتمس الرَّوْح في مدافعتها، بالروغان منها؛ فإنه لا راحة لك إلّا في إصدارها، وإن الصبر عليها هو ما يخفِّفها، وإن الضجر منها هو ما يراكمها عليك، فتعهَّد من ذلك، في نفسك، خصلة قد رأيتها تعتري بعض أصحاب الأعمال؛ أن الرجل يكون في أمر من أمره فيردُ عليه شغل آخر، ويأتيه شاغل من الناس يكره تأخيره، فيكدِّر ذلك بنفسه تكديراً يفسد ما كان فيه وما ورد عليه، حتى لا يُحكِم واحداً منهما، فإن ورد عليك مثل ذلك فليكن معك رأيك الذي تختار به الأمور، ثم اختر أَوْلى الأمرَيْن بشغلك به حتى تفرغ منه، ولا يعظمَنّ عليك فوت ما فات، وتأخير ما تأخَّر، إذا أعملت الرأي معمله، وجعلت شغلك في حَقّه.

اجعل لنفسك، في كلّ شيء، غاية ترجو القوّة والتمام عليها، واعلم أنك إن جاوزت الغاية في العبادة صرت إلى التقصير، وإن جاوزتها في حمل العلم صرت من الجهّال، وإن جاوزتها في تكلُّف رضى الناس والخفّة معهم في حاجاتهم، كنت المُصنَع المحشود.

اعلم أن بعض العطيّة لؤم، وبعض البيان عيٌّ، وبعض العلم جهل، فإن استطعت أن لا يكون عطاؤك خوراً، ولا بيانك هذراً، ولا علمك جهلاً، فافعل.

اعلم أنه ستمرّ عليك أحاديث تعجبك؛ إمّا مليحة وإمّا رائعة، فإذا أعجبتك كنت خليقاً بأن تحفظها، فإن تحفظها فإن الحفظ

مُـوكَلٌ بمـا راع، وسـتحرص علـى أن تُعَجِّـب منهـا الأقـوام، فـإن الحرص على ذلك التعجُّـب مـن شأن النـاس، وليس كلّ معجب لـك معجبـاً لغيـرك، وإذا نشـرت ذلـك مـرَّةً أو مرَّتَيْـن، فلم تـرَه وقعَ مـن السـامعين موقعـه منـك، فازدجـر عـن العَـوْد؛ فـإن العجـب مـن غيـر عجيـب سـخفٌ شـديدٌ، وقـد رأينـا مـن النـاس مـن يعلـق الشـيء ولا يقلعُ عـن الحديث بـه، ولا يمنعـه قلّـةُ قبـول أصحابـه لـه مـن أن يعـود، ثـم يعـود.

إيّـاك والأخبـار الرائعـة، وتحفَّـظْ منهـا؛ فـإن الإنسـان مـن شـأنه الحـرص علـى الأخبـار، لا سـيَّما مـا راع منهـا، فأكثـر النـاس مـن يحدّث بمـا سـمع، ولا يبالـي ممَّـن سـمع؛ وذلـك مفسـدة للصدق ومَـزراةٌ بالـرأي، فـإن اسـتطعت ألّا تخبر بشـيء إلّا وأنت به مصدّق، وألّا يكـون تصديقـك إلّا ببرهـان، فافعـل.

ولا تقـلْ كمـا يقـول السـفهاء: أُخبِـرُ بمـا سـمعت؛ فإن الكـذب أكثر مـا أنـت سـامع، وإن السـفهاء أكثـر مَـنْ هو قائـل، وإنـك، إن صرت للأحاديـث واعيـاً وحامـلاً، كان مـا تعـي وتحمـل عـن العامّـة أكثـر ممّـا يختـرع المختـرع بأضعـاف.

انظـر مَـنْ صاحبـت مـن النـاس مـن ذي فضـل عليـك بسـلطان ومنزلـة، ومَـنْ دون ذلـك مـن الخلصـاء والأكفـاء والإخـوان، فوطّنْ نفسـك فـي صحبتـه علـى أن تقبل منه العفو، وتسـخو نفسـك عمّا اعتـاص ممّـا قِبَلَـه، غيـر معاتـب ولا مسـتنطئ، ولا مسـتزيد؛ فـإن المعاتبـة مَقْطَعـة للـودّ، وإن الاسـتزادة مـن الجشـع، وإن الرضـى بالعفـو والمسـامحة في الخلـق مقرّب لك كلّ ما تتوق إليه نفسـك، مـع بقـاء العـرض والمـودّة والمـروءة.

اعلـم أنـك سـتُبتلى مـن أقـوام بسَـفَه، وأن سَـفَه السـفيه سـيطلع لـك منـه، فـإن عارضتـه أو كافأتـه بالسـفه فكأنـك قـد رضيـت مـا أتـى بـه، فاجتنـب أن تحتـذي مثالـه، فـإن كان ذلـك عنـدك مذمومـاً فحقِّـق ذمَّـك إيّـاه بتـرك معارضتـه، فأمّـا أن تذمّـه وتمتثلـه فليـس ذلـك لـك.

لا تصاحبَـنَّ أحـداً، وإن استانسـت بـه أخـا قرابـةٍ أو أخـا مـودّةٍ، ولا والـداً ولا ولـداً، إلّا بمـروءة؛ فـإن كثيـراً مـن أهـل المـروءة قـد يحملهـم الاسترسـال أو التبذّل على أن يصحبوا كثيراً من الخلصاء بـالإذلال والتهـاون، ومـن فقـد مـن صاحبـه صحبـةَ المـروءة ووقارها أحـدثَ لـه، فـي قلبـه، رقّـة شـأن وخفّـة منزلـة.

لا تلتمـس غَلَبـة صاحبـك والظفر عليه بكلّ كلمـة ورأي، ولا تجترئَنّ علـى تقريعـه وتبكيتـه بظَفَـرك إذا اسـتبان، وحجَّتـك إذا وضحـت؛ فـإن أقوامـاً يحملهـم حـبّ الغلبـة وسَـفَه الـرأي، فـي ذلـك، علـى أن يتعقَّبـوا الكلمـة بعـد مـا تنسـى، فيلتمسـوا فيهـا الحجّـة، ثـم يسـتطيلوا بهـا علـى الأصحـاب، وذلـك ضعـف فـي العقـل ولـؤم فـي الأخـلاق.

لا يعجبَنَّـك إكـرام مـن يكرمـك لمنزلـة أو سـلطان؛ فـإن السـلطة أوشـك أمـور الدنيـا زوالاً؛ ولا يعجبَنَّـك إكرامهـم إيَّاك للنسـب؛ فإن الأنسـاب أقـلّ مناقـب الخيـر غَنـاءً عـن أهلهـا فـي الديـن والدنيـا، ولكـن إذا أُكرمـت علـى دين أو مروءة فليعجبـك ذلك؛ فإن المروءة لا تُزايلـك فـي الدنيـا، والديـن لا يُزايلـك فـي الآخـرة.

اعلـم أن الجبـن مقتلـة، وأن الحـرص محرمـة، فانظـر فيمـا رأيـت أو سـمعت: أمَـنْ قُتِـل فـي القتـال مقبـلاً أكثـر، أم مَـنْ قُتِـل مدبـراً؟ وانظـر: مَـنْ يطلـب إليـك بالإجمـال والتكـرّم، أحـقّ أن تسـخو إليـك نفسـك بطلبتـه، أم مَـن يطلـب إليـك بالشـرَه؟.

اعلـم أنـه ليـس كلّ مَـنْ كان لـك فيـه هـوًى، فذكَـرَه ذاكـرٌ بسـوء، وذكرتـه أنـت بخيـر، ينفعـه أو يضـرّه، فـلا يسـتخفنَّك ذكـر أحـد من صديـق أو عـدوّ إلّا فـي موطـن دفـع أو محامـاة؛ فـإن صديقـك إذا وثـق بـك فـي مواطـن المحامـاة لـم يحفـل بمـا تركـت ممّـا سـوى ذلـك، ولـم يكـن لـه عليك سـبيل لائمـة، وإن الأحزم في أمر عدوِّك ألّا تذكـره إلّا حيـث يضـرّه، وألّا تَعُـدَّ يسـيرَ الضـرّ ضـرّاً.

اعلـم أن الرجـل قـد يكـون حليمـاً، فيحملـه الحـرص علـى أن يقـال جليـد، والمخافـة أن يقـال مهيـن، علـى أن يتكلَّـف الجهـل، وقـد يكـون الرجـل زمِّيتـاً فيحملـه الحرص على أن يقال لَسِـنٌ، والمخافة مـن أن يقـال عَـيّ، علـى أن يقـول فـي غيـر موضعـه، فيكـون هـذراً، فاعـرف هـذا وأشـباهه، واحتـرس منـه كلّـه.

إذا بدهـك أمـران، لا تـدري أيُّهمـا أصْـوَب، فانظـر أيُّهمـا أقـرب إلـى هـواك، فخالفـه؛ فـإن أكثـر الصـواب فـي خـلاف الهـوى.

ليجتمـع فـي قلبـك الافتقـار إلـى النـاس، والاسـتغناء عنهـم، فيكـون افتقارك إليهم في لين كلمتك، وحسـن بِشْـرك، ويكون اسـتغناؤك عنهـم فـي نزاهـةِ عِرْضـك وبقـاء عزّك.

لا تجالـس أمـرأً بغيـر طريقتـه؛ فإنـك إن أردت لقاء الجاهل بالعلم، والجافـي بالفقـه، والعيّ بالبيـان، لـم تـزد علـى أن تضيّـع عقلـك، وتـؤذي جليسـك؛ بحملـك عليـه ثقـل مـا لا يعـرف، وغمّـك إيـاه بمثـل مـا يغتـمّ بـه الرجـل الفصيح مـن مخاطبـة الأعجمـي الذي لا يفقـه. واعلـم أنـه ليـس مـن علـم تذكره عنـد غيـر أهلـه، إلّا عـادوه ونَصَبـوا لـه، ونقضـوه عليـك، وحرصوا على أن يجعلـوه جهلاً، حتى أن كثيـراً مـن اللهـو واللعـب الـذي هـو أخـفّ الأشـياء علـى النـاس ليحضـره مـن لا يعرفـه، فيثقـل عليـه ويغتـمّ بـه. ليعلـم صاحبـك أنـك حـدِبٌ علـى صاحبـه، وإيّـاك إن عاشـرَك امـرُؤٌ ورافقـك أن لا يـرى منك بأحـدٍ من أصحابـه وأخدانـه رأفـةً؛ فـإن ذلـك يأخـذ مـن القلـوب مأخـذاً، وإن لطفـك بصاحـب صاحبـك أحسـن عنـده موقعـاً مـن لطفـك بـه بنفسـه.

اتّـقِ الفـرح عنـد المحـزون، واعلـم أنه يحقد على المنطلِق، ويشـكر للمكتئـب.

اعلم أنك سـتسمع من جلسـائك الرأي والحديث تنكره وتستجفيه مـن محـدّثٍ عـن نفسـه أو عـن غيـره، فـلا يكونَّـن منـك التكذيـب ولا

التسخيف لشيء ممّا يأتي به جليسك، ولا يجرّئنّك على ذلك أن تقول: إنّما حدّث من غيره؛ فإن كلّ مردود عليه سيمتعض من الرّد، وإن كان في القوم مَنْ تكره أن يستقرّ في قلبه ذلك القول لخطأٍ تخاف أن يعقد عليهم أو مضرّة تخشاها على أحد، فإنك قادر على أن تنقض ذلك في سرّ، فيكون أيسر للنقض وأبعد للبغضة. واعلم أن البغضة خوف، والمودّة أمنٌ، فاستكثر من المودّة صامتاً؛ فإن الصمت يدعوها إليك، وناطقاً بالحسنى؛ فإن المنطق الحسن يزيد في ودّ الصديق، ويَسُلّ سخيمة الوغر. واعلم أن خفض الصوت وسكون الريح ومشيَ القصد من دواعي المودَّة، إذا لم يخالط ذلك بأوٌ، ولا عجبٌ. أمّا العجب فهو من دواعي المقت والشنآن.

تعلّم حسنَ الاستماع كما تتعلّم حسنَ الكلام، ومن حسن الاستماع إمهال المتكلّم حتى يقضي حديثه، وقلّة التلفُّت إلى الجواب والإقبال، بالوجه والنظر، إلى المتكلِّم، والوعي لما يقول.

واعلم أن المستشار ليس بكفيل، والرأي ليس بمضمون، بل الرأي كلّه غَرَر، لأن أمور الدنيا ليس شيء منها بثقة، ولأنه ليس شيء من أمرها يدركه الحازم إلّا وقد يدركه العاجز، بل- ربّما- أعيا الحَزَمة ما أمكن العَجَزة، فإذا أشار عليك صاحبك برأي، فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل، فلا تجعل ذلك عليه لوماً وعذلاً. تقول: أنت فعلت هذا بي، وأنت أمرتني، ولولا أنت- ولا جَرَم- لا أُطيعك، فإن هذا كلّه ضجر ولؤم وخفّة، وإن كنت أنت المشير فعملَ برأيك، أو ترك، فبدا صوابك، فلا تمتَنَّ ولا تكثرنّ ذكره، إن كان في نجاح ولا تلمْ عليه إن كان استبان في تركه ضرراً. تقول: ألم أقل لك؟؛ ألم أفعل؟؛ فإن هذا مجانب لأدب الحكماء.

اعلم، فيما تكلَّم به صاحبك، أن ممّا يهجِّن صوابَ ما تأتي به، ويُذهِب بهجته، ويزري بقبوله، عَجَلتك في ذلك، قبل أن يفضي إليك بذات نفسه. ومن الأخلاق السيِّئة، على كلّ حال، مغالبة الرجل على كلامه، والاعتراض فيه، والقطع فيه. ومن الأخلاق التي أنت جدير بتركها، إذا حدَّثَ الرجل حديثاً تعرفه، ألّا تسابقه إليه، وتفتحه عليه، وتشاركه فيه، حتى كأنك تظهر للناس بأنك تريد أن يعلموا أنك تعلم من مثل الذي يعلم، وما عليك هو أن تهنِّئه بذلك وتفرده به؛ وهذا الباب من أبواب البخل، وأبوابه الغامضة كثيرة.

وإذا كنت في قوم ليسوا بُلغاء ولا فُصحاء، فدعِ التطاول عليهم في البلاغة أو الفصاحة.

اعلم أن بعض شدّة الحذر عونٌ عليك فيما تحذَر، وأن شدَّة الاتِّقاء تدعو إليك ما تتَّقي.

إن رأيت نفسك تصاغرت إليها الدنيا، ودَعَتْك إلى الزهادة فيها، على حال تعذّر منها عليك، فلا يغرنّك ذلك من نفسك على تلك الحال؛ فإنها ليست بزهادة، ولكنها ضجرٌ واستخذاءٌ وتغيّرُ نفس عند ما أعجزكَ من الدنيا، وغضبٌ منك عليها ممّا التوى عليكَ منها، ولو تمّمت على رفضها، وأمسكت عن طلبها، أوشكت أن ترى من نفسك من الضجر والجزع أشدّ من ضجرك الأوَّل بأضعاف، ولكن إذا دعتك نفسك إلى رفض الدنيا، وهي مقبلة عليك، فأسرع إجابتها.

اعرف عورتك، وإيَّاك أن تعرّض بأحد فيما شاركها. وإذا ذُكِرتْ من أحد خليقتُه فلا تناضل عنه مناضلة المدافع عن نفسه فتُتَّهم بمثلها، ولا تلحّ كلّ الإلحاح. وليكن ما كان منك من غير اختلاط؛ فإن الاختلاط من محقِّقات الريب. وإذا كنت في جماعة قوم أبداً، فلا تعُمَّنَّ جيلاً من الناس أو أمّةً بشتم ولا ذمّ؛ فإنك لا تدري؛ لعلَّك تتناول بعض أعراض جلسائك، ولا تعلم!، ولا تذمّنَّ مع ذلك اسماً من أسماء الرجال أو النساء بأن تقول: إن هذا لقبيح من الأسماء، فإنك لا تدري لعلَّ ذلك موافق لبعض جلسائك في بعض أسماء الأهلين والحرم!، ولا تستصغرنّ من هذا شيئاً، فكلّه يجرح في القلب، وجرح اللسان أشدّ من جرح اليد.

اعلم أن الناس يخدعون أنفسهم بالتعريض والتوقيع بالرجال، في التماس مثالبهم ومساويهم ونقيصتهم، وكلّ ذلك أبْيَنُ عند سامعيه من وضح الصبح، فلا تكوننَّ من ذلك في غرور، ولا تجعلَنَّ نفسك من أهله.

إني مخبرك عن صاحب، كان أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما أَعْظَمَه عندي صغرُ الدنيا في عينه. كان خارجاً عن سلطان بطنه؛ فلا يشتهي مالا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجاً من سلطان فرجه، فلا يدعو إليه مؤنةً، ولا يستخفّ له رأياً، ولا بدناً، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يقدم إلّا على ثقة أو منفعة، وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا قال بزّ القائلين. كان يُرى متضعَّفاً مستضعَفاً، فإذا جاء الجدّ فهو الليث عادياً. وكان لا يدخل في دعوى، ولا يَشْرَك في مِراء، ولا يدلي بحجّة حتى يجد قاضياً عدلاً، وشهوداً عدولاً. وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله حتى يعلم ما اعتذاره. وكان لا يشكو وجعاً إلّا إلى من يرجو عنده البرء، ولا يصحب إلّا من يرجو عنده النصيحة لهما جميعاً. وكان لا يتبرَّم، ولا يستخّط، ولا يتشهّى، ولا يتشكّى، ولا ينتقم من الولي، ولا يغفل عن العدو، ولا يخصّ نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه، بحيلته وقوّته. فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت (ولن تطيق)، ولكنَّ أخذ القليل خيرٌ من تركِ الجميع. وبالله التوفيق.

مفهومُ الشِّعرِ أَمِ الشِّعرُ المفهومُ؟

«القصيدةُ سرٌّ، وعلَى القارئِ أَن يبحثَ عنْ مفتاحٍ».
(مالارْمِيه)

منذُ عمَلي الأَوَّل، «اشْتكَى» كثيرٌ منَ القرَّاءِ بسببِ غموضٍ وعدمِ فهمِهم شِعري! فأَضطرُّ إِلى شرحِ رُؤيتي الشِّعريةِ، لاَ شِعري، لأَنَّ الشَّرحَ يفسدُ الشِّعرَ، مِن أَجلِ قراءَتِه بأُسلوبٍ مُغايرٍ تماماً لِما أَلِفوهُ فِي التَّعليمِ المدرسيِّ والجامعيِّ؛ شرحُ القصيدةِ بيتاً بيتاً (بلْ هوَ تشريحٌ للقصيدةِ)، المناسبةُ، الأَفكارُ، العواطفُ. هذَا الفعلُ/ التَّشريحُ كانَ يُمقِتني كثيراً؛ لأَنَّه يُعدِمُ بوحشيَّةٍ الجمالَ الكلِّيَّ للقصيدةِ، كمَا تفتيتُ وردةٍ، علَى الرَّغمِ مِن أَنَّها قدْ تكونُ نظماً، لاَ شِعراً. هذَا إِشكالٌ مؤرِّقٌ لكثيرينَ «يتعاطونَ» الشِّعرَ بدونِ شكٍّ. لذَا يقِفُ السُّؤالُ: «مفهومُ الشِّعرِ أَمِ الشِّعرُ المفهومُ؟» أَمامَ الشَّاعرِ مثلَ سورٍ شائكٍ؛ بِمَ يَعتني؛ بالمفهومِ أَم بالفهمِ؟ بشعرِه أَم بقارئِه؟ وظلَّ السُّؤالُ- العبارةُ الأَخيرةُ يَعني/ تَعني: بمَنْ يضحِّي؟

بنظرةٍ إِلى الوراءِ، نَرى أَنَّ الشِّعرَ ارتبطَ بدايةً بالنُّطقِ/ الشَّفاهةِ، ثمَّ كانَ الإِنشادُ، ذلكَ أَنَّ الأَمرَ تعلَّقَ بأَكثرَ مِن جانبٍ؛ الأُميَّةُ والتَّعلُّم/ الشَّفاهةُ والكتابةُ، وغيرُهما.

مِن هذَا؛ كانَ لاَ بدَّ أَن يضحِّيَ الشَّاعرُ بمفهومِ الشِّعرِ لِتصلَ رسالتُهُ - قصيدتُهُ، بساعٍ واحدٍ؛ اللِّسانِ.

حينَ كتبَ الشَّاعرُ المُجدِّدُ (أَبو تمَّام) شعراً مُغايراً تماماً لِما كانَ سائداً آنذاكَ، وأَنشدَهُ/ أَلقاهُ أَمامَ مُستمِعينَ، انبرَى لهُ مَنْ يقولُ: «لماذَا لاَ تقولُ مَا يُفهمُ؟» وكانَ جوابُ الشَّاعرِ: «ولماذَا لاَ تَفهمُ؟» .

ثمَّ كانَ أَن «جاءَ رجلٌ إِلى الشَّاعرِ أَبي تمَّام وهوَ يحملُ بينَ يدَيهِ وعاءً، وقالَ لهُ: أَعطني قليلاً مِن ماءِ الملامِ الَّذي جاءَ فِي قولِكَ: «لاَ تسقِني ماءَ الملامِ فإِنَّني/ صبٌّ قدِ استعذبتُ ماءَ بُكائي». فردَّ عليهِ أَبو تمَّام قائلاً: هلْ قرأْتَ قولَهُ تعالَى: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ}؟ قالَ: نعمْ. فقالَ أَبو تمَّام: إِذاً لاَ أُعطيكَ ماءَ الملامِ حتَّى تأْتِيني بريشةٍ مِن جناحِ الذُّلِّ».

هذهِ اللُّغةُ كانَ لهَا أَثرُها الجليُّ/ المقنِعُ فِي تكوينِ شعريَّتي منذُ بداياتِها؛ شعريَّتي الَّتي جَعلتني أَنفرُ، طبقاً لفهمي لمفهومِ الشِّعرِ، منْ شرحِ الشِّعرِ بعدَ خروجِ قصيدةٍ لي مِن فضائِها الدَّاخليِّ الذَّاتيِّ إِلى فضائِها الخارجيِّ؛ الذَّاتِ القارئةِ.

كانتْ أَسئلتي دائماً:

لماذَا الفهمُ أَوَّلاً؟ ماذَا بعدَ الفهمِ؟ لماذَا يصرُّ القارئُ أَن يكونَ/ يظلَّ متلقِّياً فقطْ؟ معَ أَنَّنا نعرفُ «جرائمَ» التَّلقِّي الَّتي تُرتَكبُ باسمِ التَّعليمِ، والَّذي لاَ يعدُو كونهُ تلقيناً؛ إِفراغَ محتوًى فِي محتوًى آخر.

كيفَ يُفهَمُ الإِبداعُ بشكلٍ آليٍّ؟! لاَ أَفهمُ!

إِنَّ قارئَ الشِّعرِ بأُذنيهِ الَّذي لاَ يزالُ يسأَلُ: لماذَا لاَ تقولُ مَا يُفهَمُ؟ أَردُّ بكلِّ تفهُّمٍ وبراءةٍ: حينَ تفهمُ الموسيقَى.

إِنَّ كلَّ الفنونِ الإِبداعيَّةِ تحترمُ الإِنسانَ؛ قارئاً/ مُستمِعاً/ مُشاهِداً/ مُفعِّلاً كلَّ حواسِّهِ فِي سَعيِها إِلى رُقيِّ عقلِهِ، ورفعةِ ذوقِهِ، تحريضاً علَى إِنسانيَّتِه وتثبيتاً لهَا، وحضّاً علَى القتالِ الأَبيضِ مِن أَجلِ امتلاكِ حرِّيَّتِهِ فِي الرَّأْيِ والتَّعبيرِ عنهُ، وقراءةِ الحياةِ ووجودِه فيها قراءةً إِبداعيَّةً/ واعيةً، دونَ جبرٍ أَو إِكراهٍ. يقولُ الشَّاعرُ أُنسي الحاج: «أَكتبُ كيْ أُبرهنَ أَنَّ القارئَ موجودٌ. لمْ أُقابلْهُ، إِنَّه أَنا، إِنَّه أَنتم». وفِي الدِّراساتِ الحديثةِ: «لاَ نصَّ دونَ قارئٍ».

إِذاً، لاَ توجدُ كتابةٌ متعاليةٌ، كمَا يطرحُ الكثيرُ، علَى القارئِ المطلوبِ. أَنا أَبحثُ عنْ قارئي؛ قارئِي الَّذي أُريدُ منهُ أَن يعلُوَ عنِ الكلامِ الرَّثِّ/ المُبتذَلِ/ الفارغِ/ الفقيرِ إِلى الكلامِ/ اللُّغةِ الَّتي تدركُ مخيلتَهُ، فيصيرُ عندي شاعراً بفعلِه القِرائيِّ. أُريدُ منهُ أَن يُنشئَ نصّاً آخرَ؛ نصَّهُ هوَ، لاَ أَن أَفرضَ عليهِ نصِّي، كأَنَّه لوحُ قانونٍ، أَو نظامٍ، أَو دستورٍ. هذَا مَا أَعتقدهُ حقّاً طبيعيّاً لهُ، ولذَا أَكتبُ نصِّي الخاصَّ بِي، بدونِ أَن أُنازعَهُ عليْهِ أَبداً.

لستُ ضدَّ فهمِ الشِّعرِ الإِبداعيِّ، ولكنْ أَن لاَ يكونَ الفهمُ هوَ النَّتيجةُ الوحيدةُ منهُ. هذَا مَا أَرجو أَن يُستخرَجَ مِن حديثِي.

أَنا ضدُّ كتابةٍ شعريَّةٍ تُقرأُ بالأُذنينِ وحدَهما أَو بالكفَّينِ، إِذْ أَراها أَنَّها كُتبتْ لتلكَ الأَعضاءِ فقطْ! ومَا أَن تغادرَ هذهِ الأَعضاءُ مكانَ حضورِها، حتَّى يغيبَ رنينُ تصفيقِها معَها. لهذَا لاَ يؤمنُ الشَّاعرُ بُول شَاؤول بأَن يتسلَّقَ منصَّةً كيْ يُلقيَ مِنها شِعرَهُ.

وبِما أَنَّني ضدُّ تلكَ الكتابةِ الشِّعريَّةِ سيِّئةِ (...)، فأَنا معَ كتابةٍ شعريَّةٍ تُقرأُ بوعيٍ/ إِدراكٍ/ حواسٍّ/ مُخيِّلةٍ إِنسانيَّةٍ عاملةٍ/ فاعلةٍ.

إِنَّ خسارةَ قرَّاءٍ مقابلَ القبضِ علَى الجمالِ بالنَّواجذِ، لهيَ أَقلُّ فداحةً مِن خسارةٍ كبيرةٍ؛ خسارةِ الشِّعرِ والشَّاعرِ معاً!

■ محمَّد حِلمي الرِّيشة

Doha Magazine aldoha_magazine @aldoha_magazine

605546182007